الطبعة الثانية
فائز بجائزة
المتوسط
٢٠٠٩
حسن داوود
مئة وثمانون غروبًا
دار
الساقي

مئة وثمانون غروباً

تصميم الغلاف: ماريا شعيب

حسن داوود

# مئة وثمانون غروباً

رواية

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٩
الطبعة الثانية ٢٠١٠

ISBN 978-1-85516-361-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٨٦٦٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٨٦٦٤٤٣ (٠١)
e-mail: info@daralsaqi.com

على رغم انقضاء عشرين سنة على وصولي إلى الزهرانية، حيث ما زلت أقيم، أراني كما لو أنني انتبهت الآن إلى أن لا مقبرة فيها. خطر لي ذلك مفاجئاً، قاطعاً سيل الأفكار المتسابقة التي تأتينا ونحن نتحايل لنفلت من الأرق. أي أن شيئاً لم يسبق تلك الفكرة ليهيئ لها، أو يوصل إليها. كانت كأنها تقدمت من بين ذلك الخليط المتزاحم من الخيالات والصور، مثل كلمة، مثل جملة قالها لي رجل في أثناء النهار ولم أسمعها فبقيتْ منتظرة الوقت الذي يكون فيه وقعها كاملاً. ولقد كان وقعها كاملاً، حيث، على الفور، انقلبتُ لأكون نائماً على ظهري، لا على بطني ولا أحد جنبيّ، وفتحت عينيّ لأتبيَّن قدر الضوء، أو قدر العتمة، في الغرفة حولي.

لم يُدفن أحد هناك، في ذلك الشق بين الهضبتين المنحدرتين حيث، حتى الآن، لم يبنِ أحد بيتاً. تخيّلت، فيما أنا ممدّد على سريري، كيف أنهم، لو أرادوا أن تكون لهم مقبرة، لجعلوها هناك، أو لجعلوها هنا، في الأرض التي لا يفصلها عن المبنى الذي أقيم فيه إلا معبر ضيّق لا يتسع لإيقاف سيارتي. ظلت هذه

أرضاً منبسطة، لم يبنِ فيها أحد بيتاً، هي الأخرى، أرضاً متروكة جفّفت الشمس تُرابها حتى صار رملاً أسود كثيراً ما أُفكّر أن القيظ المهلك يأتيني من حرارته.

بل ليس هناك من قبر واحد في الزهرانية كلها، أقصد في الأراضي الملحقة بالبيوت التي لجهة البحر حيث، هناك فقط، نجد حدائق نبتت فيها أشجار وزهور. إن مرّ عابر من هناك، بسيارته، سيرى أن تلك البيوت قديمة بما يكفي ليموت، على الأقل، واحد من ساكنيها، بل واحد من ساكني كل بيت فيها. كما وأنّني قد شهدت، بعد شهر أو شهرين من وصولنا، ذلك التابوت المرفوع على أكتاف الرجال ليوضع في السيارة المتوقفة بين سيارات تجمعت هناك.

قال أخي إنها امرأة، ولما سألته إن كنا قد رأيناها من قبل، أنا وهو، أجابني بأنها كانت مريضة في فراشها من قبل وصولنا بكثير.

كان في السادسة عشرة، ذلك العمر الذي يُسرع من هم فيه إلى مصاحبة بعضهم البعض. حتى أنه، ونحن بعد في شهرنا الأوّل هناك، كان قد دخل إلى واحد أو اثنين من تلك البيوت. قال لي أن لا شيء يفصلهم عن البحر إلا تلك الصخور المسنّنة التي تجرّح أقدامنا إن مشينا عليها حُفاة. لكنهم يستطيعون مشاهدة البحر كله من بعدها، كما قال: البحر الذي كأنه لهم لأنه تابع لبيوتهم إذ لا أحد يمرّ بينهم وبينه، ماشياً على تلك الصخور. نحن أيضاً كنا نشاهد زرقته، كثيرة واسعة، من واجهة محلنا العريضة. أما حين نكون في بيتنا الذي يعلو محلّنا، فسيكون علينا أن نذهب إلى طرف الشرفة الضيّق حيث، من هناك فقط، نستطيع أن نراه.

ذاك أن البيت الآخر، الذي يعلو محلنا هو أيضاً، يسدّ منظر البحر علينا فلا يعود يصلنا منه إلا ملحه ورطوبته. كان أخي، بُعيد وصولنا، يظل يقول إنهم سدّوا علينا الهواء، فيما هو يمرّر إصبعه الممدود على جبينه ليزيح عنه العرق، هكذا كأنهم هم، ساكنو البيت، من يقفون بيننا وبين الهواء وكان يكره كثرتهم، تلك التي استغرقت منا وقتاً لنعرف، أنا وهو، من هم الأخوة أخوّةً كاملة ومن هم أنصاف الأخوة، كما منْ من الأولاد هما ولدا أخيهما الأكبر، عاطف. «هم وصلوا إلى الزهرانية قبلنا»، قال والدي يوم وصولنا إلى هناك ليرينا محلنا والبيت الذي في قفا الطابق فوقه: «تستطيعان أن تريا البحر وأنتما في المحل، طيلة النهار»، قال، غير أننا، منذ ذلك الوقت البعيد، ما زلنا نتخيّل كم يبدو منظر البحر جميلاً لمن يرونه من هناك، من شرفتهم العريضة التي تكاد مساحتها تساوي مساحة نصف بيت.

غير أن الطابق الأرضي من ذلك البناء هو لنا وحدنا ولا يشاركنا أحد فيه. حين دخلتُ من بوابته التي فتحها أبي بمفاتيح كانت معه ظننت أن الواجهة الواسعة هي المحل كلّه. كانت وحدها كافية لشغلنا وأنا لم أعرف، حين دخلنا إلى ما وراء الواجهة، بماذا يمكننا أن نستفيد، أنا وأخي، من هذه الغرف. اثنتان منها كانتا في ضخامةٍ لم يسبق لي أن شاهدت مثلها لغرف وراء أبواب. وقد خطر لي أنها تشبه المخازن التي يقيمها التجار القدامى ليحفظوا فيها بضائعهم. كانت عالية السقف بما لا يقل عن ارتفاع طابقين، وليس في كل من الغرفتين إلا نافذة واحدة، صغيرة لا تضيء ذلك الحجم الفارغ إلا بضوء خافت قليل.

مما كان يزيد في قوة العتمة اللونُ الاسمنتي للجدران، ذلك الذي صرت أراه، بعد إقامتنا هناك، جالباً للقيظ، مثله مثل الرمل الذي أحرقتْه الشمسُ وسوّدته. قال أبي، فيما هو يضع المفاتيح في يدي، أننا، أنا وأخي، لا بدَّ سنطلي الحيطان في وقت قريب. وقد أجابه أخي الذي كان يتجرّأ في الكلام أمامه على الرغم من أنه أصغر عمراً مني، بأن من أقاموا المبنى صرفوا مالهم كله على تكبير الغرف، منتقداً أبي وممازحاً إياه لشدة ما أوقفنا هناك، في الغرفتين الضخمتين، كأنما من أجل أن يفهمنا أنه أعطانا محلاً وسكناً، ليس فقط لعيشنا الآن، لكن لحياتنا كلها.

الآن فقط، بعد عشرين سنة من سكننا، انتبهت إلى أن لا مقبرة هنا. وأنا ممدّد بعد على سريري فكّرت أنني لم أعرف ذلك من قبل، ولم يخطر لي، لأننا نأخذ الأمكنة كما هي ونروح نشغل أنفسنا بما هو موجود فيها. وإذ رحت أتخيّل نفسي كيف أنا، متنقّلاً بين الأمكنة القريب بعضها من بعض، نازلاً من سيارتي ثم عائداً إليها لأُخفضها، من فور جلوسي إلى مقعدي، في اتجاه الأرض، بدوت كما لو أنني أُضيِّق عليّ نَفَسي. كأن لا أكثر من ذلك التنقّل بين أمكنة لا يفصلني عن أبعدها أكثر من ثلاث دقائق. على أنني، برغم ذلك، أجدني متجهاً إلى سيارتي في كل مرة، مؤثراً الراحة على تعب المشي. لكن هذا ما يفعله المقيمون في الزهرانية جميعهم، حيث «لا أحد يمشي هنا»، كما قال لنا واحد من الذين سبقونا إلى الحي.

وهي كلها سيارات قديمة، بل أنها تُشترى قديمة، أراها تتقدم خارجة من مرائبها الضيقة على جانبي الطريق، تنتظر عبور سيارة

أو سيارتين، ثم تتقدم لتحشر نفسها، ولمسافة قليلة دائمة، في خط السيارات المتقاطر في الاتجاهين. خط السيارات الذي أغرى أبي بشراء المحل لنا هناك، جاعلاً إيانا، أنا وأخي، ننتظر أن تنحرف سيارة ويوقفها سائقها قبالتنا، وينزل منها ليشتري منّا شيئاً.

أن يكون بيتنا وشغلنا قريبين لا يفصل بينهما إلا تلك الدرجات، فهذا ما يساعدنا على التخفيف من وطأة الأرق. أقوم من سريري وألبس ثياب البارحة التي كنت قد علّقتها على مقبض النافذة أو على طرف الكرسي العالي بجانبي، وأنزل إلى محلّنا أفتحه. تكون السيارات العابرة قليلة في الليل، لكنني أتسلى بالضوء القوي الذي يفيض من واجهة محلنا إلى الطريق. كما أنني أتسلى بنزول رجل من سيارته ليسألني ماذا نبيع. يكون، مثلي، يحبّ أن يتسلّى وأنا أصير أساله إن كان أتى من مسافة بعيدة وأبدو غير مكترث إن كان أتى ليشتري شيئاً أو إن كان أتى فقط من أجل أن يريح رجليه من طول القعود. وفي مرات أجدني، من أجل أن أبقيه وقتاً أطول عندي، أقوم لأغسل الركوة التي ما زال فيها ثفل البارحة وأقول له إن طعم القهوة طيّب في هذا الوقت.

ما زال محلنا، وكذلك بيتنا، مثلما كانا يوم أخذنا مفاتيحهما من أبي، قبل عشرين سنة. أقصد أننا لم نطل الجدران التي لم تُطل من قبلنا أبداً ولم نوسع نافذتي الغرفتين الضخمتين وراء الواجهة. كما أننا لم نصلح شيئاً تخرّب مع الوقت. نوافذ الخشب، تلك التي تضربها الشمس أكثر النهار، تخلخلت شفراتها أولاً ثم تفسخت إطاراتها فلم تعد درفاتها تنطبق إحداها على الأخرى. المجلى الذي انفسخ من وسطه أبقيناه كما هو، وكذلك

أبقينا بورسلين الحمام مسودّاً في تلك الدائرة التي يعود يتجمع فيها الماء بعد تصريفه. في السنة الأولى لمجيئنا ظللت أقول لأخي إن بيتنا يجب أن يظل نظيفاً مثلما هي البيوت التي تديرها النساء. هو أيضاً كان يحبّ أن يكون بيتنا مرتّباً، وهو لذلك اشترى، بعد أيام من مجيئنا، ضوءين مغلفين بزجاج مزخرف وضعهما عند جانبي سريره ولوحة تمثل امرأة مرسلة الشعر ومكشوفة الكتفين تعزف على أوتار آلة صغيرة، علّقها فوق سريره أيضاً. في تلك السنة الأولى هو الذي كان يقول لي إن علينا أن نزيّن بالديكور جدران واجهة المحل، وهو الذي لوّن تلك القضبان التي عرضُها عرض مسطرة المدرسة لكن المتطاولة حتى إلى ما تحت السقف بقليل. هذه أيضاً بقيت على لونها الأول ذاته، بشعة، كما أراها الآن، ورخيصة، كأننا لم ندفع ثمنها نصف ما كان تركه معنا أبي.

في أحيان أفكِّر أننا ربما كنا جعلنا عيشنا أحسن لو لم يكن الناس هم هكذا في الزهرانية: أقصد أولئك الذين يعيشون «فوق الطريق»، حيث محلنا وبيتنا. كان أخي يقول عن جيراننا الساكنين لصق بيتنا إننا إن لوّنا حيطاننا سنكون كأننا ندلّ بالأصابع على جيراننا الذين ستبقى حيطانهم من دون لون. «كأننا نقول للناس: انظروا ها هم الوسخون»، صار يردّد آنذاك فيما هو يرفع كفّيه ويلصقهما ممدودتين ليريني كيف تكون إحداهما ملوّنة والأخرى وسخة. أما تلك المسافة بين بابهم وبابنا فلن يكون نصفها نظيفاً ونصفها وسخاً. كما أننا لا نستطيع أن نقسمها بحائط نقيمه في وسطها.

لكنّا ظللنا نقول أن لا بدَّ يأتي يوم يغادرون فيه ويأتي ناس

غيرهم بدلاً منهم، أو ننتقل نحن إلى بيتهم فتصير لنا الشرفة الواسعة المطلّة كلها على البحر. الشرفة التي في اتساع نصف بيت والتي، حين يجلسون عليها، يكادون يلصقون أجسامهم بدرابزينها ليشاهدوا كل ما يجري على الطريق. بل أنهم يمدّون رؤوسهم ويخرجونها من فوق الدرابزين فيما هم يلاحقون بأنظارهم رجلاً أو امرأة يسيران في اتجاه محلّنا ليدخلا إليه. وأنا، فيما أكون أشاهد من يتقدم نحوي، نازلاً من سيارته، أروح أتخيله مرئياً من الأعلى، بعيني أبو عاطف خصوصاً، كما وأتخيل أبو عاطف هامّاً بالوقوف، ثم مائلاً بجسمه من فوق الدرابزين، ثم مدلياً رأسه، ثم ناظراً إلى آخر ما يمكنه رؤيته، وهو الجزء الأسفل من ساقين تقطعان الدرجة الثالثة الأخيرة التي توصل إلى محلّنا.

ولا يفعل أبو عاطف ذلك مختلساً أو متسرّقاً، فهو لن يباغَت إن نظر إليه مَنْ في الأسفل ووجده محدقاً فيه. بل أنّه، في الفترة التي أعقبت مجيئنا، كان يبدو لي كما لو أنه ينبّهني إلى أنه ينظر إليّ، وذلك بأن يعلي صوته من فوق الدرابزين حينما يكون ينادي أحداً ليأتيه من داخل بيته، أو يسعل فأجده، إذ أرفع رأسي إليه، محدقاً فيّ بعينيه اللتين أوسعهما السعال وحمّرهما.

ومثلما ينظر أبو عاطف إلى الناس، وكذلك مثلما تنظر إليهم زوجته، وابنه حين يكون في البيت، يتركون الناس تنظر إليهم، لا جالسين على شرفتهم فقط، لكن أيضاً وهم في داخل بيتهم الذي يظل بابه مفتوحاً كاشفاً عن الغرف المفتوحة أبوابها هي أيضاً.

أخي كان يكره أن يمرّ من أمام بابهم وكان يقول لي، كلما وصل إلى المحل حانقاً مما رآه أو سمعه، إنه في المرة القادمة

سيقفل بابهم بيده. كانت تلك فترة إقامتنا الأولى في الزهرانية، حين لم نكن قد تعوّدنا على عيش الناس هناك. لكن أخي كان يعرف، بسبب عمره الصغير آنذاك، كيف يجد رفقة تسليه. ليس فقط أنه دخل إلى بيتين من تلك البيوت القريبة إلى البحر، بل أنه كان يقول لي إنه سيذهب للسباحة مع رفاقه الذين بتّ أعرفهم. كانوا في عمره ذاته وإن كنت أظنهم أصغر عمراً إذ كانوا لا يزالون بعد تلاميذ يدرسون في المدارس. أنا سأذهب معهم، يقول لي ثم يسرع إلى بيتنا من أجل أن يأتي بثياب البحر. سأرجع في المساء، يقول فيما هو يمشي بينهم ممازحاً إياهم بأن يشير بيده إليّ أن أبقى أشتغل في المحل وحدي.

كان يتسلّى هناك، وقد رأيت كيف أنه يجاريهم في كل ما يتسلّون به، لا باللعب والسباحة فقط لكن أيضاً بالكلام الذي يجعله ممازحاً وملاعباً مثل كلامهم. تلك أشياء لا أعرف من أين تعلّمها، وأنا كنت أحبّ ذلك فيه وأقول إنه، في عمره ذاك، لن يطيق حياته إن كان سيقضي وقته مثلي منتقلاً من محلنا إلى بيتنا ومن بيتنا إلى محلنا. وكان هو يعرف أنني أحب أن يتسلّى فيروح، فيما هو يلوّح لي بيده ممازحاً، يُرسل لي تلك النظرة الودودة. بل كان في أحيان يريدني أن أتسلى أنا أيضاً فيقول لي إننا يجب أن نقفل محلنا في أيام الآحاد، على الرغم من أن السيارات التي تعبر الطريق فيها، والتي يتوقف بعض منها أمام محلنا، هي أكثر بمرتين أو ثلاث مما هي في الأيام الأخرى. وقد أقنعني قوله إننا إن لم ننوّع في حياتنا نموت. رحت، في يوم إقفالنا الأوّل، أتنقل بين غرف البيت ومطبخه وحمّامه حتى جاء هو، ورفاقه معه، وأخذوا

يزيّنون لي الذهاب إلى البحر ويلحّون عليّ بعد ذلك أن أذهب إليه معهم.

وأنا لا أستطيع أن أكون مثل أخي. فيما أكون أبدأ بتقبّل استدراجهم إياي، أصير أفكر في جسمي كيف سيظهر أمامهم وأمام السابحين الآخرين. كما أكون ما زلت أخضع لاستدراجهم حين أقول لهم أن ليس لديّ ثياب للسباحة. هذه أيضاً سيجدون لها حلاً بأن يسألني واحدهم إن كان بين البناطلين عندي واحد لم أعد ألبسه. أما عن يدي التي كنت أداري جرحاً فيها بأربطة فقالوا لي إنني أستطيع، فيما أنا أسبح، أن أبقيها فوق الماء.

ليس أنني ذهبت معهم بل أنني خرجت عن الهيئة التي هي لي ورحت أركض نحوهم بجسمي الذي جعلوا يفرّون من أمامه راكضين على حافات حوض السباحة الكبير، مطلقين صيحات فيما هم يدفعون أحداً منهم في اتجاهي لكي ألتقطه بيد واحدة وأرميه في الماء. كما كانوا يطلقون الصيحات ذاتها حين يرون، لحظة أقفز عن الحافة، كم يرتفع الماء من حولي. وأنا أروح أجاريهم في ما يحبّون أن يشاهدوه فأصير، إذ أسبح بعد ذلك واقفاً على رجليّ ومبقياً يدي عالية فوقي، أباغت أحدهم بأن أمدّ إلى رجله يدي الثانية، فيركض عن الحافة مسافة، ثم يعود إليها ليرى إن كنت سأتصيده هو هذه المرة أم سأتصيّد سواه.

لكنني بعد يوم من لهوي معهم أكون قد قلّبتُ مشاهد ظهوري بينهم كما تُقلَّب صور مطبوعة على أوراق. وكما هي عادتي، أروح لا أبقي إلا ظهوراً واحداً لي لا يعجبني: واقفاً على حافة الحوض، بمفردي لا أحد حولي، لكنني مُشاهَدٌ من الأعلى، من

أسفل رقبتي حيث يبدأ خط السمنة السميك مغلظاً كتفيّ ونازلاً بعد ذلك إلى ظهري.

وقد أخفّف من ثقل مشهدي ذاك عليّ حين يأتي رفاق أخي إلى محلّنا ويكلمونني كأنهم راغبون في استئناف رفع الكلفة الذي كنا فيه. أصير أمازحهم أنا أيضاً، لكن متراجعاً في ذلك إلى الوراء لا إلى الأمام. وهم يشعرون بذلك بعد وقت، فتبدّل وجوهُهم سحنة الابتسام التي كانت ملازمتها ويأخذ تحلّقهم بالانفكاك، صامتين، متجهين واحداً بعد واحد، إلى صف البسكلاتات الصغيرة أو إلى الرفوف التي وضعنا عليها ألعاب الصبيان، تلك التي تُدار بالبطاريات.

ولم أذهب معهم إلى البحر في يوم الأحد الذي تلا. قلت لأخي إنني سأبقى في البيت لأنظّفه، ثم أنزل إلى المحل بعد الظهر. وهو لم يفعل هذه المرة مثلما فعل في المرة الماضية. لم يقل لي إننا سننظف البيت معاً حين يعود ولم يسألني أين هو البنطلون الذي قصصته للسباحة، كما كان سيفعل لو أراد أن أكون معه.

في الفترة الأولى من عيشنا في الزهرانية كنت أشبّهها بالمحطات التي نراها في الأفلام عن أميركا، تلك التي أقيمت في الوسط بين بلدتين تبعد إحداهما عن الأخرى مئة كيلومتر أو مئتين. وقد بقيت أقول ذلك سنة بعد سنة من دون أن أغيّره، كأنها جملة حفظتها ولم أشأ أن أتعلّم غيرها. الآن أعرف أنّ ما فكرت فيه كان صحيحاً، خصوصاً بعد أن انتبهت إلى أنني كنت أتكلم عن بيتنا ومحلّنا، أقصد عن المبنى الذي نحن فيه، متخيّلاً أنه

الزهرانية كلها. كنت أرى أننا نعيش وحدنا أنا وأخي، مثل أولئك الذين يديرون المحطات في تلك الأفلام، يعملون وينامون فيها. نحن كنا مثلهم، ننتظر أن يأتي إلينا الناس بسياراتهم، ينزلون منها محنيّي الظهور في خطواتهم الأولى لأن الجلوس وراء المقود أتعبهم.

وكل الذين جاءوا ليشتغلوا هنا لا بدَّ أنهم يفكرون مثلما أفكِّر، حيث أنهم مثلنا ينتظرون أن تتوقف السيارات عندهم ليشتري سائقوها منهم. والمحلات على الطريق ليس بعيداً أحدها عن الآخر. لا أكثر من خمسين متراً أو ستين، وربما أحياناً مئة متر، لكن كل محل منها منعزل كأنه وحده على الطريق. وحين أذهب بسيارتي إلى أقرب المحلات إليّ، لأشتري خبزاً أو لحمة أو أي شيء مما نحتاجه لأكلنا، أجدني لا أذهب إلا بسيارتي لأنزل منها، مثلي مثل أولئك العابرين الآتين من مسافات بعيدة. حتى تلك الدرب الناتئة الحجارة، الخارجة عن الطريق والتي كلما ارتفعت، تصير مثل درجات تهشّمت حافاتها، أقطعها بسيارتي أيضاً، وإن متحسباً في كل لحظة من أن شيئاً في حديدها سينكسر.

تلك كانت أولى الطلعات في الزهرانية، أقصد أن من شقّها كان أول رجل في الزهرانية يقيم مع عائلته على تلك الهضبة المرتفعة فوق المحلات والبيوت الملصقة بها. وقد كانت الأرض هناك رخيصة، لذلك يمكن لزائره، وهو زائر نادر إذ قلما رأينا أناساً يتسلقون بسياراتهم تلك الطلعة، أن يرى، في داخل الجدار الواسع الذي سوّر به أرضه، أرضاً مزروعة وحيوانات داجنة فالتة

غير مربوطة إلى المعالف وأخرى غير داجنة، أو داجنة أقل بكثير مما ينبغي، وهي تلك الكلاب التي كأنما جعلها أبو تيسير سوراً ثانياً لبيته حيث تصير، إن اقترب أحد من البوابة، تنبح نباحاً مثل الذي تطلقه الحيوانات المفترسة قبل أن تهمَّ بأن تأكل أحداً. كما يمكن لذلك الزائر أن يرى أبواباً منزوعة من السيارات وهياكل غسالات وبرادات وماكينات كبيرة يعمل منها، هو أبو تيسير، مصنوعات لم نشاهد منها شيئاً يُنزل على تلك الدرب الصعبة بين بيته والطريق. «سفينة نوح»، كان رفاق أخي يقولون لنا واصفين ذلك المكان الذي لم يره أكثرهم. ولكي يشبّهوه بعد ذلك بشيء يعرفونه يقولون إنه مثل تلك القواعد التي تبنيها العصابات الكبيرة تحت الأرض لتصنع فيها صاروخاً يدمر العالم. ذاك أنهم لا يشاهدون أبو تيسير في المرات القليلة التي ينزل فيها إلى الطريق إلا مرتدياً الأوفرأول الذي يرتديه الصناعيون. وكذلك كان يرتدي ابنه الأكبر الأوفرأول مع أنه، حين يشاهَد كل يوم منتظراً أحد الباصات، يكون حاملاً قفصاً بكل يد، ورافعاً القفصين بيديه إلى ما تحت صدره بقليل، كأنما من أجل أن يظلا تحت نظره فلا يصطدمان بشيء يوقعهما ويطيّر العصافير المحبوسة فيهما.

ومع أنني صعدت بسيارتي مرّات إليه، إلا أنني لم أتعدّ في دخولي أول ذلك الحوش الواسع لأكلّمه فيه، ثم أنتظره بعد ذلك في سيارتي التي أبقيتها في الخارج، ليأتي لي بما أعطيته إياه ليصلحه: بسكلات انشق لحام حديدها من أحد المواضع، لعبة صبيان لم تعد كهرباء البطارية تصل إلى موتورها، لعبة مطاط انمزقت، لعبة بورسلين انفصل أحد أطرافها عنها. لا يأخذ مالاً

كثيراً مقابل ما يفعله، لكنه بالمقابل لا يخفي أثر ما يصلحه فيظل اللحام ظاهراً أسود على حديد البسكلات، كما تظل الخياطة ظاهرة على لعب المطاط. . لذلك كنا نضع، أنا وأخي، تلك الأشياء المعطوبة في زاوية الواجهة ونبيعها لمن يريد شراءها بنصف ثمنها أو أقلّ.

كان أبو تيسير قد سبقنا إلى المجيء للزهرانية، بل أنه سبق جيراننا الذين يسكنون في المبنى معنا، وربما سبق جميع الآخرين الذين، واحداً بعد الآخر، بدأوا يقيمون محلاتهم ثم يلحقونها ببيوت يلصقونها بها. في مرات أفكر، وأنا أنظر من شرفة بيتنا إلى سور بيته مرتفعاً في أعلى الهضبة، أنه كان يمكن له، لو فعل كل الآخرين مثله، أن يغير منظر الزهرانية كلها، كأن تصير أرضها بقعاً مسورة بالحيطان العالية وفي داخل الأسوار ناس يشتغلون بأشياء أراني أحتاج إلى الكثير من التخيّل حتى أستطيع تخمينها. حتى هو، أبو تيسير، أرى عقلي مشوشاً حين أروح أفكِّر ماذا يصنع ومن أي شغل يعيش ما دام الناس لا يمكن لهم أبداً أن يعيشوا إن لم يبيعوا أشياء ويشتروا أشياء في مقابلها. أما عن الأجر الذي يأخذه مني فأراه في أحيان لا يزيد كثيراً عن المواد التي يضعها في اللعب التي يصلحها. كما أن بيع العصافير التي يحملها ابنه تيسير بالقفصين لا يطعم بيعها خبزاً كما يقولون لأنه، في غالب الأيام، يعود بالقفصين، كما أخذهما.

كان يمكن له أن يغيّر منظر الزهرانية كلها لو أن الذين قدموا من بعده فعلوا مثلما فعل. وأنا على شرفة بيتي، تلك المطلة على الهضبة التي يسكن هو مع عائلته في أعلاها، أروح أفكر أيضاً أنه

ربما كان في عقله شيء زائد عما في عقول سواه. ولا أقصد تلك الفوضى التي يعيش في وسطها، بل ذلك السور الذي بناه تحسّباً لكونه أتى ليعيش في مكان سبق لغيره أن أقام فيه. ثم أنه، بحسب ما كان يهتف له ذلك الشيء الزائد في عقله، لا بدَّ فكر بأن السور ذاك لا يحميه من أولئك الناس الذين سبقوه فقط، بل أنه يطمئنهم إلى أنه قاعد فيه، في داخله، هناك وراء بوابته المقفلة.

وهذا ما لم يفعله أولئك الذين قدموا من بعده، الذين أقاموا محلاتهم وبيوتهم على الطريق، بل على حافة الطريق، فكانوا أقرب ما يكونون إلى تلك البيوت التي لجهة البحر، والتي تكاد تكون على حافة جهة الطريق الأخرى لو لم تفصلها عنها الأشجار القليلة التي زرعوها لتكون حدائق لهم. أبو تيسير، «المخترع» كما كان يسميه رفاق أخي، مضيفين بعد ذلك الصفة الكاملة له بقولهم «المخترع الذي لم يخترع شيئاً»، كان عارفاً بأن الناس لا يتجاورون هكذا بسهولةٍ أن يسكن بعضهم في قبالة بعض. لم يفعل أصحاب المحلات الذين أتوا بعده مثلما فعل، وكذلك لم يفعل أولئك الذين، في سنوات لحقت، تبعوه في البناء على الهضبات التي فوق الطريق، بل فوق المحلات، فأقام هؤلاء أبنية ترتفع طوابق عدة وقسَّموا لها الأرض بطرق تسير عليها السيارات، وبنوا مسجدين لم يُعلوا مئذنتيهما كثيراً، كما خصّصوا طابقاً كاملاً من إحدى البنايات ليكون صالة للأفراح يحتفلون فيها بأعراسهم.

* * *

أتذكر تلك الالتفاتة الأولى التي تحولتْ إلى رغبة صامتة

بالنساء اللواتي لا تفصلني عنهن إلا تلك المساحة القليلة بين بابينا.
ما زلت أذكر تلك اللحظة التي كأن خطأ حدث فيها. كأن شعوراً خاطئاً أتاني في غفلة مني حيث، بدلاً من أن أكمل انزعاجي، بل وكرهي لما كنت أراه جوّ بيتهم الفاسد، انقلب عليّ، في تلك اللحظة الواحدة ذاتها، وتمسك بي. هي لحظة واحدة لا أكثر، نظرة، بل أقل من نظرة إذ سرعان ما أدرت عينيّ إلى الدرجات، مسابقاً حتى الوقت الذي أحتاجه لأفكِّر ماذا عليّ أن أفعل. كنت قد أغلقت بابنا لتوّي، وخطوت الخطوة الأولى إلى فسحة الدرج حين عبرت امرأة أبو عاطف من وراء بابهم المفتوح منكشفة الجسم كأن ما تلبسه هو ما يُلبس عادة تحت ثياب النوم. ما تلقّته نظرتي السريعة تلك، الخاطفة، بل الهاربة، هو ساقاها العاريتان حتى منتصف فخذيها، الممتلئتان، لكنْ غير المتّسقتين مثلما هي سيقان النساء في الصور، واللتان بدتا مغريتين برغم ذلك، بل بسبب ذلك، بحسب ما رحت أفكِّر واقفاً، متنقلاً بين رفوف الألعاب، في الساعة التي تلت.

كان يمكن لي، لولا ذلك الخطأ الذي تمسّك بي، أن أضيف ما شاهدته إلى ما نراه منهم كل يوم؛ كأن أقول لأخي مثلاً، حين أصل إلى محلنا، إن امرأة أبو عاطف تتمشى بثيابها التحتانية وراء بابها المفتوح. وكان هو، أيضاً، سيضيف ذلك إلى قائمة فسادهم التي من بينها تنزّه عاطف المتزوج والمنجب ولدين يعيشان في بيت أبيه ذاك، بسيارته على الطريق، وتحت شرفة بيتهم، مع بنات يضحكن بأصوات عالية، غير مكترث بزوجته التي في الأعلى ولا بولديه. . ومثله يفعل أبوه حين يتكلم عن النساء اللواتي يعرفهن،

بل ويعاشرهن، على مسمع أولاده وزوجته، تلك التي، فيما رحت أفكّر في ظهورها ذاك وراء الباب المفتوح، خطر لي أنها ربما فعلت ذلك عن قصد.

كأنني نسيت صوتها العالي الذي يُسمع من وراء بابين مقفلين شاكياً ومهدِّداً في الوقت نفسه، وكأنني نسيت مشيها الثقيل الذي تكاد لا ترفع له رجليها عن الأرض. في الأيام التي تلت رحت أُكثر من الصعود إلى البيت، وأفتح باب بيتنا ثم أعود فأغلقه مرة بعد مرة كأنني، في كل مرة، أعود إلى الداخل لأحضر شيئاً قد نسيته. ومن خلف بابهم المقفل، أو المفتوح في أحيان، أو المشقوق قليلاً في أحيان أخرى، أسمع صوتها العالي الذي لا بدَّ يوقفها عن المشي ويغلظ رقبتها. إنها هيئتها الأولى ذاتها، لكنني، بعد تعلّقي بها، صرت أتخيّل لها هيئة أخرى تكون فيها صامتة، بل ومستحية لا تكاد ترفع عينيها في وجه رجل جالس بقربها حتى تخفضهما. ولم أكن أنا ذلك الرجل.

في تخيّلي، أو في توهمي، كنت أفردها عمّن هم في البيت معها. ولا يُعطّل ذلك صوتُها العالي إلا في وقت ما أكون أسمعه. كان أخي يردّ على صوتها ذاك، من بيتنا حين نكون معاً فيه، بأن يقول كلاماً يسبّها فيه واصفاً إياها بأنها بقرة وبأن صوتها جعير بقرة. وقد خطر لي في إحدى المرات، بعد أن أنهى سبّه لها بسبّهم جميعاً، أن أختبر إن كان ما أتخيله فيها يُحسّ به سواي: كيف ترضى بأن تعاشر زوجها وهي تعرف أنه يعاشر نساء غيرها؟

ـ ومن قال إنها لا تعاشر رجالاً غيره، أجابني.

على الفور تألّف في رأسي مشهد لها، واقفة في غرفة صغيرة

مقفلة الباب، وفي المشهد رجل جالس على صوفا ليس في الغرفة أثاث سواها.

ـ لكن أين تفعل ذلك وهي لا تخرج أبداً من البيت؟

ـ تفعله حين تضع المصاري تحت صديريتها وتقول لمن في البيت إنها ذاهبة لتشتري أغراض الطبخ، أو حين تقول إنها ذاهبة لتزور أمّها.

تذكّرت أنني شاهدتها مرة، حاملة جزدانها وتتلفّت إلى الأعلى، حيث بيتهم، فيما هي تنتظر سيارة أجرة تقف لها.

ـ وإذا كانت تزور أمها فِعْلاً؟

لكنني عدت إلى مشهدها ذاك واقفة الوقفة إياها، والرجل ما زال قاعداً في مكانه، على طرف الصوفا ذاتها. أما الغرفة الصغيرة الخالية من الأثاث، والمعتمة، فتخيّلتها في مكان ما من الزهرانية. غرفة لوحدها، غير متصلة ببيت، ومنعزلة، بل ومختبئة، كأن لا أحد يعرف أين مكانها إلا هي والرجل الذي معها.

ـ لكن لا أحد يقول أنه رآها مع رجل؟

لم يسمعني. بل أنه ربما سمعني لكنه تذكر شيئاً سيعرضه التلفزيون فقام إليه ليديره. وأنا سكتّ عن أن أقول ذلك مرة ثانية لئلا أثير توجّسه.

كان البرنامج الذي يعرضه التلفزيون قد صار في نهايته لكنه مع ذلك تمكن من إضحاك أخي الذي جعل يشير لي بإصبعه إلى الممثلين الذين يقعون واحداً فوق الآخر ويقول واحدهم، فيما هم يتخاطفون جرة فخار كبيرة ويحاذرون في الوقت نفسه من أن تنكسر أو تقع تحت أثقالهم، إن هذه رجل سواه وليست رجله، ثم

يقول آخر بل أنها رجله والجرّة أيضاً هي جرّته. وأخي ظل يضحك حتى بعد أن بدأ الضوء يضعف عن صورة الممثلين المتكومين بعضهم فوق بعض وتخفت، شيئاً فشيئاً، أصواتهم. تلك مناظر لا يضحك لها إلا من كانوا في عمره، فكرت.

ـ أنا سأعمل شيئاً لنأكله، قلت له، كأنما من أجل أن أبقيه جالساً أمام التلفزيون، كما من أجل أن أنسيه ما يمكن أن يكون قد فهمه من أسئلتي عن المرأة.

ـ أنا الليلة سأتعشى وأسهر مع أصحابي، قال لي بعد أن صرت في المطبخ وبدأت أنظر في الأوعية أيها أستعمل لإعداد الطعام.

ـ في بيت من؟ سألته مغادراً المطبخ ومتجهاً إليه حيث يجلس، كأن ما قاله يستلزم أن أستمهل نفسي وأعرف من بعده ماذا أفعل.

ـ الليلة عيد طوني، نحن رفاقه سنعمل له سهرة في المطعم.

ـ أيّ مطعم؟ قلت مستغرباً أن يكون في الزهرانية مطعم.

ـ مطعم المسبح، سيفتحونه لنا في الليل.

لم يقل لي هذه المرة أن أذهب معه «إن كنت أحب». لم يدعُني تلك الدعوة التي صارت مجاملةً فقط والتي لم يعد غالباً ينتظر سماعي أعتذر عنها.

ـ أهل طوني سيكونون معكم؟

ـ لا، نحن الأصحاب فقط. هو طوني لا يعرف أننا سنسهر، تركناها له مفاجأة.

كنت أحبّ رفقته لطوني خصوصاً. حين يكونون معاً يظل طوني آخرهم، واقفاً في الخلف. ويظل يحرص، مع ذلك، على أن يصافحني بيده حين يبدأون بالخروج.. هكذا مثلما يفعل من هم أكبر منه عمراً مع أنه، في الوقت نفسه، يتصرف ويتكلم مثل تلاميذ المدارس.

ـ كم صار عمره؟

ـ طوني؟

قالها فيما هو ينظر إلى ساعته التي كأنها باغتته هذه المرة، ثم التفت إليّ كأنما لأعيد عليه ما كنت قلته.

ـ طوني، كم صار عمره.

ـ ١٧.

قالها فيما هو يتوجه إلى غرفته ليلبس ثياب الخروج ويهيّئ نفسه للذهاب.

كنت أنا أيضاً مستعجلاً فيما هو يتنقّل بين غرفته والحمام الملاصق لها. راقت لي، بل أغرتني، فكرة أن أكون في البيت وحدي. أن أختلي فيه، متوهّماً شيئاً غير منتظر يمكن أن يحدث.

صرت أكثر استعجالاً لخروجه حتى أنني رحت أنزعج من ترنّمه، مبطئاً، بكلمات من أغنية راح يردّدها مرة بعد مرة. كان في أثناء ذلك واقفاً أمام مرآة الحمام، يعيد تمشيط شعره ربما، أو يسوّي قبّة قميصه عالية ثم يعود ليهدلها كاشفاً عن رقبته كلها. من أمام المرآة، التي كان يحدق فيها بنظرة أخيرة، قال لي إنه الليلة سيتأخّر. ثم أطلّ عليّ كأنما من أجل أن يسألني كيف يبدو لي.

وقد خطوت معه، بل لحقته، كأنما لأرافق خروجه من

الباب. وإذ نزل مسرعاً عن الدرج، وصار في آخره خارجاً إلى الممر الضيّق الموصل إلى الطريق، انتظرت وقتاً قليلاً، ثم توجهت إلى الداخل مستعداً، أو متهيّئاً، لأن أكون وحدي. ولكي لا يفاجئني أخي بأن يعود قائلاً إنه نسي شيئاً، توجهت إلى تلك الزاوية من شرفة البيت، المطلة على الطريق وعلى البيوت التي تحتها. كانت خالية وأليفة حيث لم تترك السيارات التي ظلّت تعبرها طيلة النهار أي أثر عليها. كان قد وصل إلى بيت طوني الذي أضيئت فسحة الحديقة أمامه. على الطريق رأيت أيضاً برناديت ورينيه، متقدّمتين باتجاه بيت طوني أيضاً. ولمّا ظهرتا لأولئك الذين في الداخل، واقفتين ما زالتا على طرف الطريق الذي بلغه الضوء أيضاً، جعل هؤلاء يخرجون من الباب محدثين جلبة راحت تصلني كلمات وأصوات متفرقة منها.

كانوا كثيرين على الطريق الخالية، مترافقين معاً، وقد فاجأني ذلك لأن أخي لم يقل لي إن البنات سيسهرن معهم. بل أنه لم يقل لي قبل ذلك إنه يكلمهن أو أنه يشترك مع رفاقه في الجلوس معهن.

حين وصلوا إلى العمود الذي ينير ضوؤه الطريق بدا لي كما لو أن أصواتهم ارتفعت فجأة. وقد سمعتُ أخي يمازحهم بسؤاله أولئك الذين وراءه متى عيد ميلاد ميلاد، قاصداً رفيقهم ميلاد الذاهب معهم. لم أجد مزحته هذه تستحقّ الضحك، بل أنها بدت لي سمجة. غير أني، مع ذلك، عرفت منها إلى أيّ حدّ بات قريباً إليهم. ولم يفرحني ذلك، إذ بدا لي أن هناك أشياء كثيرة لا أعرفها عنه، أنا أخوه الذي أعيش معه.

من باب الشرفة الذي عدت منه إلى داخل البيت، والذي ترددت قليلاً في أن أغلقه أو أن أبقيه مفتوحاً، بدأت أُجري الترتيبات لأكون وحدي: أن أطفئ لمبات وأُبقي من بينها واحدة مضاءة؛ أن أفتح الباب لثانية أو لثانيتين، متلصّصاً، لكن لأتأكد من إمكان فتحه وإغلاقه من دون أن يحدث صوت الأزيز الذي يطلع من الأبواب؛ وأن أرتّب الفوضى القليلة التي أحدثها جلوسنا، أنا وأخي، على المقاعد؛ وأن أفتح الحنفية على المغسلة في الحمام لأزيل ما علق عليها أثناء تزيّن أخي. . ثم أن أنظر في المرآة بعد ذلك لأرى كيف هو وجهي ولأمرّر المشط في شعري. هي ترتيبات سريعة أنجزتها في أقل من ثلاث دقائق لأبدأ الانتظار من بعدها. الانتظار الضجر لكن المترقّب في الوقت نفسه. ذاك أن التلفزيون الذي جعلت صوته خافتاً لن تأخذني صورُه إليه ولن تشغلني عن الانتباه لأي صوت أسمعه، أو أتوهّمه، آتياً من وراء الباب. وقد قمت ثلاث مرات عن مقعدي إليه، ماشياً على رؤوس أصابعي ومقرّباً أذني منه حتى لأكاد ألصقها بخشبه. وكنت أرجع إلى مقعدي بعد ذلك، لأعاود الترقّب والتنصت من هناك، كما لأكمل تخيّلاتي التي كانت قد كررت فتح الباب وإدخال زوجة أبو عاطف من درفته، ثم إغلاقها الباب بإحدى يديها فيما هي تضع إصبعاً من يدها الثانية على شفتيها حاثة إياي على ألا أُطلع أيّ صوت قد يُسمع. وقد أبقتها تخيلاتي واقفة معي على بعد خطوات من الباب المقفل، قبل أن نتقدم أنا وهي إلى غرفة النوم، تلك التي تبعدنا عن الباب، المقفل مع ذلك، وتحجزه عنّا حيطانها.

* * *

كل تلك البنايات التي ارتفعت على الهضبة، مشرفة من ارتفاعها على الطريق، بناها رجل واحد ومن ماله وحده. وقد ظلّ تيسير، بائع العصافير، يقول كيف يكون رجل غنياً هكذا ولا يبني إلا بنايات رخيصة. كانت هذه إحدى جُمل تيسير القليلة حيث أنه، في الأوقات التي يكون منتظراً مرور الباصات، يكون يحرص على ألا يكلم أحداً، أو حتى لا يجيب أحداً يكلّمه أو يسأله شيئاً. «هذه من أين جئتَ بها؟» كان أخي يسأله، إما ليتعجب من تمكنه من قول تلك الجملة، وإما ليقينه بأن تيسير يرددها عن لسان آخرين سمعها منهم. ولم يكن تيسير يجيب في شيء. فقط يطيل النظر في وجه أخي ثم يستدير ليمشي خطوات إلى الأمام، لكي يكمل انتظاره للباص هناك، مبتعداً عن أخي. أما رفاق أخي فيقولون، من دون أن يذكروا الحادثة التي يشيرون إليها، إنّ تيسير قد خفّ عقله بسبب الضربة التي أصابت أعلى جبينه، تلك التي كانت قوية لا بدَّ إذ هي دخلت إلى دماغه فأبقت مساحة إصبعين خالية من العظم ولا يغطيها إلا الجلد وحده.

تعال إلى هنا، يقول له أخي فيما هو يستدير ليعود إلى محلّنا. «تعال قف هنا. . أنا ذاهب ولن أقول لك شيئاً»، يقول له داعياً إياه ليعود إلى مكانه. «أكيد أنه هو قالها» يعلّق حين يصل إليّ في المحل مضيفاً بعد ذلك أن من هم مثل تيسير يكون ذكاؤهم قوياً في أحيان. «ثم أنهم لا يكلمون بعضهم بعضاً هناك في المعمل»، يقول متمسخراً هذه المرة على المكان الذي يعيشون فيه.

جملة تيسير هذه لم يستحسنها أخي ورفاقه فقط، بل

استحسنها أيضاً كل من سمعها منه. وليس ذلك بسبب الفارق بين ثراء الرجل وفقر بناياته بل بسبب كرههم لتلك البنايات التي «ينكشف رخصها كلما اقترب الشخص منها». بل أنها لا تبدو بنايات إلا لمن يراها عن بعد، حيث أبواب الشقق مشتراة من بائعي المواد القديمة لا باب منها من نوع الآخر، وكذلك هي الدرجات التي بعضها مكسّر حتى من وقت ما كان يلصقها العمارون درجةً فوق الأخرى.

أخي، مثل رفاقه، كان يستحسن تلك الجملة ليس بسبب إصابتها البنايات فقط بل لإصابتها الساكنين فيها. كانوا كثيرين وهم ملأوا تلك البنايات التي، حين كانت ترتفع كلها معاً، ظللت أتساءل من أين ستجد مستأجرين لشققها. كانوا كما لو أنهم ينتظرونها، عائشين قبلها بلا سكن، وقد اندفعوا إليها، كلهم معاً، لا ليسكنوا فقط لكن أيضاً لكي يبيعوا لبعضهم البعض ويشتروا من بعضهم البعض في المحلات التي جعلوها مطلة على الطرقات. وقد ظلوا، بسبب ذلك، بين البنايات لا يبتعدون عنها. أما سياراتهم الأكثر عتقاً وتخلعاً من جميع السيارات، فكانت لا تُشاهد إلا في تلك المسافة من الطريق، بين مفرقي الشارعين الصاعدين في اتجاه البنايات، اللذين شقّهما الرجل على نفقته أيضاً.

* * *

في أحيان أفكّر أننا ربما كنا، أنا وأخي، الأقرب إلى ساكني البيوت القريبة إلى البحر من كل الذين في الزهرانية. ذاك أننا، مثلهم، لا نتعب أجسامنا في الشغل مثلما يفعل الذين أقاموا

محلاّتهم في ذلك الصف الطويل فوق الطريق. لا نضطر إلى أن نفيق قبل طلوع النهار لكي نأتي بما نبيعه، مثلما يفعل الخضرجية منهم أو بائعو اللحم الذين ينبغي أن تكون ذبائحهم مسلوخة ومعلقة على الخطافات قبل أول النهار. نحن نشتغل مثل الموظفين، كنت أقول لأخي، نفتح محلّنا مثلما هم يأتون إلى وظائفهم. كما أننا نلبس مثل ثيابهم أيضاً ولا يضطرنا بيعنا للألعاب أن نلبس جزمات كوتشوك عالية أو أن تكون ثيابنا متسخة عليها آثار ولطخ مما نبيعه. سوى بيع الألعاب، سوى إعطائها لمن يشترونها وقبضنا ثمنها منهم، لا نفعل شيئاً إلا إزالة الغبار عنها لكي تظل نظيفة في الواجهة. ونحن نفعل ذلك بالمنفضة، تلك التي نمسكها من آخر عصاها الطويلة لكي لا يحطّ علينا الغبار الذي ننفضه عنها.

نحن أقرب إليهم، أولئك الذين لا يشتغلون في الزهرانية بل يسكنون فيها فقط. بل أنهم ربما لا يشتغلون أبداً حتى أن أولئك الذين يغادرون بيوتهم في الصباح، وهم قليلون على أي حال، يعودون إليها في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة. أما الآخرون، الكثيرون، فلا يخرجون من بيوتهم إلا ليأخذوا زعترهم إلى محل المناقيش أو ليشتروا الأغراض التي أوصتهم عليها نساؤهم. كنت أسأل أخي، حين بدأ يزورهم في بيوتهم: بماذا يشتغلون؟ مما يعيشون؟ وكان يجيبني بأن أهل طوني يعيشون من ضمان مزرعة يملكونها، وأن والد برناديت كان دركياً برتبة وهو يقبض تقاعده في آخر كل شهر، وأما أُم نزيه التي تركت شعرها أبيض كله ليس فيه شعرة سوداء واحدة، والتي تأتي أحياناً إلى محلنا لتتفرج على

اللعب، فتعيش هي وابنها ميخا من المصاري التي يرسلها إبنها نزيه من أميركا.

هؤلاء نحن أقرب إليهم من جميع أولئك الذين جاءوا من قبلنا ومن بعدنا. أخي عرف كيف يمازحهم ويمازحونه منذ شهر وصولنا الأول وإن كان بدا، في نكتته عن ميلاد وعيده، كأنه يفرض نفسه فرضاً عليهم ليجبرهم على أن يكون واحداً منهم. وأنا، برغم أن نكتته تلك لم تعجبني، أعرف من أين أتى بها. بل أنني أنا، لو كنت أعرف كيف أقول النكات، لكنت مثله، أقول شيئاً يضحك له السامعون مجاملين مانعين أنفسهم، في الوقت ذاته، من أن يلتفتوا برؤوسهم إليّ مفكرين، أو منتبهين، إلى أنني أبنت عن شيء أختلف به عنهم.

كان أخي يسعى إلى أن يكون مثلهم، أقصد أن يكون مثلهم تماماً وليس فقط أن يكون أقرب إليهم من جميع أولئك الذين في الزهرانية. كان يسعى إلى أن يقترب أكثر، أن يخطو تلك الخطوة الأخيرة التي تضعه في ما يشبه ما كنا نفعله صغاراً في المدرسة، حين نقرّب ورقة من ورقة ليلتصق الرسمان ويصيرا كأنهما رسم واحد.

وقد تحقّق له ذلك في مرات كانت إحداها تلك القبلة التي طبعتها برناديت على خدّه، عندنا في محلنا. كانت ماشية على الجهة الأخرى من الطريق، عائدة من البحر إلى بيتها حين لوّح لها أخي بيده. وإذ ردّت على تلويحته مبتسمة ورافعة يدها كلها إلى الأعلى، ومحركة إياها بعد ذلك يميناً ويساراً مثلما يفعل من يودّعون بعضهم بعضاً من مسافات هي أبعد بكثير من تلك التي

تفصل بين جانبي الطريق، ردّ أخي بأن أدار كفّيه حول فمه مقلداً ما يفعله شخص ينادي شخصاً يسبح مبتعداً عن الشاطئ. وقد أوقفت برناديت مشيها وراحت تتطلع في الاتجاهين منتظرة أن تخفّ السيارات حتى تمرّ. ثم ركضت إلى جهتنا جاعلة الحقيبة التي على كتفها تهتز ويكاد ما فيها يخرج منفلتاً من فتحتها الواسعة. وفيما هي تقطع الخطوتين الأخيرتين من الطريق أطلقت ضحكة كأنما لتهنئ نفسها على نجاتها من السيارات. ومبقية على ضحكتها ذاتها تقدّمت من أخي الواقف منتظراً وصولها في أعلى الدرجات الثلاث. تلك القبلة التي لا أدري إن كانت قد أُرفقت بصوت التقبيل، إلا أنها أوقفتني عندها مبقياً إياها مكبّرة مضخمة في صورة شفتين تلتصقان بخدّ. في تلك اللحظة كان تطابق الرسمين، أو الورقتين، كاملاً. وكان مفاجئاً لي حيث تراجعتُ خطوة أو خطوتين إلى الخلف كأنما من أجل أن أترك لذلك القرب، أو لذلك الالتصاق، المساحة التي يحتاجها. بل أنني شعرت بحرج من وجودي هناك أصلاً، على رغم أنني تصنّعت ابتسامة جعلتها تكون كما ينبغي لها أن تكون، كأن ما رأيت هو ما أراه كل يوم.

- برناديت لذيذة، قال لي بعد أن أنهت وصولها إلى الجانب الآخر من الطريق.

كان يعلم وقع قبلتها عليّ وهو، مع ذلك، جعل يبديه كأنه لقاء عاديّ بينهما.

هناك في البحر الذي يذهبون للسباحة فيه، حول بركته أو في بقعة الأرض التي زرعوها بالحشيش الأخضر، يمكن أن تحدث

أشياء لن تحصل أبداً في الزيارات إلى البيوت ولا في اللقاءات على الطريق، تلك التي لا يمكن لها إلا أن تكون عابرة. هناك، في الماء أو حول البركة، يروحون يقتربون من بعضهم البعض بالضحك وبالمزاح الذي يتبادلونه بالأجسام التي، بعد أن يتشاكسوا بحركاتها، يأخذون بالركض وراء بعضهم البعض أو يلقون أنفسهم في الماء. وحين يغيّرون لعبهم بعد ذلك، يصيرون يتفنّنون في القفز إلى الماء صانعين من تقافزهم مناظر بينها ذلك الذي كان فيه الرسمان قد تطابقا، مرة أخرى. القفزة تلك التي قاما بها معاً، أخي وبرناديت، يده ممسكة بيدها، ليسقطا معاً، في اللحظة ذاتها، في ماء البركة. هذه القفزة التي لا أعرف الآن إن كان قد رواها لي أخي، أو أنني تخيلتها تخيلاً.

* * *

امرأة أبو عاطف كأنها امرأتان. ذاك لأني في مرات كثيرة أعجز عن أن أرى فيها ما كنت أحسبه حقيقتها، تلك المختبئة خلف صوتها العالي وخلف وسخ بيتها وفوضاه. كأنها امرأتان، ولا أجدها كذلك في تخيّلي وحده، بل في ظهورها أو في سماعها اللذين يظلان يتبدلان، أو تتبدل هي من جرائهما. وربما كنت محتاجاً إلى تفكير كثير لأعرف ما الذي يأخذها إلى هيئتها هذه وما الذي يأخذها إلى هيئتها تلك. وربما، حتى وإن فكّرت كثيراً، لم أكن لأعرف. كل ما كان يحصل لي هو أن يترك الكلام العالي الذي أسمعه من وراء بابهم، أو من شرفة بيتهم فيما هي تكلم زوجها أو أحداً من بيتها واقفاً في الأسفل، قبالة محلنا، إحدى المرأتين عالقة في رأسي، إما هذه وإما تلك. في المرات التي

تتبدى لي في الهيئة التي يصفها فيها الناس، كنت أسعى لردّها إلى ما أظنّ أنني عرفته فيها، أو اكتشفته، لكنني لا أفلح. كان ينبغي أن تظهر لي في ظهور آخر حتى تصحّح نفسها بنفسها، كما كنت أقول بيني وبين نفسي. وكان يحصل ذلك، مرة بعد يومين، مرة بعد خمسة أيام، لكن في مرات كان يحصل في اليوم نفسه حين يتهيأ لي مثلاً أن صوتها العالي، بل صراخها، لا يطلع إلا احتجاجاً على كونها تعيش في المكان الخطأ. تكون في صوتها آنذاك نبرة الشكوى، أو حتى الاستجداء الذي كأنها تقول فيه إنّ أحداً ما يجب أن يأتي ليخلّصها. أما حين يصادف أن أفتح باب بيتنا وتكون هي واقفة ممسكة بيدها درفة بابها المفتوحة، وأقول لها مبتسماً مساء الخير أو صباح الخير، وترد هي، مبتسمة أيضاً، فيما عيناها تظلان تنظران إليّ وقتاً لا أعرف إن كان على قدر ما يقتضيه ردّ التحية أم هو زائد عن ذلك، آنذاك، في وقوفها الصامت ذاك، وفي ابتسامتها ونظرتها إليّ، تكون قد أنهت ترددي إزاء صورتها الأخرى ومحتها محواً.

لكنني، ولوقت طويل، لم أتقدّم نحوها خطوة إلى الأمام، ربما كان الخوف من صدّها لي، أو على الأقل تجاهلها لأي كلمة أقولها مختبراً بها إمكان قبولها، هو الذي أبقاني حيث كنت. لذلك لا يمكنني أن أفعل أنا ما أنتظر منها هي أن تفعله: أن أطيل النظر إليها مثلاً، فيما هي تكون تنظر إليّ رادة التحية، ويكون ذلك، فيما أنا أفعله، مؤكداً لا مواربا. ثم أنني لست مثل أخي لأقدر أن أقترب منها بالمزاح الذي وحده يتيح لي أن أتراجع عن خطوة خطوتها. من كان مثلي، هكذا في ضخامة جسمي وفي

سمنتي، لا يليق به المزاح إلا حين يكون موضوع المزاح هو نفسه، أنا نفسي.

بقيت منتظراً أن تصبح نظرتها تلك، فيما هي تردّ السلام، أطول قليلاً أو أكثر وضوحاً. أن تقترب من أن تكون دعوة لي لأن أنحرف إلى حيث تقف، أن أقترب منها بما يزيد خطوة عن وقوفي المعتاد وأقول لها الكلمة التي ستنقلنا، أنا وهي، إلى حيث أنتظر. ينبغي أن تبادر هي إلى ذلك أولاً. بذلك فقط تكون تدلني إن كان يمكن أن يُنظر إليّ على أنني قابل لأن تفكِّر فيَّ امرأة، بل أن تتردد فيما هي تفكِّر فيّ لخوفها، مثلما أخاف، مما قد يفعله أولئك المالئون البيت وراءها، حتى نهايته، حيث حافة الشرفة.

* * *

لم أرها إلاّ وهي واقفة هناك على الطريق، منتظرة سيارة أجرة أن تقف لها. كان ذلك مفاجئاً لي حين رفعت رأسي عن لُعبِ الصبيان التي كنت أنفض الغبار عن علبها. ربما كان قد مضى وقت على وقوفها، مرتدية ثياب الخروج ومعلّقة بذراعها جزداناً ليس فيه، بحسب ما خطر لي، إلا القليل القليل من الأغراض. ومثلما تتصرف النساء حين يكنّ ينتظرن سيارة أجرة تقلهنّ، جعلتْ تبدو كأنها غير مكترثة بأن يقف لها أحد، بل وتبدو السيارة التي تقف لها سائلة إياها عن وجهتها، كأنّ سائقها لم يقف إلا ليتحرش بها، فتجيبه هي بكلمة واحدة، أو حتى بلا كلمة، واقفة وقفتها ذاتها، كأنها ترفض، مفضّلة انتظار سيارة ثانية.

هل هي ذاهبة لتزور أمها كما لا بدَّ قالت لمن هم في الأعلى؟ هل هي ذاهبة لشراء أغراض ليست مما تشتريه عادة ما دام

أنها غيّرت وجهتها ووقفت منتظرة السيارات التي خلّفت المحلات وراءها؟ هل ستوقف السيارة التي ستقلّها بعد مسافة هي أقرب بكثير مما ينبغي لثياب الخروج وللجزدان الذي حملته ولكعب الاسكربينة العالي، لكن العريض، المتناسب عرضه مع عرض ساقيها؟ ربما كانت تلك الغرفة هناك، حيث ستقف السيارة. الغرفة التي ينتظرها فيها ذلك الرجل، قاعداً على الصوفا التي لا أثاث هناك سواها.

ـ إلى أين تظنها ذاهبة؟ قال لي أخي فيما هو ينظر إليها، محدّقاً فيها، من وراء زجاج النافذة.

لم أجبه، بل بدوت أنني غير مهتم بسؤاله.

ـ إنها ترفض أن تكلم كل السيارات التي تقف لها.

ـ لماذا؟ سألته هكذا، كأنني لم أعرف عماذا يتكلم.

ـ لأنها تنتظر أحداً يأتي في سيارته.

ـ لو كانت كما تقول، لما وقفت هنا، تحت بيتها.

وقد قلت ذلك مصدقاً وليس فقط لكي أردّ على ما يقوله أو يظنه. لن تنتظر رجلاً يأتي لأخذها من تحت بيتها، أو من أمام محلنا الذي نحن فيه. ثم أن أخي قد أبعد بنفسه ما كان يحاول أن يدفعني إلى تصديقه:

ـ كلهم يفعلونها، رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً، قال، فيما هو يشير بإصبعه إلى بيتهم في الأعلى.

لكنني مع ذلك رحت أنظر إليها كأنها ذاهبة حتماً إلى لقاء رجل، سواء ذلك الذي ستركب في سيارته، أو رجل آخر

ينتظرها. كأنني أحبّ أن يحدث ذلك، إذ به تكون قد قطعت الشوط الأول، بل الشوط الأكبر، نحو أن تصير ممكنة. ثم أنني أحتاج إلى ذلك من أجل أن تكون به المرأة الثانية، أقصد المرأة الحقيقية القابعة أو المختبئة تحت الصوت العالي. المرأة التي أتخيّلها، أو التي تكون معي حين أكون بمفردي.

ـ لقد التفتت إلى هنا، قال أخي.

كانت ما تزال واقفة وقفتها ذاتها لم تغيّرها. لكن أخي عاد وقال لي.

ـ التفتت أكثر من اللازم.

ـ ماذا يعني أكثر من اللازم؟

ـ يعني أنها أدارت رأسها كثيراً إلى ناحيتنا، أكثر من أنها كانت تتلفّت حولها.

كانت قد فاتتني مشاهدة التفاتتها تلك. كان يجب أن أظلّ ناظراً إليها كي لا يفوتني شيء. لكنني لا أستطيع ذلك، ليس لأني لا أحبّ أن تشعر بأنني كنت أتلصص عليها من وراء زجاج الواجهة، بل لكي لا أثير انتباه أخي، كما لكي لا أثير انتباه أحد قد يظهر أمام محلنا ويروح، حين يراني محدقاً فيها، يقلِّب نظره بينها وبيني.

ـ أنظر، إنها تلتفت.

في لحظةٍ ما رفعت رأسي كانت قد حوّلتْ نظرها إلى الأعلى، إلى شرفة بيتهم وهي، حين عادت بعد ذلك إلى وقوفها ناظرة إلى الطريق، بدت كما لو أن طول الوقوف قد أضجرها

فأنزلت جزدانها عن ذراعها وحملته، بيدها، من مسكته الطويلة. بل أنها ربما بدأت تفكِّر بالعودة إلى البيت منذ أن صار وقوفها متردداً.

ـ هذه سيارة وقفت لها، قال أخي من أجل أن أسرع في رفع عينيّ إليها.

ـ مارسيدس بيضاء، قال فيما هي تمد يدها إلى الباب لتفتحه. «صعدت إلى جانب السائق» قال مضيفاً. «التفتت إلى السائق»، أضاف متابعاً ومرافقاً كل ما يراه بوصفه له. «انطلق السائق»، قال مقلداً نبرة برامج الأطفال في التلفزيون. كان يعرف أنني أشاهد كل ذلك، لكنه أحبّ أن يلهو. «السيارة تتقدم.. المرأة الجالسة في المقعد الخلفي قالت لها شيئاً.. ها.. إنها تلتفت إلى ناحيتنا..». كان التفاتها إلينا مستعجلاً، لكن أخي كان ينجح في تأليف الكلام بسرعة أيضاً. «لم أعجبها»، قال فيما نظرها يعبر به ليصل من ثم إليّ: «أعجبها أخي»، قال فيما السيارة المارسيدس البيضاء القديمة، بل الهالكة، تتقدم تاركة محلنا وراءها.

عندي أنا أوقفت نظرتها، لثانية واحدة ربما، أو لثانيتين، لكن ذلك كان زائداً عن أن يكون بسبب السهو وحده، بل وزائداً أيضاً عن أن يكون مقدمة لتحية عابرة، على الطريق، تستأنف التحيات التي كنا نقولها، بكلمة واحدة، على الفسحة الخالية بين البابين.

ـ كأنك أعجبتها، قال لي أخي مبتسماً تلك الابتسامة التي تبديه كأنه تحقّق هذه المرة مما كان يلاحظه ويظنّه.

* * *

كان تيسير، في ذلك اليوم، يحمل ثلاثة أقفاص بدلاً من اثنين، مما يضطره، في أثناء انتظاره للباص، أن يضع أمامه على الأرض واحداً منها. وكان رفاق أخي، ومعهم أخي أيضاً، قد تجمّعوا حوله من أجل أن يبقوه واقفاً حيث هو ولا يتركهم مبتعداً عنهم مثلما يفعل عادة حين يكثر أحد عليه الكلام. لكنه كان يفلح في الإفلات من بينهم، وإن مرتبكاً بحمل الأقفاص الثلاثة بيديه الاثنتين، وذلك بأن يصير يفتح طريقه بينهم بكتفه يدفعها دفعاً أو يدفع بها من يكون يسدّ الطرق عليه. وحين يصير هناك وحده، على بعد أمتار من حيث كان يقف، كانوا يعودون إليه، بادئين معه ذلك المزاح الذي يجعله، مرة أخرى، ينحني فوق قفصه الثالث ويهمّ برفعه لتبدأ من جديد محاصرتهم له ومحاولته الانفكاك من بينهم. وكنت أنا أنادي أخي ليأتي إليّ، أو ليتركهم وحدهم في ذلك المزاح الذي، وإن كان يدور حول العصافير، إلا أنه مزاح يقترب من أن يكون فاحشاً. لكنني لم أكن أناديه ملحّاً أو رافعاً صوتي، بل مبتسماً قليلاً كأنني أشاركهم مزاحهم. «قل لنا هل قَبِلت عصفورة الغرام»، كانوا يسألونه قاصدين شيئين معاً: أن تكون عصفورة الغرام قد قَبِلت بالبلبل الذي يقولون أن تيسير يظل يسعى في جمعهما معاً، ثم أن تكون عصفورة الدوري قد قبلت به، هو تيسير. وكان هو، برغم عقله القليل، يفهم قصدهم الثاني الذي وراء قصدهم الأول فيروح، في أثناء ما يكون يدافعهم، ينظر إليهم تلك النظرة التي تجمع بين غضبه وضياعه في ما يمكن له أن يفعل إن ظلوا يلاحقونه هكذا عائداً بعصافيره إلى المكان الذي كان تركه ثم يعود منه إلى المكان الآخر الذي لم يتيحوا له أن يقف فيه

أكثر من دقيقتين. «هل قَبِلتْ؟ قل لنا، نحبّ أن نعرف»، يقولون مستأنفين كل جولة جديدة معه، ثم يتحولون بعد ذلك إلى وصف يتخيلونه لجماع البلبل وعصفورة الغرام، التي تكون قد قَبِلت. وهم، في أثناء ذلك، يراكمون تعليقاتهم ليصيروا مشتركين جميعاً في وصف تلك المجامعة التي يستخدمون لها كلمات كانت تبدو لي كأنها من اختراعهم. وأنا أعود إلى مناداة أخي ليأتي إلى المحل، هكذا موحياً إن هناك شغلاً لا ينبغي أن نتأخر فيه. وحين يصلون إلى ما بعد اعتلاء البلبل ظهر عصفورة الغرام يقول أحد منهم: «لكنه كبير ولا يمكن أن يدخل»، قاصداً عضو تيسير. وهذه أيضاً يفهمها تيسير فيروح، للحظة، يحدّق في وجه من قالها تحديق من يستعد لأن ينتقم. لكنه، في اللحظة التالية، يعود إلى دفع من حوله بكتفه، حاملاً بيديه الأقفاص أو واضعاً أحدها تحت ذراعه.

وهم يظلّون يحنقونه بالأسئلة حتى حين يبدو عليه أن عقله لم يعد يحتمل ذلك الضغط عليه. هذه ليست بلبلة ولا عصفورة غرام، يقول له أحدهم فيما هو يمسك أحد الأقفاص بيديه، على رغم تشبث تيسير به. لقد فعلها، يقول من يحدق بما في القفص قاصداً، هذه المرة أيضاً، أن تيسير نجح في أن يولد عصفورة من نوع ثالث، لكن هو الذي فعل ذلك وليس بلبله. كان أخي أقلّهم مشاركة في ذلك المزاح، ربما بسبب وقوفي ناظراً إليهم ومنادياً إياه من بينهم. أما رفيقه طوني الذي أراه أقرب الآخرين إليّ فبدا، وقد أخذه هرجهم، يحاول أن يعلّق على شيء بدوره لكن ذلك كان يطلع ضعيفاً متردداً وطالعاً دائماً من وراء حلقتهم. وأنا، من

حيث أقف على الدرجة الثالثة سادّاً باب محلنا المفتوح، كنت أترقّب حدوث شيء ولا أتوقف عن مقارنة ما أعرفه منهم، أو ما أظنه عنهم، وما يقولونه. وأكثر ما كان يخطر لي هو ذلك الاختلاف بين فحش كلامهم مع تيسير واختلاطهم مع بناتهم الذي يكونون فيه كأنهم يتقرّبون من البنات لكن من أجل أن يمازحوهن ويُضحكوهنّ فقط.

عدت إلى مناداة أخي رافعاً صوتي وغير متصنّع الابتسام الذي يبديني كأنني أتسلى بما يفعلونه. كان تيسير قد بدأ يدفعهم بكتفيه الاثنتين وبرأسه على رغم تلك المساحة الطريّة فيه، الخالية من العظم. وهو، في أثناء ذلك، ظلّ ممسكاً بأقفاصه ومتحيراً في سعيه لأن يبقيها في يديه وذراعيه. «أترك هذا، ضعه على الأرض»، كانوا يقولون له فيما يزداد تشبثاً به مع ازدياد غضبه. وكأنما من أجل أن يساعدوه على التخلّص من عبء الأقفاص الثلاثة قرّب أحدهم يديه إلى القفص الثالث، ذلك الذي كان قد بات بين ذراع تيسير المطوية وصدره، وبدأ يغيظ تيسير بأن يجعل يديه مفتوحتين على قدر اتساع القفص. وإذ تمكنت اليدان بعد ذلك من الإمساك به، ثم من شدّه وأخذه، نزلتُ أنا الدرجات الثلاث ومشيت باتجاههم، من دون أن أعرف إن كنت أفعل ذلك لكي أُخرج أخي من بينهم أو لأحاول أن أوقفهم عما يفعلونه. وكنت قد صرت واقفاً بينهم حين رأيت تيسير يفلت القفصين الباقيين من يديه ويهجم ليستعيد القفص الذي جعلوا ينقّلونه بين أيديهم من واحد إلى آخر. صرت أقول لهم أن يعطوه قفصه، لكنهم جعلوا يبدون كأنهم يفعلون ذلك ليباغتوه بأن يحولوه إلى

أيد أخرى. وحين رأيت أنني لن أستطيع أن أوقف عبثهم، استدرت عائداً إلى محلنا، لكنني، فيما أنا أضع قدمي على أولى الدرجات، سمعت الصوت القوي لشحط دواليب سيارة كانت مسرعة.

لم تصدم السيارة تيسير، ولم تصدم ميلاد الذي كان في ركضه قد بلغ الجانب الآخر من الطريق. فقط القفص كان هنا، تحت دولاب السيارة، ممعوساً مطبقاً على العصفورين اللذين فيه.

* * *

بيت أبو تيسير، المختلط بالمشغل وبالمستودع وبالزرائب التي يضمّها كلها سوره المرتفع، لم يكن يوماً شبيهاً بالقلعة بقدر ما كان في ذلك اليوم. بدا لي كما لو أن أبو تيسير كان يستطلع ما يجري لابنه في الأسفل من برج ما هناك أو من مرصد أكثر ارتفاعاً من السور ذاته. ذاك لأنه كان يصعب عليه، لولا ذلك، أن يعرف ماذا يجري بقرب الطريق. كان قد عرف بما يحدث لابنه منذ أن بدأت مضايقتهم له، وإلا لم يكن من الممكن له أن يصل إلى هناك، في لحظة الحادثة تماماً، ويكون بين الناظرين المندهشين إلى القفص الذي انمعس لتوه، مع عصافيره، تحت دولاب السيارة. كانوا جميعاً ينظرون محدقين إلى تحت الدولاب الذي رأوه يتراجع قليلاً إلى الوراء، كأنما لكي يخلص ما تحته من ثقله ومن ثقل السيارة عليه. وهم، في تحديقهم الصامت ذاك، أخافوا السائق الذي ظلّ في مكانه خلف مقوده لا يقوم بحركة إلا تلك التي أرجعت دولاب سيارته شبرين أو ثلاثة إلى الوراء. كان يظن ربما أن ما دهسه دولابه طفل كان عابراً ولم يره، أو شاب من أولئك الواقفين

المستمرين في النظر إلى ذلك المكان ذاته، منتظراً منهم أن يحولوا أنظارهم جميعاً، وفي وقت واحد معاً، إليه هو القاعد في سيارته، ثم، معاً أيضاً، يندفعون نحو بابي السيارة الأماميين ليفتحوهما معاً لكي يخرجوه بالقوة من أحدهما.

لكن ما قطع صمت المشهد الأول الصامت ذاك هو صوت أبو تيسير، الذي كان قد نزل من قلعته لنصرة ابنه، مرتدياً مثله الأوفرأول الكالح من كثرة ما غُسل وجُفّف في الشمس. أما ما قاله أولاً ذلك الصوت الراعد فهو الكلام الذي كان قد هيأه في نزوله، من قبل أن تقع الحادثة التي تستحق كلاماً أقسى. قال للشبان الواقفين، بمن فيهم أخي: «فكرتم أنكم رجال يا منايك»، ثم تقدم في اتجاه ميلاد ليضربه بيده لكن، فجأة، التفت إلى القفص الممعوس فتوجه إليه ورفعه عن الأرض ثم قذفه بقوة على الشباب الذين تمكنوا من تفادي إصابته لهم. «فكرتم أنكم رجال يا منايك»، قال مرة ثانية فيما هو يتقدم بنفسه في اتجاههم، لكن ليس من أجل أن يضربهم، كما بدا، إذ أنه اقترب من أحدهم (وهو ميلاد، أيضاً، الذي كان آخر من وصل إليه القفص قبل سقوطه ودهسه) إلى حدّ باتت المسافة التي تفصله عنه أقل من أن تتمكن يده من أن ترتفع وتمتد بطولها كله بحسب ما يقتضي الضرب. قال له: «أنت تتمسخر على إبني يا كلب»، ثم التقطه من يده عند الرسغ وبدأ المشي ممسكاً به وقائلاً له في الوقت نفسه: خلّي أهلك يأتون ويأخذوك من عندي يا كلب. وإذ وقعت عيناه على أخي، فيما هو ممسك بمن اختاره ليكون رهينته، التفت إليّ للحظة واقفاً ما زلت على باب محلنا، ثم عاد فنظر إلى أخي ليقول

له: رح إلى محلك، هكذا مستثنياً إياه من غضبته، كما من سبابه الذي لم يتوقف فيما هو يجرّ ميلاد جرّاً ذاهباً به في طريق الصخور المتكسرة الذاهبة إلى أعلى الطلعة. كان ميلاد يحاول المقاومة لكن مكتفياً منها بشدّ يده ليخلّصها من القبضة القوية التي تحيطها مطبقة عليها.

ولا أعرف لماذا بقيت أنا واقفاً في مكاني، عند باب محلي، ولم أتقدم إلى أبو تيسير لأثنيه عن الاستمرار في ما يفعله. ربما خطر لي أن ما منعني من ذلك هو أنني لم أعد الطرف الذي يمكن له أن يتوسط بعد أن كان أخي واحداً من الذين ضايقوا ابنه. ثم أنه، هو أبو تيسير، كان قد أزاحنا جانباً بقوله لأخي أن يعود إلى محلنا، هكذا كأنه يعلن بذلك عفوه عنه. كما أنني، فوق ذلك، كنت أعرف أنني لن أستطيع أن أردّ أبو تيسير عن شيء بدأ بفعله.

منذ اللحظة التي أدخل فيها ميلاد إلى بيته، أو إلى حوشه، فقد أبو تيسير تلك الحكمة التي تميز بها عن ساكني الزهرانية جميعهم. أدّت به فورة غضبه تلك إلى أن ينسى أنه، حين ابتعد بسكنه ثم حين سوّره بعد ذلك، كان مثل رجال قدماء يعرف أن أحوال المتجاورين لا تظل كما هي، وأن من يبني بيتاً عليه أن يأخذ في حسبانه أن الوقت الذي يقيم فيه بناءه لن يظلّ هو ذاته على الدوام. ففيما كان ميلاد يقوم بأكثر محاولاته يأساً لتخليص يده من القبضة القوية التي تشدّ عليها، هناك عند بوابة الحديد التي تفصل بين خارج ذلك السور وداخله، وفيما كان أبو تيسير ينتره نتراً ليدفعه أمامه إلى ذلك الداخل، في تلك اللحظة صار للسور معنى آخر غير الذي كان له.

وإذ كان أبو تيسير يفكّر أنّ حبْسه لميلاد لن يلقى رداً من أولئك الساكنين في البيوت التي تحت الطريق، فإنه، هنا أيضاً، كان يضيّع حكمته التي تقول إن الزمن يتغيّر ولا يظل على حاله. على الطريق الصاعدة إلى بيته، جاراً وراءه رهينته، وكذلك هنا وراء بوابة الحديد التي أقفلها بمفتاح كبير كان معه، كان موقناً أن لا أحد سيؤذي ابنه تيسير الذي تركه هناك لوحده، بين أولئك الذين كانوا يضايقونه ويستهبلونه على الطريق. بل أنه، فيما هو يقف هناك بينهم، حاملاً القفصين اللذين بقيا معه، سينتظر أن يحيدوا هم عنه وليس أن يفعل ذلك هو، كما كان حاله، قبل عشر دقائق، حين كان يبتعد عنهم ليتخلّص من مضايقتهم، ثم لا يلبثون أن يتبعوه. لن يفعلوا شيئاً أكثر من أن يظلّوا واقفين حيث هم، لا يجرؤون أن يخطوا خطوة في الطريق الصاعدة التي لا توصل إلا إلى بيت أبو تيسير وحده. كأنهم ينتظرون عودة رفيقهم إلى حيث أُخذ، أو كأنهم، ببقائهم واقفين هناك، يعلنون عن احتجاج لم يرفعوا له صوتاً ولم يهزّوا يداً. هذا فيما كان رفيقهم يصرّ على البقاء عند البوابة التي أقفلت بالمفتاح، مستعملاً يده الثانية هذه المرة ليفك بها قبضة أبو تيسير. بل أنه جعل ينفض جسمه نفضاً إلى حد أنه بدا، للكلاب التي أسرعت لتبدأ نباحها من ذلك القرب، كأنه هو الذي ينتر أبو تيسير أو يحاول الاعتداء عليه. بل وكانت الكلاب على وشك أن تنقض عليه وتبدأ بالعض لولا أن أبو تيسير أفهمها، بحركة من يده، أن الأمر هو بخلاف ما ظهر لها. لكنها ظلّت تنبح، كاشفة عن أسنانها الضارية على الرغم من تراجعها إلى الخلف بما يقرب من خطوة واحدة، أما ميلاد فكان

عليه أن يوقف كل حركة، وهذا ما فعل، منتظراً أن يرخي أبو تيسير قبضته عن يده ويقول له بعد ذلك ماذا سيفعل به.

* * *

«ماذا يفعل به هناك في بيته»، «كيف أخذه من بينكم»، «ألم يتدخل أحد ليمنعه»، هكذا كانت تقول النساء اللواتي تجمعن مع رجالهن المتقاعدين أو الذين يعيشون من أرض ضمنها منهم متعهد، أو من إيجار مبنى قديم يملكونه، كما وكن يدرن، مرتفعة خلفهن مؤخراتهن العريضة، على بعضهن البعض، فيما هنَّ يقلن كلامهن المتسائل ذاك، لكن غير المهدد، كما يدرن على رجالهن الواقفين لكي يبدو الأمر كما لو أن الرجال لا يتحركون بسبب ترجّي النساء لهم لأن يهدأوا ويقطعوا دابر الشرّ. ومثلما فعل أولادهم، ظلوا هم الأهل هناك، في أسفل الطلعة، على جانب الطريق، كأنهم، إن تقدموا خطوة في اتجاه السور الذي في الأعلى، سيكون عليهم أن ينتظروا رداً يؤثرون أن لا يحدث. حتى أنهم، والنساء منهم خصوصاً، لم يقتربوا من تيسير الذي ظل هناك، واقفاً منتظراً الباص، ليقولوا له كلمة أو ليسمعوا منه شيئاً، وهذا أقل القليل مما كان عليهم فعله، بحسب ما كان يفكِّر أبو عاطف، جالساً على شرفته في الأعلى، فهم كان عليهم، بحسبه أيضاً، أن يأخذوا تيسير مثلما أخذ أبوه ابنهم. لكنّهم لم يقتربوا منه أبداً، هو الواقف حاملاً القفصين الباقيين، ومتخلياً عن القفص الثالث للكبار يتدبرون عواقبه.

مع أنه كان هو نفسه كبيراً، بحسب أخي ورفاقه الذين كانوا، في الأيام التي سبقت، يتداولون أرقاماً وصل أعلاها إلى رقم

الثلاثين. وهو، على أي حال، كان يظهر أحياناً في ذلك العمر، خصوصاً حين يبدو، فيما هو ينظر إلى آخر خط الطريق متبيناً مجيء الباص، كأنه يفكّر في أمر يحتاج التفكير فيه، لأن ينظر إلى البعيد. «ما بك يا تيسير، هل حدث شيء؟» كانوا يسألونه، قبل حادثتهم الأخيرة هذه، فيلتفت إليهم للحظة ثم يعود بالنظر والتفكير إلى حيث كان، كما لو أنه لم يُقاطع عنهما.

حين وصل الباص الذي ينتظره كان ذاهباً بنظره ذاك في اتجاه البحر، تاركاً من تجمعوا بالقرب منه يتخبّطون في ما ينبغي عليهم فعله. أدخل من بوابة الباص الخلفية يديه أولاً، الحاملتين القفصين، ثم دخل هو. وإذ بدأ الباص بالتحرك كان قد ركنهما على الأرض واستدار لينظر من زجاج الباص العريض إلى ما تركه خلفه. من هناك، وإن لمسافة قليلة ستنتهي من فور ما ينعطف الباص، يستطيع أن يرى كل ما كان يجهد في أن يبعد نظره عنه: نساء البيوت التحتانية ورجالها، الشباب الواقفين في حلقة وحدهم؛ نحن، أنا واقفاً على باب المحل وأخي واقفاً عند أسفل الدرجات الثلاث؛ ثم من في بيت أبو عاطف مجتمعين كلهم على الشرفة، كباراً وصغاراً ينظرون، هم أيضاً، إلى ما تركه خلفه.

* * *

مع أن ميلاد خرج، أو أُخرج، من بيت أبو تيسير مثلما دخل لا أثر للطمة على وجهه ولا علامة على أي موضع في جسمه، إلا أنه بدا كما لو أنه قضى هناك، وراء بوابة الحديد، أياماً وليالي كثيرة وليس أربع ساعات فقط. ظلّ خائفاً من الكلاب التي لم تتوقف عن النباح، ناظرة إليه ومكشّرة له عن أنيابها. ولم يسكتها

أبو تيسير أو يبعدها عنه، بل أنه تركها عن قصد هناك لكي تتولّى هي تهديده وإخافته، كما لإبقائه صامتاً في مكانه، حيث أنّ الكلاب كانت تنتظر منه أقلّ حركة حتى تنقضّ عليه. ثم أن أبو تيسير كان يُتبع نباح الكلاب بأصوات كان يطلعها من آلات لم يشاهدها ميلاد، لكن ارتعابه جعله يظن أنها تُستعمل للثقب أو للعصر. أما الأشياء الأخرى التي رآها هناك، هذه التي بدأ يصفها لرفاقه بعد ثلاثة أيام قضاها ساكتاً لا يكلّم أحداً أو يقابل أحداً، فأهمها تعجّبه من الدجاجات والقطط التي كانت تسير هكذا على طبيعتها بين الكلاب الهائجة النابحة.

ليست إلا أربع ساعات فصلت بين أخذ أبو تيسير له وعودته مع أبو عاطف متباطئاً، ماشياً خلفه كأنما ليخفي خجله أمام الذين ينتظرونه. كانوا ما زالوا واقفين هناك جميعهم، حتى أنني، حين رأيت أنهم سيظلون واقفين حيث هم ما دام ميلاد محبوساً هناك، رحت أدعوهم إلى أن يرتاحوا عندنا في المحل. بل أنني أخرجت الكرسيين ليرتاح عليهما، هناك حيث يقفان، أبو ميلاد وأمه. وقد أعدت الكرسيين إلى جانب الدرجات الثلاث، بعد أن آثرا أن يظلا على وقوفهما، منتظراً أن يأتيا، أو يأتي اثنان غيرهما، ليرتاحا عليهما، عند مدخل محلنا.

«ضربه.. أذاه.. ماذا عمل به؟» قالت أُم ميلاد لأبو عاطف حين صار على قرب خطوات من تجمّعهم. وإذ استمهل نفسه للردّ حتى يصير بينهم قال لأم ميلاد وأبيه إن ابنهم سالم لم يحصل له شيء وأن أبو تيسير رجل آدمي لا يحبّ أن يؤذي أحداً. ثم قال ملتفتاً إلى الشباب الذين اقتربوا منه، لكن مبقين على وقوفهم معاً،

أن أبو تيسير لم يكن ليفعل ما فعله أبداً لو لم يشاهد من هناك ما كان يحدث لابنه. على كل حال، قال أبو عاطف، إن ما جرى هو مما يمكن أن يجري بين الجيران في كل مكان وأن تيسير يظل أخاً للشباب يعاملونه كواحد منهم.

ما قاله أبو عاطف أمامهم كان أكثر الكلام طمأنة وقد بدا فيه أبو تيسير في صورة الرجل العاقل الذي لم يظهر على الناس المنتظرين ابنهم بسبب أسفه لما وقع بينه وبينهم. وقد أراح كلام أبو عاطف جميع من سمعوه فأخذوا، فيما هم يخلون المكان الذي وقفوا فيه طيلة الساعات الأربع ويبدأون السير في اتجاه بيوتهم، يلوّحون بأيديهم لأبو عاطف الذي ظل واقفاً ينتظر أن يصيروا كلهم في الجهة الأخرى من الطريق.

لكن كلامه ذاك لم يكن مطمئناً إلا في وقت ما كان يقوله وفي الوقت القليل الذي أعقبه. ابتداء من آخر بعد الظهر بدأ ما سمعوه، وذلك بمساعدة البنات الحانقات اللواتي لَزِمْنَ البيوت في تلك الساعات الأربع، يتحوّل إلى أن يصير «من نوع الكلام الديبلوماسي»، بحسبهنّ، الذي يضحك الناس فيه على من يكلمونهم. كما قالت البنات أيضاً أن أبو تيسير هو الآن (بحسب كلام أبو عاطف) أحسن رجل في الزهرانية كلها. مثله مثل أبو عاطف نفسه «الأزعر البصّاص الذي يظل يلاحق البنت بعينيه المجقّرتين حتى لتكاد تتفركش وتقع على الأرض».

وربما كانوا هم، من دون تحريض البنات لهم، سيحسّون، ما دام أن أشياء مثل هذه تحسّ أولاً، وقبل أن تُفهم، بأنهم باتوا أقل ارتياحاً ، بل وطمأنينة، مما كانوا من قبل. لقد أحسّوا كما لو

أن كلام أبو عاطف أجرى ترتيباً للناس (أو «ميزان قوى» بحسب ما صار يقول شبابهم في أوقات الزهرانية اللاحقة) مكانهم فيه هو المكان الأضعف.

كان يمكن لحادثة ذلك اليوم أن تمرّ هكذا مثل أحد الشجارات العابرة التي تقع بين بائعي المحلات وزبائنهم، أو بين أحدهم والآخر، لو لم يكن أولئك الذين تجمّعوا منتظرين عودة ميلاد، ومعهم بناتهم أيضاً، يترقبون وقوع حادثة تتغيّر الزهرانية من بعدها. ربما لم يكن ما حصل في ذلك اليوم هو تلك الحادثة، التي ينتظرونها، لكنه كان خطوة في الطريق إليها. لكن تلك الحادثة، شأن كل شيء يبدأ، رسمت خطاً بين زمنين هو ذلك الخطّ الذي، حين صار رفاق أخي وأهلهم يتغنّون بما كان عليه عيشهم هناك، يرجعون إلى ما وراءه. نحن، أنا وأخي في محلّ الألعاب، كنا من ضمن الزمن الأول الذي وضع الخط نهايته، وكذلك أبو تيسير وبيته وابنه تيسير، وكذلك أبو عاطف وشرفته وبيته من ورائها، وكذلك مَنْ في بيته، وحتى بعض أصحاب المحلات على الطريق الذين، إذ يذهبون إليهم ليشتروا من بضائعهم، يروحون ينادونهم بأسمائهم. الزمن الأول ذاك، الذي وراء الخط، هو الزمن الذي كان سكان الزهرانية يجربون العيش فيه تجريباً.

* * *

أولئك الذين أقاموا محلاتهم على الطريق لم يرفعوا جدرانها على أساسات ثقيلة، وهم، حين ألصقوا بمحلاتهم بيوتاً لسكنهم، لم يزد ذلك عن الضروري الذي يحتاجونه للأكل والنوم وقضاء الحاجة في المراحيض. ساكنو البيوت التي تحت الطريق كنت

أراهم، هم أيضاً، كأنهم يجرّبون العيش كيف سيكون، على الرغم من أنهم كانوا أول القادمين. كانت بيوتهم التي جعلوها مشرفة على البحر من جهة وزيّنوها بالزهور والأشجار من الجهة الأخرى كأنها بيوت غير حقيقية. كأنها بيوت لقضاء الصيفيات لكنهم، لإطالة أمد التجربة، جعلوا يقيمون فيها أوقات السنة كلها.

كانوا كما لو أنهم يجرّبون العيش كيف سيكون هنا، حيث هم. جميعهم كانوا كذلك، حتى أولئك الذين لم يُبقوا أثراً يرجعون إليه في الأمكنة التي قدموا منها. أنا أفكِّر بنفسي حين أقول ذلك، وبأخي، كيف أننا ظللنا نقول إننا لا نحتاج من محلنا إلا واجهته تاركين الغرفتين الضخمتين اللتين تحتلاّن ثلاثة أرباع مساحته خاليتين من أي شيء، مكتفين، حين نبيع إحدى الألعاب أو إحدى البسكلاتات، بأن نشتري لعبة وبسكلات مثلها.

* * *

ومن علامات تغيّر الزهرانية، أن من باتوا يصادفون تيسير واقفاً في مكانه ذاك منتظراً الباص صاروا يلقون عليه التحية أو يكلمونه كأنه واحد آخر سواه. بذلك بدوا كأنهم يطيعون تلك السحنة التي يتخذها مقلّداً بها ما يكون عليه الرجال. وكانوا ينتظرون أن يبتعدوا عنه حتى تبدأ تعليقاتهم التي يقولون فيها إنهم كادوا ينفجرون بالضحك فيما هو يستمع إليهم متخذاً الهيئة التي تبديه مفكراً في ما يقولونه. لكن أحداً منهم لم يجازف بقول كلمة مواربة تظهر معنى وتبطن معنى آخر ليختبر بها عقل سامعه. ثم أنهم لم يعودوا أبداً إلى الكلام عن عصافيره، تلك التي لا يُشاهد أبداً من دونها، ولا عن الأوفرأول الذي يرتديه، ولا عن الأصوات

القوية التي سُمعت في المساء طالعة من عندهم. «تخيّل أنك تكلم واحداً بكلام طبيعي»، يقول من كان قد مرّ به لأخي، «أنا لا أكلمه ولا أتحركش به»، يجيبه أخي ملتزماً، في ما أحسب، ذلك الحياد الذي وضعه فيه أبو تيسير.

حتى أنهم، هم رفاق أخي، وأخي من بينهم، فوّتوا على أنفسهم الفرصة التي كانت ستسليهم شهراً أو شهرين مع تيسير الذي صاروا يرونه، من حيث يقف، يظل يدير رأسه متلفتاً إلى الشرفة التي فوقنا. «الآن يريد أن يتزوج»، صاروا يقولون لبعضهم البعض محاولين أن يبدأوا جولة ضحك يعرفون أنهم لن يبلغوها من دون وجوده بينهم. كما أنهم لم يتجرأوا على الاسترسال بضحكهم حين يشاهدونه موقفاً تلفّته، لأكثر من دقيقة في كل مرة، كأن لا أحد يراه، هناك على الشرفة أو في الأسفل حيث يقف أخي ورفاقه مختلسين النظر إليه. كانت سلمى، ابنة أبو عاطف، قد تولّت هي ممازحته واستلامه بعد ابتعادهم عنه. حين تكون لوحدها في أحيان أو مع أخوتها الصغار في أحيان أخرى، تقف له ناظرة إليه، أو محركة له يدها باستدارة خفيفة تنتهي عند المعصم لكي تبدو كأنها تسأله. كأنها تقول له: «ماذا؟»، هكذا فقط من دون أن تتبع ذاك بحركة أخرى من يدها ذاتها قد تعني: «ماذا تريد» مثلاً، أو «ماذا عليّ أنا أن أفعل». وإذ يظل ينظر هو إليها متسائلاً، لكن من دون أي حركة أو إشارة تدلّ على ما به، تستمهله هي، بإطراقة سريعة من رأسها، لكي يبقى منتظراً وتركض إلى الداخل، ويتبعها من يكون معها من أخوتها الصغار.

كانت تستطيع أن تبقيه واقفاً حيث هو، إن شاءت، مفوّتاً

الباصات التي كان بعضها يقف له، بل وربما يسأله سائقوها إن كان يريد الصعود. وهي كانت تعرف أنها تسلّي الشبان الواقفين في الأسفل، أولئك الذين كان على واحدهم أن يقطع الطريق لكي يشاهدها كيف تقف وماذا تفعل. ولم يكن تردّدهم إلى هناك، واحداً بعد واحد، من أجل مشاهدتها ماذا تفعل، فقد كانوا ينتظرون من العائد إليهم أن يصفها لهم، مكرراً لهم ما سبق أن قاله مَنْ قطعوا الطريق قبله عن نهديها الكبيرين، لكن مضيفاً على وصفهما أشياء جديدة من عنده.

وأنا أنتظر مغادرتهم حتى أقول لأخي إننا يجب أن نكفّ عن أن نجعل محلّنا ساحة للهوهم. ثم أننا لا نريد أن يعادينا أحد، أقول له دافعاً إياه ليتذكر ما فعله أبو تيسير في ذلك اليوم، وأن يتخيّل أيضاً ما يمكن أن يقوم به أبو عاطف إن رأى ابنته ماذا تفعل ثم نظر بعد ذلك ماذا هناك في الأسفل. وكان أخي يوافقني على ذلك، وإن كانت رغبته برفقتهم تغلبه. قل لهم أن يأتوا في أوقات بعد الظهر، أقول له، أو اذهب أنت إليهم، داعياً إياه بذلك إلى أن يقضي ما تبقّى من وقت اليوم معهم، مرتاحاً من البقاء في المحلّ.

* * *

حتى لو لم يكن نهدا سلمى كبيرين، كانوا سيجدون فيها شيئاً يسمّونه ليشتركوا بعد ذلك في إجراء كلامهم الغامز، لكن الفاحش أيضاً، عليه. يرون أن كل ما يطلعه البيت الذي هي فيه لا يُحكى عنه إلا بهذا النوع من الكلام. أول كلمة قالها أخي عن زوجة أبو عاطف إنها تفعلها مثلما يفعلها زوجها وهو، كلما وقعت عيناه عليها، يروح يبدو كما لو أنه يشير إليها بإصبعه دالاً إلى أنها تحمل

عضواً مثل عضوه في جسمها. هكذا هو بيتهم، كان يقول لي. بل وكان يقول لي أيضاً أن لا أحد يعرف ماذا يفعلون في الداخل، حين تختلط كثرتهم مع الذين يأتون لزيارتهم، أولئك الذين هم مثلهم، لا بدّ. حتى أنه يرى أن كثرتهم تلك مريبة لوحدها، في حدّ ذاتها، حيث أن الأب، أبو عاطف، ليس أباً تاماً لأولاده ما دام أن ابنه الأكبر يروح يتزعرن مع النساء اللواتي يأتي بهن معه إلى الزهرانية، مجلساً إياهن بالسيارة التي يمرّ بها من تحت بيتهم، وما دام أنه، هو أبو عاطف، قد وضع بينه وبين أولاده الآخرين زوجته التي ليست هي أمهم، وأن زوجة ابنه التي لا يعرف إن كانت قد صارت مطلقة أو أنها ما تزال بعد على اسمه، تظل ملونة وجهها بالأصباغ أمام أولاده الذين بلغوا أو الذين يحقنون أنفسهم حقناً كل يوم من أجل أن يبلغوا، بل وأمامه هو، أبو عاطف، الذي لا تمهله عيناه المفنجرتان لأن يفكّر في ما تشاهدانه.

وهو ظلّ كذلك، محدقاً بعينيه المحمرّتين بكل ما يظهر له تحت شرفته. وإلى أنواع فضوله الكثيرة أضاف نوعاً جديداً هو مراقبة الخارجات والخارجين من بيوتهم، هناك تحت الطريق، ومراقبة عودتهم إليها. بذلك كان له غرضان اثنان من النظر إلى البنات: التهيج على أجسامهن، أو ما ظهر له مكشوفاً منها، ومراقبة تحرّكهن في الوقت نفسه. مثل كاميرا رُكبت لها عدستان، كان يقول أخي الذي، في أحيان أخرى، يروح يقف بين مدخل محلنا والطريق من أجل أن يطلق نظرة مستفزة إلى الأعلى. لكن أبو عاطف، في كل مرة، يروح يصطاد تلك النظرة قبل أن تصيبه فيقول لأخي، محدقاً فيه أيضاً: كيف الشغل عندكم. . ماشي

الحال؟ وهنا يضطر أخي إلى أن يجري تبديلاً سريعاً على مزاجه لكي يتمكن من تحريك يده يميناً ويساراً قاصداً أن الشغل متراوح بحسب الأوقات. ثم يضطر أيضاً أن يبتسم له، وإن ابتسامة خفيفة يخطو بعدها عائداً إلى محلنا، لعلمه أن الرجل في الأعلى سيكون ينظر إليه كيف يمشي، بل وإنه سيظل يلاحقه بنظره حتى حين يصير تحت الشرفة وأبعد من أن يُرى من الأعلى. «فين أخوك؟» يسأله أبو عاطف من هناك، راداً إياه خطوتين أو ثلاث خطوات إلى الوراء. وإذ يرفع أخي رأسه إليه، يعيد أبو عاطف سؤاله عني: «أخوك قل له يطلع يشرب قهوة».

وقد يُلحق ذلك بأن يصير يناديني، مدلّياً رأسه وجسمه إلى أكثر ما يستطيع، لكي أخرج وأراه يدعوني إلى شرب القهوة. وحين أقول له إنني لا أستطيع أن أترك شغلي يجيبني بأن البيع يمكنه أن ينتظر، متمسخراً هكذا على قلة الزبائن التي تأتي إلى محلنا. ثم إن أتى أحد أستطيع أن أراه من عنده، يقول، كما لو أنه يتعمّد أن يذكّرني ماذا يفعل في قعوده هناك أكثر النهار.

وأنا أكتفي بأن أتخيّل البيت كما هو في داخله، أقصد جانبيه اللذين يفصل بينهما ذلك الخط الذي في وسطهما، كأنه ممشى، والذي يبين كله حتى الشرفة في آخره، حين يتركون بابهم مفتوحاً. أقصد الغرف التي إلى الجانبين، تلك التي يُرى فيها ما لا يكشفه الباب المفتوح ولا الشرفة التي في آخر خطّه، المطلة على الطريق. أكتفي بأن أتخيّل ذلك تخيلاً. ثم أنني ينبغي لي أن أكون بعيداً عن بيتهم، غريباً عنه، من أجل أن تراني هي كذلك، غريباً ومبتعداً وهذا ما أضعها فيه هي أيضاً كلما سعيت إلى أن أراها منفردة غريبة

عن بيتها. لا أصعد إلى بيته، أو إلى شرفته، حتى لو كانت هي ستأتي بالقهوة مقربة صينيتها إليّ فأستطيع بذلك أن أراها من ذلك القرب. كما أنني لا أريد أن تبتسم لي، إن رأيتها بعد ذلك بيوم، مكمّلة الترحيب من حيث كان أمس، فأرد أنا بابتسام مماثل.

* * *

«إنها المرسيدس البيضاء ذاتها»، قال أخي الذي كان قد رأى زوجة أبو عاطف، قبل دقائق من ذلك، تعود مسرعة إلى بيتها، قبل أن تصل إلى حيث كانت تقف عادة. «انتظر، الآن سترجع»، قال أخي مشيراً بإصبعه إلى السيارة التي لم أتأخر في مشاهدتها بين السيارات. «انتظر. . انتظر»، صار يقول لي من أجل أن أبقى واقفاً بجانبه متفرّجاً معه على ما سيجري. وإذ بلغت السيارة انعطافة الطريق التي لن نستطيع مشاهدتها من بعدها، قال لي، ملحاً على بقائي حيث أنا، إنه متأكد من أنها سترجع لأنه رآها تعيد دورتها على الطريق مرتين. «ليس السيارة ذاتها فقط، بل سائقها أيضاً»، قال متخذاً هيئة من سيتفاجأ بظهور شيء. «الرجل نفسه. . هو ذاته»، أضاف بعد ذلك، بصوت من يكون يحادث نفسه. «عرف أن عليه أن يتأخر هذه المرة»، قال، بعدها بدا له أن اختفاء السيارة هناك بعد المنعطف قد طال أكثر مما كان يحسب. وحين بدا أن حماسته ستخيب، وفي لحظة ما كان يهمّ بأن يستقيم في وقوفه، ملتفتاً إليّ ليقول لي شيئاً، ظهرت هي، زوجة أبو عاطف، حاملة جزدانها بيدها ومتطلّعة في اتجاهيْ مجيء السيارات فيما هي تتقدم في اتجاه الطريق.

وكان بادياً عليها الاضطراب فقد جعلت تنقّل وجهها المتنبّه

بين الاتجاهين من دون أن تكترث لأحد قد يراها. ولم يطل بها الوقوف هناك، فسريعاً ما بدأت تسير محاذية السيارات وذاهبة في الاتجاه الذي تسلكه حين تكون مرتدية ثياب الخروج. لم تلتفت إلينا في المحل أنا وأخي، بل أنها لم ترفع وجهها لترى إن كان أحد يقف هناك على شرفة بيتهم. قال أخي إنهما سيلتقيان رغم ذلك، هي والرجل، مع أنهما يتقدمان في اتجاهين متعاكسين. «انتظر.. انتظر.. لن يتأخّر»، قال لي فيما هو يتقدم ليقف أمام باب محلنا المفتوح ليتمكن بذلك من النظر إلى اتجاهي الطريق: «ما زالت تسير»، صار يقول: «سيارة أبطأت لها، لكنها لم تلتفت».. «مهلاً.. مهلاً.. هذه مرسيدس بيضاء.. إنها تقترب.. باتت قريبة، لا ليس هو.. صارت بعيدة.. إنها تعرف إلى أين تذهب... تعرف أين تراه وإلى أين سيلحق بها.. هذه سيارة بيضاء أخرى.. لا ليست هي..».

* * *

لم يحظ أخي بالسيارة البيضاء تمرّ من أمامنا ولم ترجع زوجة أبو عاطف إلا بعد ساعات. كان كما لو أنه يتسلى بلعبة ملَّ منها بعدما خاب توقّعه، وهو ترك لي أن أفكِّر وحدي بذهابها هكذا، سائرة على قدميها فيما الرجل الذي ذهب في الاتجاه المعاكس لا يعود. وقد جعلتُ أنا أنتظره، بعدما تخلّى عن ذلك أخي، ناظراً إلى السيارات القادمة من أول المنعطف وأقول لنفسي هذه المرة، ما كان يردده أخي: «هذه مرسيدس بيضاء»، وإذ تقترب السيارة أرى فيها امرأة تجلس بجانب السائق، أو رجلاً، أو رجلين، أو أرى السائق بمفرده لكنني أُقدِّر أنه لا يمكن أن يكون هو رجل

الغرفة. من ذهب ليعود، بحسب أخي، لم يعد. وأنا لا أعرف من أجل مَنْ كنت راغباً في أن يعود، وأن يصل بسيارته إليها قبل أن تبتعد إلى الحدّ الذي لا أعود أراها من حيث أقف في محلنا، وأن تفتح هي باب السيارة مسرعة لتجلس بعد ذلك إلى جانبه، محتقنة الوجه من المسافة التي مشتها، وصامتة لا تنظر إلا إلى الطريق أمامها.

كنت راغباً في أن يلتقيا، بل وأن يسرعا إلى تلك الغرفة التي، هذه المرة، ينبغي أن تكون قريبة لكي لا يتأخرا في الوصول إليها. وأن يفتح هو بابها بيدين مرتبكتين مستعجلتين ليصيرا في الداخل الذي يعرفانه. كنت راغباً في أن يلتقيا، لا رغبة متردّدة انتبه إلى أنني يجب أن أكفّ عنها، بل رغبة ملحّة ومتحرّقة حتى أنني رحت أتخيَّل نفسي حين تقترب سيارته مني بعد أن أكون قد رأيتها قادمة من أوّل المنعطف، أشير له بذراعي كلّها دالاً إياه أنها هناك. . «هناك لقد سبقتك»، أقول له، وذلك من أجل أن يصل مسرعاً إلى حيث تسير محتقنة الوجه لا تعرف متى ينبغي لها أن تتوقف عن المسير. وأن تفتح باب السيارة بيدها. وأن ترفع ساقها لتضعها في داخلها. وأن تكون جالسة على المقعد بقربه بعد ذلك، صامتة لا تنظر إلا إلى الطريق أمامها. وأن تكون الغرفة قريبة هذه المرة، وخالية، كما يعرفانها، حتى أنهما سيحتاران، هذه المرة أيضاً، أين يضعان الثياب التي بدآ بخلعها. ليس إلاّ تلك الصوفا التي ربما يرميان الثياب عليها، قطعة بعد قطعة، وفيما هما يفعلان ذلك، يكون كل منهما ينظر إلى الآخر، إلى جسمه أو إلى قطعة ثيابه وهي تسقط على حافة الصوفا. . أكون راغباً، بل متحرقاً لأن

يلتقيا فهي، هناك في الغرفة، ستصل إلى أن تخلع آخر ما بقي من الثياب، القطعتين الصغيرتين اللتين، حين ينكشف ما تحتهما، أكون، أنا أيضاً، أرى ما يراه الرجل الواقف أمامها، وإن كان سيتقدم إليها بمفرده. وهي ستكون صامتة، أو مستمرة في صمتها. عارية وصامتة، ومتخلصة من كل شيء يحيط بها هناك في بيتها، ومتخلصة أيضاً من كل شيء فيها وهي هناك. الرجل الذي تقدم نحوها، عارية، بات قريباً منها القرب الأخير، القرب الذي يسبق الالتصاق، وهو، من المسافة الأخيرة تلك، سينظر متطلعاً إلى جسمها كله، جسمها الذي أراه أنا أيضاً، عارياً كلّه.

* * *

وأظل في أثناء ذلك منتظراً عودتها، متنقلاً بين اللعب أنفض الغبار عن وجوهها بمنفضة الريش، وربما أعيد ترتيبها على الرفوف بأن أضع واحدة في مكان أخرى، أو أوقف واحدة كانت جالسة مطوية الساقين لكي أُبرز حجمها كله. وإذ أنظر إلى الرفّ الذي أوقفتها بين لعبه، مقارناً بين منظرها واقفة ومنظرها جالسة كما كانت، أصير أفكِّر أن شغلي هذا هو الذي يبقيني كما أنا، أتفرج تفرجاً على ما أحبّ أن يكون لي. ذاك أني لا أفعل بكفيّ الكبيرتين إلا مسح وجوه اللعب ونفض الغبار عنها وعن ثيابها الصغيرة التي لا تحتاج إلى أكثر من أن أطرقها طرقاً بإصبعي. أما جسمي الضخم فأظنه غريباً مضحكاً لأولئك الذين يرونني أمسك اللعبة بين يديّ أو أدير بهما واحدة من السيارات التي تسيّرها البطاريات. هنا في الزهرانية ليس من أحد يشتغل بمثل شغلنا أنا وأخي الذي أظنه، هو أيضاً، يجدني مثلما يجدني سواه. مثلهم،

لا يستطيع أن يبعد عن ذهنه صورة الطفل الذي يخاطب لعبته حين يراني مقرّباً اللعبة من عينيّ. هذه الصورة تأتيني أنا أيضاً فأفكِّر عندها أنّ أخي ترك أكثر الشغل لي وأنه، بطريقة ما يكلّم الناس ويمازحهم، يُشعرهم بأنه يلهو بشغله هنا أكثر مما يشتغل فيه.

لا أحد مثلنا، في الزهرانية. حتى الحلاقون الذين فتحوا محلات زينوها بالمرايا وصور الرؤوس المصففة شعورها، يبدو شغلهم أقرب إلى الشغل الحقيقي من بيع اللعب. لأنهم يمازحون زبائنهم بمثل كلامهم، بل ولا يتحرّجون من التمسخر على رجل أنهوا لتوّهم قصّ شعره فيقولون له، فيما هم يخبطون في الهواء القماشة الكبيرة التي كانوا عقدوها حول رقبته، أنه بات الآن في جمال ممثلات السينما. وحين يقفلون محلاتهم ليعودوا إلى بيوتهم في آخر النهار، لا يظهرون مختلفين أبداً عن أولئك الذين يبادلونهم التحيات، الواقفين أو القاعدين على جوانب الطرقات. بل وإنهم قد يرفعون أصواتهم عالية، مهددين بها، حين يقوم شجار يشتركون هم فيه. ذلك يجعلهم من طينة الذين حولهم، أولئك الذين يشتغلون بطرق حديد السيارات بالشواكيش أو أولئك الذين يُنزلون صحاحير الخضار من الشاحنات ويظلون يشتغلون بحماسة أجسامهم ذاتها طيلة النهار. الواحد من هؤلاء، بالصخب الذي يطلع من صوته وجسمه، يستطيع أن يمدّ يده ليأخذ الشيء الذي يريده. يستطيع الرجل في المرسيدس البيضاء، الوسخة المتخلعة، أن يحصل على ما يرغب فيه، مندفعاً إلى ذلك، راكضاً إليه، كأنما من أجل أن يصل إليه قبل رجال آخرين يزاحمونه.

* * *

بعد ما جرى لميلاد بأيام بدأ يقلّ مجيء رفاق أخي إلى محلنا. صار أخي يشير عليهم بيده أن يقطعوا الطريق لكنهم يترددون في ذلك ويكلّمونه من هناك، قائلين له إنهم ذاهبون إلى البحر. صار هو الذي يقطع الطريق إليهم حين لا تعود تكفي إشارات الأيدي أو حين يريدون أن يقولوا شيئاً يتعدّى ما تبلّغه الإشارات والكلمات القليلة. كما أنهم توقفوا عن مشيهم معاً، وعن ظهورهم مع البنات اللواتي كن يرافقنهم ليكونوا كما لو أنهم يستعرضون لهوهم على الطريق. كان يقول لي أخي، بعد أن يعود من كلامه معهم، إنهم ما عادوا يحبّون أن يأتوا إلى هنا. ليس فقط بسبب أبو تيسير، الذي لن يروه على أي حال ما دام أنه يبقى وراء سوره العالي، بل أيضاً بسبب أبو عاطف الذي، حين يرونه ناظراً إليهم، أو متكلماً معهم، يبدو لهم كما لو أنه ما زال مبقيهم هناك، عند الحادثة التي احتاجوا فيها إلى مصالحته. ثم يقول لي أخي إنه سيلحق بهم إلى البحر الذي يستطيعون أيضاً أن يصلوا إليه سالكين الدرب الضيقة تحتهم، تلك التي تفصل بين بيوتهم والصخور المسننة الحادة الرؤوس. ويكون أخي يعرف أنه، إن ذهب إلى البحر، سيلاقيهم كلهم هناك، متجمعين، شباباً وبنات، كما لو أنهم التقوا لتوّهم قادمين من طرقات ودروب كثيرة. أو سيراهم، منذ أن يطل عليهم من الشرفة الواسعة التي اصطفت وراءها الكابينات، يلقون بعضهم بعضاً في الماء ويتراكضون حول بركة السباحة كأن كلاً منهم يحاول الفرار من الأيدي التي تمتد إليه لتمسك به. من هناك، من تلك الشرفة، يلقي عليهم تحية أولى وهو بعد في ثيابه الكاملة، هكذا مستبقاً

قدومه ومعلناً لهم أنه، منذ أن أطلّ عليهم، بات موجوداً معهم.

من قبل أن يتوقّفوا عن قطع الطريق كان أخي يشعر بأن عليه أن يكثر من تسليتهم بكلام النكات الذي يقوله. وهم كانوا يضحكون له، بل ويقولون له في مرّات أن يعيد ما قاله فيما وجوههم مستعدة ليبدأوا نوبة الضحك ذاتها من جديد. لكن ذلك لم يكن كافياً ليظل متقدماً إلى الأمام في رفقته لهم حتى يصير واحداً منهم. لم يصل معهم إلى حدٍّ أن يلتقيهم فرادى، هكذا من دون أن يكون الواحد منهم، الجالس معه، مستعجلاً انضمامهما إلى الآخرين. كأنه، هو أخي، رفيقهم في وقت ما يكونون متجمعين معاً. حين يصل إلى بيت واحد منهم فإنما من أجل أن يستدير عائداً منه بعد خروج الاثنين أو الثلاثة الذين كانوا ينتظرونه فيه، وذلك لكي يتوجهوا معاً بعد ذلك إلى حيث يكون الباقون. حتى طوني، الذي يظل على الدوام في آخرهم، مادّاً يده من بينهم ليسلّم عليّ، يؤثر أن يظل معهم، في آخر حلقتهم أو في طرفها، لكن دون أن يبتعد عنها إلى الحد الذي يصير فيه بمفرده.

ولا أعرف إن كانت قبلة برناديت تحدث هناك على البحر، مصحوبة بذلك الهرج الذي رحت أتفرج عليه موقفاً السيارات من حولها. تلك القبلة على خدّ أخي، التي رأيتها مكبّرة مضخمة مثلما يمكن أن تكون مالئة، لوحدها، شاشة واسعة. هذه القبلة بتّ أحاول تخيّلها حادثة هناك، على البحر، فلا أستطيع. ما يخطر لي بدلاً منها ابتسامتها، ويدها التي تمتد مستقيمة لتصافح يده.

* * *

حيث كانت تقف زوجته منتظرة أن تأتي السيارة لتأخذها، وقف أبو عاطف إلى جانب حقيبة سفر بدت، لضخامتها وقدمها، كأنها صُنعت لنقل قطع أثاث أو آلات موسيقية تعود إلى زمن سبق. لوّح لي بيده ليفهمني أنه مسافر، ولأقترب منه ليكلمني عن سفره. لا أكثر من شهر واحد، قال لي، سيعود بعده ليقرّر هنا ماذا عليه أن يفعل. ثم قال لي، لكي يرفع من أهمية سفره، إنه ذاهب إلى أميركا. لكنه عاد وأخفض من تلك الأهمية حين أضاف أن أخته وزوج أخته سينتظرانه هناك في المطار، هكذا كأنه يردّد ذلك لنفسه مطمئناً إياها بأنه لن يضيع.

كان ينتظر وصول ابنه ليأخذه مع حقيبته إلى المطار. «لم يتأخر»، قال لي بعد أن نظر إلى ساعته وصفن قليلاً ليجري في رأسه حساب الوقت. كانوا هناك في الأعلى جميعهم، منتظرين مثله، وهم ظلّوا صامتين حين راح يوصيهم بأن لا يضايقوا بعضهم بعضاً ولا يتعاركوا. ثم قال لزوجته، الواقفة بينهم مثل صنم والزائغة العينين من وقوفها منتظرة لا تفعل شيئاً، إنها يجب أن تتلفن له إلى هناك إن حدث شيء أو إن احتاجت إلى شيء. «نمرة التلفون معك؟» سألها ليحصل على الجواب الذي يعرفه. «لم يتأخر بعد»، قال لي بعدما أطال النظر في ساعته هذه المرة، ثم استدرك قائلاً إنه، على أي حال، يستطيع أن يأخذ سيارة أجرة إلى هناك. وقد أراحه قراره ذاك، حتى أنه قال لي، فيما هو يلقي نظرة على الحقيبة الممدّدة على الأرض مثل صندوق طويل، «تعال نقعد عندك».

لا أعرف إن كان تجمّعهم قد ظل على حاله صامتاً منتظراً

حين صرنا، أنا وهو، تحت شرفتهم ولا يستطيعون منها أن يرونا. فكرت أنهم ربما استرخوا في وقوفهم مثلما يفعل من يؤذَن لهم بوقت استراحة. وربما تفرّقوا عن تجمّعهم لكن ليظلوا مستعدّين أن يعودوا إلى وقوفهم إياه في اللحظة التي يظهر هو فيها من تحت الشرفة، رافعاً نظره إليهم. عند بوابة محلنا، حيث قرّب الكرسي ليجلس، سألني عن الوقت في ساعتي ليقول، من بعدما أجبته، إنه ما زال لم يتأخر. لكنه لم يستطع الجلوس على الكرسي التي كان قد أدارها في اتجاه الطريق. قال لي، موسعاً عينيه كما يفعل حين يكون يحدّق بأحد يمر من تحت شرفته، بأن ابنه كان يجب أن يفهم أنه، هو أبوه، لا يحبّ أن يتأخر. ثم قال، بعد أن أضيف إلى فنجرة عينيه احمرار وجهه، إنه كان على ابنه أن ينسى كل شيء حين يكون أبوه مسافراً. ثم رفع الكرسي بيده من دون أن يعرف لماذا فعل ذلك. ثم أنزلها إلى مكانها خابطاً قوائمها على الأرض. «كان يجب أن يتذكر أباه بدل أكل الخراء الذي لا يشبع منه»، قال نازلاً في اتجاه الطريق معيداً قوله الأخير هذا، لكن متفرقاً بما يحوّله إلى شتائم صرفة: «أكل خراء»، «لا يشبع من الخراء»، «كان يجب أن يتذكّر أباه الخرا».

كانوا هناك واقفين في الأعلى حين رحت أساعده على وضع حقيبته في صندوق سيارة الأجرة الذي لم يتسع عرضه لها، فأبقي لذلك مفتوحاً لأنه قصر أيضاً عن طولها. وكان مستعجلاً وحانقاً معاً فيما هو يقول للسائق أن لا حاجة لربط غطاء السيارة بالحبل، بل وبدا كأنه يدفع السائق دفعاً ليجلس في مكانه خلف المقود. كما أنه ظل على حنقه واستعجاله حتى حين بدأت السيارة تتحرّك

به. لا أكثر من حركة وداع واحدة، ساخطة، رفع لها يده من النافذة، ثم أدار وجهه من بعدها إلى الطريق أمامه.

* * *

ولم يطل بهم الوقت واقفين ناظرين إلى الأسفل. كانت امرأته أول من انسحب من بينهم، حتى قبل أن تصل السيارة إلى أول المسبح، ثم تفرق الآخرون من بعدها حيث منهم من تبعها إلى داخل البيت ومنهم من بقي هناك على الشرفة، لكن ليعودوا ويتبادلوا أماكنهم بعد ذلك أو يختلطوا ليتوزّعوا بين الشرفة وداخل البيت من جديد. أنا، من محلنا في الأسفل، كنت أستطيع أن أتخيّل كيف ستجري تحركاتهم الأولى، في نصف الساعة أو الساعة التي أعقبت رحيل أبو عاطف. في ذلك الوقت القليل كان ينبغي لذلك الحدّ الفاصل أن يُزال أو يمحى بين الشرفة والبيت، بغرفه كلها. باتت امرأته تستطيع أن تكمل مشيها حتى إلى تلك المسافة التي كان يظهر منها رأس زوجها وكتفاه، من دون أن تكترث لما ترتديه. وكان الأولاد الصبيان، الذين ما عادوا في عمر الأطفال، لا يترددون في أن يخرجوا بكلاسينهم إلى هناك، بل وأن يتعاركوا معاً وهم بالكلاسين. زوجة عاطف، أو مطلقته لكنها ما زالت تنتظر مجيئه، كانت تتقدم إلى تلك المسافة مسرعة، ومسرعة تتراجع عنها بعد أن لم تر ما كانت خرجت لتراه. أما سلمى التي يسبقها نهداها إلى الكبر، فباتت لا تستحي من التحديق بالمرآة الصغيرة التي تحملها بيد وطقطقة ملقط الشعر باليد الأخرى، فيما هي تجلس مسترخية مسندة ظهرها إلى تلك الزاوية بين حافة الشرفة وحائط البيت.

وأنا، في الأسفل، رحت أضيف ما أتخيّله على ما أراه وأسمعه منهم مستعجلاً حدوث أشياء ستعقب، لا بدَّ، تلك الفوضى التي بدأوها. وهي أشياء ستبدأ سريعاً بالحدوث، من لحظة ما يعود أخي ورفاقه من البحر ويرون، من حيث يقفون هناك على الجهة الأخرى من الطريق، كيف أن الذين كانوا في داخل البيت صاروا كلهم على الشرفة خارجه. أو من صباح الغد أو مسائه حين سيأتي الرجل في المرسيدس البيضاء ويطلق زموره هذه المرة، معلناً عن وصوله. أما أنا فعليّ أن أفعل شيئاً، أن أخطو خطوة أعرف أنها ستظل مترددة متحسّبة، ومحتملة أن تكون هكذا بلا قصد لأستطيع أن أتصرّف بعدها كما لو أنها لم تحدث؛ أن أكمل طريقي نازلاً على الدرج غير خائب ولا مخلفاً ورائي فشلاً قد تظهره في ابتسامة فاهمة لكن مستخفة تغلق من بعدها الباب الذي كان قبل ذلك مفتوحاً. شهر واحد، قال أبو عاطف. شهر واحد إذن يجب أن يحدث كل شيء فيه.

# بنات الزهرانية الضاحكات

لم يكن يُغضب أبي هروبي من المدرسة. لم يكن يفعل مثلما يفعل الآباء الآخرون حين يُعلمه مدير المدرسة أو ناظرها أنني اليوم لم أكن بين زملائي. لا أكثر من أنه كان يسألني: لماذا هربت من المدرسة؟ ولا شيء أكثر... لا أين كنت، ولا ماذا كنت تفعل، ولا كنت مع من. سؤال واحد فقط يقوله فيما هو يستمر بالقيام بما كان يقوم به. لم يكن ينظر إليّ نظرة الآباء تلك، النظرة الغاضبة المتّهِمة التي تزداد تحديقاً في الوجه إن ظلّ الولد ساكتاً لم يجب. لا أكثر من ذلك السؤال الذي كان يسكت من بعده، تاركاً إياي حائراً ومنتظراً أمامه، هكذا كأنني مقدّم نفسي للقصاص الذي بتّ، منذ المرات الأولى، عارفاً أنني لن أتلقّاه.

وأنا، منذ المرات الأولى تلك، صرت أكره أن أمضي نهاري لا أفعل شيئاً إلا انتظار عودة التلاميذ إلى البيوت، لأعود إلى بيتنا في وقتهم. صحيح أنني كنت حرّاً في الخارج، حيث أقضي أوقات هروبي، لكنني كنت وحدي لا أحد معي. وكان الوقت يمرّ بطيئاً وطويلاً ولا ينتهي. بل كان يخطر لي في مرات، وهي مرات كثيرة، أن أعود إلى المدرسة في فرصة الساعة العاشرة وأقول

للناظر أنني قمت من النوم مريضاً وأنا صرت أحسن الآن. لكنني كنت أعرف أن هذا لا يصحّ مع الناظر إلا لمرة واحدة. وفي مرات أخرى كنت أعود إلى المدرسة لكن لأقف بقربها فقط، عند آخر الحائط الذي في وسطه بوابتها المقفلة، أو على جانب من الرصيف الذي يقابلها، مترقّباً ظهور أحد من أولاد صفّي في الملعب، لكي أتقدم وأكلمه من بين قضبان البوابة.

حين جئنا، أو جاء بنا أبي إلى الزهرانية، بدا لي أن العيش فيها يشبه الهرب من المدرسة، لكن من دون أن أكون ضجراناً لوحدي ورابطاً وقتي بوقت التلاميذ. وكنت أقول هذا لأخي كلما رأيته، في تلك الأيام الأولى، يتطلّع حوله مثل من يفتش عن شيء ولا يجده. «كل الذين ينزلون إلى الشغل وهم بعد صغار يشعرون بما تشعر به»، كان يجيبني. بذلك كان يتكلم عن نفسه أيضاً، هو الذي أخرجه أبي من المدرسة بعد أن رسب في صفّ واحد سنتين متتاليتين. وكان ذلك بسبب بلادته، كما قال أبي يومذاك. أما أنا فكان حبّي للطيش، بحسب أبي أيضاً، هو ما كان يدفعني إلى الهرب منها.

الزهرانية بدت لي، من وقت ما وصلنا، مكاناً لقضاء العطل أكثر مما هي مكان للشغل. لا أقصد بذلك البحر وحده، ذلك الذي منذ أن رأيته أمامي فكّرت أن أنزل لتوي إلى شاطئه مهيّئاً نفسي للسباحة فيه، بل أقصد أيضاً مساحات الأرض الواسعة وراء بيتنا، تلك التي، كلما فتحتُ النافذة إليها بعد أن أفيق، أرى أن لون الشمس الواقع عليها هو ذاته لون العطل.

ثم أنني كبرت هكذا فجأة في الزهرانية. التلاميذ الذين هم

في عمري ظلوا هناك، لا بدّ، تلاميذ في الصفوف، بينما رحت أنا أقف في محلنا، مثلي مثل الرجال الذين يربّون أولاداً. في المحلّ لم يكن أخي يتدخل بيني وبين زبون أفاصله أو أبيعه. ولا يقف قريباً منا مصغياً إلينا ماذا نقول. بل أنه، بعد أن يخرج الزبون، لا يسألني شيئاً عما بعته وهو يظل مستغرقاً في نفض اللعب بمنفضة الريش وبترتيبها على الرفوف فيما أكون أضع المصاري التي قبضتها في الدرج. في أحيان كنت أقول إنه يعرف أنني أبيع بأحسن مما يبيع هو، بأنني أفهم الزبائن من هيئاتهم. حين قلت له بأن علينا أن نعمل ديكوراً لمحلنا أراني النقود التي تركها لنا أبي وراح يعدّها أمامي. وإذ بدا بعد ذلك أن بضاعة الديكور وشغله يكلّفان أكثر مما حسبنا، لم يتذمّر من ذلك أبداً. فقط بعد أن دفع آخر ما تبقى علينا للشغيلة قال لي إنه لم يبقَ معنا الكثير وأن علينا أن نقلِّل من شراء اللعب من التجار.

أي أننا صرنا، لكي نملأ الرفوف، نترك مساحة خالية بين اللعبة واللعبة أو نترك تلك الرفوف التي في آخر الواجهة خالية. وكان هذا ينضاف إلى الخلاء الذي في الداخل، حيث الغرفتان الضخمتان اللتان أغلقنا الباب عليهما من دون أن نضع فيهما شيئاً. ذلك الفراغ لم نعرف ماذا نفعل به، ليس في المحل وحده، بل وفي البيت أيضاً. كان يكفينا مثلاً زاوية صغيرة من مطبخه ما دمنا لا نطبخ فيه إلا الأكل الذي يأكله عادة من يعيشون بمفردهم من دون نساء معهم. ثم هناك الغرفة المجانبة لباب المدخل، تلك التي لم نضع فيها إلا بطارية تضيء البيت بلمبات صغيرة حين تنقطع الكهرباء. وأيضاً هناك غرفة النوم الثالثة التي سمّيناها غرفة

الضيوف ووضعنا فيها طاولة وسريراً كان أخي يذهب لينام فيه من بعد أن تمتلئ غرفته بالهواء الساخن كما كان يقول. هكذا تكون المحلات والبيوت التي تُبنى في غير أمكنة البناء، كبيرة ضخمة وواسعة المساحة لأن الأرض التي تقوم عليها رخيصة ولا ثمن لها. نحن، أنا وأخي، عشنا في البيت، وفي المحل أيضاً، مجاريين الرخص الذي فيهما. لم نجدّد شيئاً فيهما عتق أو تكسّر، كما أننا لم نغيّر شيئاً في الأثاث القليل ولم نزد عليه شيئاً، فقط ذلك الذي كنا نسميه «الديكور» أنا وأخي، الذي سريعاً ما لحق بعتق المحل فصرت، كلما أراه، أتخيّل يدي تمتدّ إلى خشباته الرفيعة كالقضبان وتبدأ بخلعها واحدة واحدة.

ليس أننا لم نقدر على تجديدها أو تغييرها بل أننا، فوق ذلك، لم نجد حاجة إلى ذلك. كنت أقول لأخي، بعد سنة أو سنتين من مجيئنا، إن محلنا لا يجب أن يكون أكثر ترتيباً مما هو عليه، إذ سيبدو عند ذاك غريباً عن صفّ المحلات المشكوكة مثله على الطريق. وإنه سيبدو مضحكاً مثلما بدا لنا مضحكاً، بعد سنوات من ذلك، المبنى الذي يشبه القصر والذي كنا ندلّ عليه بالأصابع كلما مررنا من أمامه، مرتفعاً بين بسطات البيع حوله. ثم أن اللعب التي نبيعها لم تكن تحتاج إلى أن نزيّن لها محلنا. البسكلاتات التي كان أخي يركنها مصفوفة على الأرض، واحدة بقرب واحدة مثلما تُركن السيارات في الكاراجات، كانت هي أيضاً بلا زينة ولا منظر. كأنها من موديلات قديمة ليس فيها إلا المقود والدوّاسات والدواليب الثلاثة. لا شيء زائداً على ذلك. هذا ما يقدر عليه زبائننا، كان يقول أخي الذي، مع ذلك، لا يتوقف عن

نفض الغبار عن البسكلاتات وعن اللعب التي تفنَّن صانعوها في جعلها شبيهة بالتي أغلى ثمناً منها. هذا ما يقدر عليه زبائننا، كان يقول، وأنا أروح أراهم هكذا، مثلما هي اللعب، حين يدخلون حاملين على صدورهم أولادهم الصغار، أو جارّين إياهم جرّاً في الخطوات التي تسبق وصولهم إلى محلنا.

ومع ذلك كانوا، هم وأولادهم، يتنقلون بين ما يشاهدونه، فيرجعون إلى لعبة بعد أن كانوا تعدّوها إلى غيرها، مسائلين أنفسهم وأطفالهم إن كانوا يختارون هذه أو تلك. كما كانوا ينقلّون أولادهم على مقاعد البسكلاتات ويضعون أيديهم الصغيرة على طرفي المقود مبتسمين لهم في أثناء ذلك. أنا تعلّمت منهم، هم الزبائن، كيف أميّز بين الألعاب التي، لكثرة ما كنت أراها متشابهة، كنت أفكِّر أن بيعها يمكن له أن يكون مثل بيع الخبز الموضوع في الأكياس المقفولة بالأربطة. كأن يقول الزبون مثلاً أريد لعبة، فأعطيه اللعبة التي هي الأقرب إلى يدي.

وكان أخي يقف أمام بابيْ «الفان» المشرعين مفاضلاً بين لعبتين يحمل كلاً منهما بيد، مقرّباً هذه مرة ثم هذه مرة قبل أن يعطي ما اختاره منهما للتاجر صاحب الفان. «هذه»، يقول له أخي فيما هو يقرّبها من الرجل لتضعها يده في الصندوقة الكبيرة التي تجمعت فيها اللعب، واحدة بعد واحدة. وفي أحيان كان يدعوني إلى أن أقترب منه، أنا الواقف ناظراً إليه من باب محلنا عند أعلى الدرجات الثلاث، «أنظر هذه»، يقول لي، ثم يقول للرجل إننا نريد ثلاثاً منها. يكون قد أعجبه لون فستانها الأصفر أو كثرة طياته التي تجعل اللعبة، في ظنه، مثل الأميرات. وأنا اعتدت أن أراه

هكذا، مقبلاً بجسمه الضخم على تلك الأشياء الصغيرة ومنتبهاً منها إلى ما تنتبه إليه البنات الصغيرات. «هذه نريد منها اثنتين أخريين»، يقول للرجل سائلاً إياه إن كان معه، هنا في الفان، لُعب مثلها. وأنا أوافقه على ذلك، بل وآخذ اللعبة من يده لكي أحدّق فيها مقلِّباً إياها قبل أن أعيدها إليه ليضعها هو في يد الرجل.

ومثلما تعلّمت أن أرى أشياء كثيرة كما يراها هو، بعينيه، تعلمت كيف يفرِّق بين لعبة وأخرى وما الذي يعجبه أو لا يعجبه في ما يراه. حتى أنني، حين يأتي الزبون لنبيعه، أعرف كيف أكلّمه فأقول له إن عينيْ هذه تبدوان عينين حقيقيتين أو أن ابتسامتها طبيعية وأن الطفلة ابنته ستبتسم مثلها كلما نظرت إليها. ذلك كلام أقوله، وقد ظللت أقوله، وإن كنت أخجل من قولي له في الوقت نفسه. أخجل من أن يسمعه أحد سوى ذاك الذي أكون أكلمه، وسوى أخي الذي ربما لا يكون يسمعه على رغم قربه من حيث نقف، أنا والرجل. حتى أنني أخجل من اللعب نفسها، من طريقة ما يُجلسها أخي، أو يوقفها، فتبدو لي كما لو أن أكثر ما يظهر منها هو رخصها. أكون أتحسّب لأن يرى رفاقي ما أراه فيها فأروح، حين يأتون إلى محلنا، أتمسخر على ما يظهر على وجوه اللعب فأجعل نفسي كأنني أكلّمها على رفوفها فيما هي تحدّق بي صامتة لا تتكلم، أو أُنزل لعبة منها عن رفّها وأقرِّبها من وجهي وأصير أرفع شعرها كأنني أرفع شعر امرأة لأكشف أنه شعر مستعار.

وكنت أعرف أن أخي، فيما أكون أفعل ذلك أمامهم، ينظر إليّ نظرات مختلسة مبقياً وجهه مائلاً عني. لم يكن يعجبه ما أفعله لكنه، مع ذلك، يحبّ أن يأتوا إلى محلنا. في الدقائق الأولى التي

تعقب دخولهم كان يتصرّف كما لو أنهم أتوا لزيارته هو أيضاً. كان يصافحهم واحداً واحداً في كل مرة، حتى وإن عادوا إلى المجيء مرة ثانية بعد ساعات. وهو يجاريهم في مزاحهم حين يسألونه إن كنت أطيعه في شغلي فيجيبهم بأنه سيشكوني إليهم إن لم أفعل. وكنت أنا أحبّ أن يذهب إلى أبعد في ممازحتهم لكنه، بعد تلك الدقائق الأولى، لا يعود يجد شيئاً يحكيه لهم فيبتسم تلك الابتسامة التي تعني أنه الآن سينصرف عنا إلى ما كان يفعله.

كأنهم صحبة اهتديت إليهم ، كما لم يحصل لي في أيام هروبي من المدرسة. حين أعود من زيارتي لهم أو من تمشيّ معهم، كنت أقول لأخي بماذا تحادثنا معيداً له النكات التي أضحكتنا. وأنا، في النكات التي نقولها، كنت الأوّل بينهم إذ أبدأ بقول الكلام الذي يُضحك من لحظة ما أصير معهم. حتى أنني، في أيام ما كنا نذهب للسباحة، كنت أنا الذي أخترع المقالب التي تجعلهم يركضون وراء بعضهم البعض عند حافات البركة ويتدافشون بعد ذلك إلى الماء. وكنت أركض بينهم وأطلق مثلهم تلك الصيحات المذعورة حين ألتفت وأجد الأيدي تتقدم نحوي وأنني لا بدَّ واقع في الماء. وأكون فرحاناً كلما وقع الدور عليّ لأنني أحسّ بأنهم يرونني واحداً منهم، واحداً مثلهم، وإن سبْقي لهم في الكلام وفي اختراع المقالب لم يدفعهم إلى الحذر مني. لم يكن يخطر لهم ما كان يخطر لي، كلما أضحكتهم على شيء أو على أحد، أن هذا تعلمته من أناس لا يعرفونهم، وأنني لا بدَّ أريد أن أصل إلى شيء من مشيي معهم. لذلك كنت أسكت حين يبدأون الحكي عن إحدى البنات اللواتي يجئن من

خارج الزهرانية إلى المسبح، متخيّلين ما تحت ثياب البحر الصغيرة التي ترتديها، أو واصفين كيف يهبط أحد فوقها وهي مفرجة ساقيها نائمة. أفكِّر آنذاك أنني يجب أن أظل ساكتاً لكي لا يأخذوا أي كلام قد أجاريهم فيه على أنني هكذا، مثلما أقول، فيصيرون يرتابون بي حين يرونني أنظر إلى إحدى بناتهم أو أكلّمها. تعالوا نجلس هناك، يقول واحدهم مقترحاً أن نبتعد عن البنات اللواتي جئن معهم أو سبقنهم إلى المجيء. وأنا، حين تصير امرأة تحت أنظارنا، كأنها منكشفة لنا، أروح أسلّم الكلام لميخا الذي يروح «يفظّع» بها كما كنا نقول، هكذا فيما البنات أو قريباتهم، يعرفن هناك، وهنّ جالسات معاً، أي كلام هو الذي يقهقهون له.

أكون بينهم الأقل كلاماً وقهقهة في جولات التفظيع التي تدفع البنات إلى أن يقمن من حيث جلسن ويرحن يمشين مبتعدات إلى الجهة الأخرى من البركة. وأنا أفكِّر أن عليّ عند ذاك أن أقوم مثلهن لولا أنني أعرف أن أحدهم سيقول لي إنني استحيت من الحكي عن البنات، وأن الآخرين سيكرّرون ما قاله من بعده، بل وربما يروحون يصفّقون لي مثلما يفعلون وأفعل أنا معهم حين نركّب مقلباً على ميلاد.

أظل ساكتاً حتى حين نكون وحدنا على الطريق، ناظرين إلى سلمى وهي تعرض صدرها الكبير، ملقية إياه على حافة الشرفة.

* * *

أستطيع أن أضع نفسي في مكان تيسير، أن أدير في رأسي ما يدور في رأسه حين أراه واقفاً هناك مع عصافيره، ناظراً إلى النقطة

ذاتها في شرفة أبو عاطف. سواء كانت سلمى هناك أو لم تكن، يظلّ يحدِّق في مكانها ساهياً غير مكترث بأننا نراه. بل أنه يكتفي بأن يلتفت نحونا التفاتة غير مبالية لا تطول لأكثر من ثانيتين أو ثلاث، وذلك حين نروح نُعلي أصواتنا جاعلين أنفسنا نبدو كأننا ننادي أحداً واقفاً بقربه. لكننا لا نتقدّم إلى حيث يقف. نظلّ بعيدين عنه مسافة طريق السيارات، واقفين في الجهة التي هي جهة بيوتهم. «لقد جاءت.. جاءت.. هي جاءت..» نصير نقول حين نراها خارجة إلى الشرفة، وذلك لكي يرتبك ويضيع فلا يعرف إن كان عليه أن ينظر إلينا ليسكتنا أو أن يعيد نظره إلى المكان الذي وصلت هي إليه. لكنّه لا يعود ينتبه إلى وقوفنا حين تبدأ بتحريك شفتيها موهمة إيّاه بأنها تكلِّمه، أو حين تشير بإصبعها إلى قفص من أقفاصه، بل إلى عصفور من العصفورين أو الثلاثة التي في داخل القفص. يكون يفهم شيئاً حين يرى إصرار إصبعها على واحد من العصافير فيبتسم فيما هو يبعد نظره عنها راضياً ومستحياً.

أستطيع أن أضع نفسي في مكانه وأعرف ماذا يدور في رأسه فيما هو يرى شفتيها قريبتين تكلّمانه. ليس فقط لأنها تكون تنظر إليه تلك النظرة فيما هي تفعل ذلك، بل لأنها تعرف كيف تُظهر له أنها تخصّه بها وحده. وحين تُحني وقفتها بعد ذلك، لكي يصير نهداها قابلين لأن يستندا على حافّة الشرفة، تكون قد قرّرت أن تُدخلنا نحن في لعبتها. وهي تستطيع أن تفعل بهما ما تشاء، كأن تقدّمهما إلى منتصف الحافّة فتبدو كأنها تعرضهما، أو أن تمرّر يدها عليهما ثم تُخفض عينيها لتنظر إليهما بعد ذلك، أو أن تستدير

نصف استدارة لتبدو كأنها تظهرهما لتيسير من جانبهما فيما هي تقصد أن تُظهرهما لنا من الأمام. . تستطيع أن تفعل ما تشاء في تلك اللعبة التي يفكِّر عقل تيسير أنها تجري من أجله وحده، وأن لا أحد هناك غيره في الطريق التي تعلوها الشرفة. أما نحن، الواقفين معاً والناظرين كلّنا إلى حيث ينظر، فنروح نكلِّم بعضنا بعضاً لكن من دون أن نقصد شيئاً مما نقوله أو أن نردّ على ما نسمعه. نكون منشغلين بتخيّل صدرها عارياً. وكبيراً إلى حدّ أنّنا سنشعر به ثقيلاً إن رفعناه، أو إن رفعنا نهداً واحداً منه، بيدينا الاثنتين.

وكنا نتخيّله ناعماً على رغم ذلك وعلى رغم أنها، هي سلمى، تعيش في البيت الذي كلّ شيء فيه وسخ وتطلع منه روائح تصل حتى أسفل الدرج. في أحيان كنت أفكِّر أنني مثلي مثل أخي حين أمرّ مسرعاً من أمام بابهم لكنني، فيما أكون أركض نازلاً الدرجات اثنتين اثنتين، أكون كأنني راكض ليصطدم وجهي بصدرها المنكشف المفتوح أمامي. لكنني إن رأيتها حقيقة، صاعدة أو نازلة على الدرجات، أو واقفة قبالة بابهم المفتوح تنتظر مجيء أحد، لا أكلِّمها ولا أنظر إليها. ذاك لأنني، حتى إن أردت ذلك، سيكون أحسن لي إن تجاهلتها، مرّة بعد مرّة، حتى تعرف، حين أكلِّمها بعد ذلك، أنني سأعود وأتجاهلها إن ردّت بشيء لا يعجبني.

وكنت أفكِّر أنني، إن أردت، أستطيع أن أسبقهم جميعاً إليها. فأنا، أوّلاً، على جهتها من الطريق ولن يرتاب بي أحد هناك حتى لو شاهدني واقفاً أكلِّمها. في مرّات، حين يبدأ حكيهم عنها، أجدني أتحمّس، هكذا بيني وبين نفسي، لكي أقوم بتلك الخطوة

التي أستطيع من بعدها أن أجعلهم يتبعونني ويتسابقون إليّ متلهّفين ليسمعوا ماذا رأيت وماذا فعلت. ذلك الكلام الذي يقولونه عنها كأنهم يغالبون به بعضهم بعضاً سيصير كلامي وحدي، أقوله أمامهم وهم ينصتون إليّ. بل وإنهم سيُسكتون من يقاطعني منهم أو يعلّق على شيء قلته. أسكت.. أسكت .. سيقولون جميعهم لميخا حين يصير يزيد على ما قلته أشياء من رأسه. بل أنهم سيزيحونه من بينهم ويُبعدونه إن أصرّ على أن يُبديني كأنني مثله، أخترع ما أقوله.

أستطيع أن أسبقهم جميعاً إليها لكنني، إن فعلت، أكون أبقي نفسي هناك، في روائح بيتها ووسخه وفي عيشهم الذي لا يعرف أحد فيه من ينام بجنب من. لن أعرف بعد ذلك كيف أظلّ مثلما أنا بينهم. لا أكثر من مرّة واحدة يتجمعون فيها حولي لأصف لهم كيف هي وكيف تكون حين يختلي بها أحد. مرّة واحدة فقط سيبدأون من بعدها ارتيابهم بي. سيصيرون ينظرون إلى حيث أنظر حين تكون البنات معنا أو قريبات إلينا، هناك حول بركة السباحة في البحر. أو يقولون لهنّ، حين نصبح قريبين منهنّ، أن يبتعدن. أو ربما أُبعَد أنا عنهن بأن يحيط به أحدهم بذراعه، عند كتفي، ليبدو كأنه يأخذني ليبلغني شيئاً لا يحبّ أن يُسمعه لأحد غيري.

ذاك لأنهم، برغم الضحك الكثير الذي نضحكه معاً، وبرغم أنني أجاريهم في قول كلّ ما يخطر لهم عن سلمى، لن يتأخّروا في أن يجعلوني أشعر بأنني سقطت في الاختبار الذي كانوا ينتظرونه. لا ينبغي أبداً أن أنسى أنني وحدي بينهم وأنني أجيء إلى عندهم من هناك. أعرف ذلك مثلما أعرف أن عليّ أن أظلّ

أقلّهم كلاماً حين يبدأ الحكي المفظّع بالبنات، وأن أكون، في الوقت نفسه، أكثرهم اختراعاً للنكات.

* * *

لا يتوقّف وصول الناس إلى الزهرانية ليعيشوا فيها. المحلاّت التي كانت تفصل بين واحدها والآخر قطعُ أرض خالية تلاصقت وصار بعضها، بسبب كثرتها، يكتفي ببيع أشياء لا يخطر لأحد أن يكتفي محلّ ببيعها. واحد منها، وهو ذلك الذي كان الأول بينها، بدأ شغله طافحاً بالأكياس الكبيرة والصغيرة يعبّئها صاحبه من الفحم المكوّم أمام بابه. محل آخر بلغت أباريقه الفخّار حدّ الطريق فصارت السيارة التي تتوقّف لتشتري منه توقف سيل السيارات وراءها. آخر كان يعرض حيوانات وطيوراً محنّطة ثبّتت قوائمها بالمسامير على قطع الأخشاب التي تحملها. آخر سواه اختصّ ببيع جلود الخواريف التي يدفئ صوفها القاعدين عليه. وهناك، وراء صفّ المحلات الطويل، ووراء البيوت الضيّقة الملحقة بها، ارتفعت بنايات من ثلاثة طوابق أو أربعة لسكن الواصلين الجدد، أولئك الذين يأتون عائلات منفردة لا تعرف أحداً ولا يعرفها أحد. نحن، أنا ورفاقي، وكذلك أنا وأخي، رحنا نسميها البيوت التي وراء المحلات لأننا لم نعرف من هم أصحابها وإن كنا نظن أنهم أولئك الذين عمّروا البنايات الكثيرة هناك عند الهضبة التي تعلو الزهرانية وربحوا أموالاً كثيرة منها. «إنها مطلة على البحر أكثر مما هي بيوتكم»، صرت أقول لرفاقي قاصداً أنهم لم يعودوا وحدهم في ذلك. وكان ما أقوله يحنقهم وذلك، أولاً، لكرههم كل من يأتي إلى الزهرانية ويقيم فيها.

«إنهم يطلّون على البحر ولكنهم لا يستطيعون الوصول إليه»، كان يقول لي ميخا الذي كان أكثرهم كرهاً لازدحام الزهرانية بالناس، «أولئك الذين لا يعرفون هم أنفسهم من أين جاؤوا»، كما كان يقول. الآن أعرف، بعد انقضاء كل هذه السنوات، أن أهل ميخا، ومثلهم أهل رفاقي الآخرين، ربّما كانوا قد تحسبوا لامتلاء الزهرانية بالناس فبنوا بيوتهم، بيتاً لصق بيت، لكي لا يتركوا مساحة خالية ينفذ منها أحد. منذ أن وصلنا أنا وأخي لم يتغيّر شيء في الجهة السفلى من الطريق، على رغم انقضاء السنوات العشرين. حتى أنني الآن، كلما نظرت إلى بيوتهم، أجد أنني أنظر إلى شيء قديم بلي وتخرّب لكثرة ما ظلّ على حاله لم يتغيّر.

هذا مع أننا، أنا وهم، كنا نتسلى بمشاهدة أولئك الذين ينزلون من البيوت ونروح نصفهم بأوصاف نتبارى في قولها. كنا ننتظر مرورهم من حيث نقف، على الطريق بين محلنا والبيت الأخير من بيوتهم حتى نصير نسأل بعضنا بعضاً إن كانوا سيقولون شيئاً لنا أو أنهم سيكملون طريقهم كأنهم لم يشاهدونا. «كلّمهم أنت، قل لهم شيئاً»، يقول لي جوزف الذي تبديه هيئته مستعجلاً على الدوام كأنه، حتى من قبل أن يمروا بمحاذاتنا، سيخبط كفّاً بكفّ مفهماً إياي بأنهم مروا ولم نقل لهم شيئاً.

«كلّمه.. كلّمه.. قل له شيئاً»، كان يقول لي موسعاً عينيه مندهشاً كلما رأى رجلاً يسير بمفرده، ذاهباً إلى أبعد من حيث نقف، كأنما ليستطلع تلك المسافة التي كنا نحسب أن عندها تنتهي الزهرانية. «قال لك أن تكلمه»، يقول ميخا بنظرته المتفحصة التي يوسع لها عينيه إلى آخر ما يستطيع.

كانوا ينتظرون وقت الغروب حتى يخرجوا من بيوتهم التي لا نعرف ماذا يفعلون فيها طيلة ساعات النهار. لم يجدوا شيئاً يفعلونه في الزهرانية غيرالسكن في البيوت. كان أخي يقول لي إنهم يعيشون من رواتبهم في وظائف تعفيهم من الحضور إلى مكاتبها، أو من إيجارات بيوت يملكونها، مقرباً إياهم بذلك من رجال الزهرانية الكبار الذين لشدة بقائهم في البيوت صارت عاداتهم لا تختلف عن عادات نسائهم. إنهم يحبون أن يصلوا إلى هنا حيث تنتهي الزهرانية، كان يقول لي أخي الذي يقف منتظراً، عند باب محلنا، ليعرف إن كان المتنزه منهم سيلقي عليه تحيّة.

«هل رأيت ذلك الرجل الذي يمشي متأخراً عن زوجته»، يسألني، أو يقول لي إن الرجل الذي أطال النظر إلى واجهة محلنا عاد اليوم مع رجل آخر يشبهه. «لو كنا نبيع خبزاً أو لحمة لأتوا إلينا جميعهم»، يقول كأنما يحادث نفسه ويسألني، في الوقت نفسه، سؤالاً لا ينتظر جواباً عليه. ثم يروح يستطرد أنه رأى كثيرين منهم عند بائع اللحمة مرتدين ثياب البيوت ذاتها ويكلمون بعضهم بعضاً كأنهم يتواعدون على شيء.

«ذلك الشاب الأشقر ألم تره بعد»، قال لي. في الليلة التي سبقت جعل يصفه في هيئة المصارعين، أولئك الذين نشاهدهم في الحفلات التي يعرضها التلفزيون. «هو مثلهم تماماً لكن لا يبدو عليه أنه يحبّ أن يقاتل أحداً».

* * *

ولا أعرف إن كان أخي قد توصل إلى شيء في السهرات التي كان يقضيها وحده في البيت. لا أعرف إن كانت زوجة أبو عاطف

قد قرعت بابه مرة، هي التي تشعر بأنه ينتظر منها ذلك. أجده نائماً حين أعود، فاتحاً خشب نافذته ومشرعاً بابه المؤدي إلى الشرفة. كنت أفكِّر أنه سئم الانتظار كعادته، بل وسئم أيضاً صور التلفزيون الذي كان يشاهده. تلك الخطوة لم يكن هو من يمكن أن يقوم بها على أي حال. كان ينبغي أن تخطوها هي، لا لتبدّد خوفه من إمكان صدّها له فقط، لكن أيضاً لكي تواطئه على أن ما سيجري بينهما لن يدري به أحد.

وأكثر ما كان ينتظره، أو ما ينتظر من قدومها إليه، إن فعلت، هو اعتبارها أن ضخامته وسمنته لا تحيدانه من بين مَنْ ترغب النساء بهم. كان ينبغي أن تأتي هي إليه ما دام أنها عرفت ماذا يريد. خصوصاً وأنها لن تشعر بأنها ترتكب معصية من ذلك، حيث، في البيت الذي هي فيه، لا يحق لأحد أن يحاسب غيره على شيء.

ولم يفلح رجل المارسيدس البيضاء إلا في زيادة إرباكه. «هناك هو. . تلك سيارته. . أنظر. . أنظر» أقول له فيروح ينظر، حاجباً بيده ضوء الشمس عن عينيه، ويقول لي متعمداً اللامبالاة: «أين هي. . تلك البيضاء التي هناك؟» لا. . لا. . لقد ابتعد، أجيبه، «لكنه، على أي حال، سيعود مثلما يعود في كل مرّة».

وأعرف أنه كان يصدقني، على الرغم من أنه لم يحظ بتأكيد واحد على أن الرجل موجود، هو وسيارته. لقد صببته في رأسه صبّاً، مثلما تُصبّ التماثيل وهو، لا بدَّ، راح يتخيّله في هيئة، بل وربما في حركات، بل وفي نظرات يطلقها من وراء مقوده إلى الشرفة فوقه، مستعجلاً نزولها أو محتجاً على تأخرها عنه.

حتى أنه كان يذكِّرني به حين يمرّ يومان أو ثلاثة أيام على نسياني له: «ألم يأتِ؟»، يسألني هكذا مفاجئاً إياي لثوان أعرف بعدها أنه يسألني عنه. «أنا لم أشاهده»، أجيبه، «هل شاهدته أنت؟». لا بدَّ أن سيارات بيضاء كثيرة عبرت في ذينك اليومين، سيارات لا تختلف عن السيارة التي كان ينتظرها، لكن هذه أيضاً لم تكن تزيده إلا ارتباكاً وحيرة. حتى أنني خطر لي أن أجد طريقة أخلّصه فيها من ذلك الرجل، كأن أقول له مثلاً أنه لم يعد يأتي أبداً. . أو أنه يئس من انتظار نزولها إليه فأكمل طريقه للمرة الأخيرة.

* * *

ليس أنه يشبه المصارعين فقط، بل أن جسمه كان يبدو أكثر قوّة من أجسامهم. كنا واقفين أنا ورفاقي حيث نقف كلَّ يوم حين تقدم نحونا أخي، قاطعاً نصف الطريق في اتجاهنا. كان يريدنا أن نرى الشاب القوي قبل أن يخطر له أن يوقف نزهته هناك. لكنه تابع مسيره، وحده، في الطريق التي كانت خالية من السيارات. وحين وصل إلى حيث يقف أخي، في أعلى الدرجات الثلاث، لم يلتفت، كما لم يلتفت إلينا بعد تلك الخطوات. برغم ثقل عضله، كان يبدو خفيفاً في مشيه كأنه ينقر الأرض نقراً بقدميه. إنه يتمرّن، قال جوزف بصوت لم يسمعه سوانا. وقد خطر لي أنه لم يكن ليلتفت ناظراً إلينا، حتى لو سمع. «رأسه مثل جوزة الهند»، قال طوني مكوّراً كفه ليوحي بشكل جوزة الهند وصغر حجمها. هذا من كثرة العضل على كتفيه، علّق جوزف.

وقد عرفتُ لماذا قال عنه أخي إنه لا يحب أن يقاتل أحداً.

كان وجهه، بل ورأسه كله، لا يختلف عن وجوه التلاميذ الكبار ورؤوسهم، أو عن رؤوس ووجوه الموظفين. من كان شعره أشقر هكذا، ومفروقاً من جانبه، يصعب أن يكون مثل أقوياء الأجسام الذين لم يقوّوا أجسامهم إلا ليخيفوا الناس بها. «كلّمه. . كلّمه»، قال لي جوزف مثلما يفعل كلما رأى أحداً لا نعرفه يمرّ من أمامنا. «إذهب وكلمه»، قال لي مرة أخرى فيما كان الشاب يبتعد راجعاً إلى بيته الذي لا نعرف أين هو في البنايات التي عمّروها وراء المحلات. «زنده أثخن من رأسه»، قال طوني معلقاً، مرة أخرى، على صغر رأسه. وإذ صار الشاب بعيداً عنا، ولن يسمعنا حتى لو كلّمْنا بعضنا بعضاً بأصوات عالية، جعل أخي يلوّح لنا بيده لكي نأتي إليه. «كيف رأيتموه؟»، قال متلهفاً ليسمع شيئاً. وكان يريد أن يسمع كثيراً، هكذا كأنه هو الذي أحضر الشاب إلينا لنراه.

«رأسه صغير»، قال طوني:

لكنني، من أجل أن لا أخيّب أخي، قلت إن جسمه رياضي أكثر من أجسام المصارعين في التلفزيون.

أجابني أخي إنه لا يصارع، من كان مثله يمشي هكذا من دون أن يحرك حتى يديه لا يكون مصارعاً.

* * *

اسمه مروان، قال لنا أخي الذي، لمرة وحيدة ربما، تقدّم باتجاه الشاب وسأله إن كان مقيماً هنا لوحده في الزهرانية. اسمه مروان، قال، ثم أضاف أن كتفيه وزنديه يظهران كم أن الدم الذي يجري في جسمه قويّ وكثير. كأن الدم لا يجري في شرايينه، قال

أخي، بل يمشي هكذا تحت طبقة الجلد كله، فالتاً وطافحاً وجاعلاً لون الجلد الرقيق زهرياً ومائلاً إلى الحمرة. «سيأتي غداً ويجلس هنا عندنا في المحل»، قال مبدياً حماسة لا أعرف إن كان قد أبداها لأحد أو لشيء من قبل. «كن هنا»، قال لي، «سيمرّ في وقت ما رأيتموه أنت ورفاقك».

ولولا أنني لا أحب أن أقول شيئاً عن أخي لرحت أصف لهم كيف تخيّلت ذلك الشاب، مروان، جالساً مستقيم الظهر على الكرسي في وسط محلنا، وأخي يقف قريباً منه محدّقاً فيه من دون أن يقول أحدهما كلمة للآخر. غير أنني، سررت لأن يجد أخي أحداً ينتظر قدومه. «كن هنا أنت ورفاقك إن شئت»، قال لي: «... في وقت ما مر من هنا في المرة الماضية».

* * *

حتى نزيهة، التي يزيد عمرها عن عمر أخي، كنت أراها جميلة بشعرها القصير حتى أعلى رقبتها والذي يصل طرفاه المقصوصان إلى منتصف خديها. حتى هي كنت أنظر إليها، بل وأكلمها، كأنني أنتظر أن يحدث لي شيء معها ذات يوم. هي نظرتي التي تبديني مهتماً ومتنصلاً في الوقت ذاته، راغباً في أن أقول شيئاً لكنني لا أقوله. هي النظرة التي أستطيع أن أبدّلها، أن أجعلها تعني شيئاً آخر وذلك من دون أن أزيحها عما تنظر إليه. بل وأستطيع أن أجعلها متفحّصة، بل ومتحرّشة، مبقياً مع ذلك على التنصّل والحياء اللذين لا ينبغي لي إغفالهما. هناك على البحر أيضاً، حول بركة السباحة، أستطيع أن أكون كذلك مع البنات اللواتي بقيت حائراً بينهن أجد في كل واحدة ما يجعلها أقرب من

صاحباتها إليّ. في مرة أقول برناديت إذ ظلّ عالقاً في رأسي ركضها، ضاحكة، فيما هي تفرّ من رشّهم لها بالماء. في مرة أخرى أقول لبيبة، التي يدعونها بيبي قاصدين بذلك جسمها الصغير لكن الجميل كله مع ذلك، أو أقول، في مرة أخرى، إنها رينيه التي أبقيتها في رأسي مستلقية على كرسي البحر الطويل مرخية ساقيها ورافعة ذراعيها الاثنتين إلى حافة الكرسي العالية. لكل واحدة أجد سبباً يدعوني إلى أن أقول هي. لكنني، بعد لحظة من ذلك، يأتيني تذكّر الأخريات ليتركني هكذا حائراً مقلّباً في رأسي وجوهاً وأجساماً، وأسماء أيضاً.

وسيكون على عينيّ الناظرتين تلك النظرة أن تتنبّها أيضاً إلى ما حولهما، إلى أين هو جوزف مثلاً، وهل يقف ميخا في مكان يمكنه أن يرى وجهي فيه من دون أن أكون أنا متحسّباً له. حتى طوني، الذي هو أقربهم إليّ، والذي يأتي لوحده إلى محلنا في وقت ما نكون قاعدين أنا وأخي، سيرتاب بي بل وسيفكّر أنني لا أخرج معهم إلا لأصل إلى البنات قريباتهم. «إذهبن. . إذهبن»، يقول لهن جوزف ليبعدهن عنا، متظاهراً بكوننا، نحن الشباب، سنتكلم في أشياء لا ينبغي لهنّ أن يسمعنها، أو ليبدو أنه ملّ من وجودهن ومن عقولهن الصغيرة كما كان يقول عن جنس البنات كله. «إذهبن إلى هناك»، يقول لهن فيما هو يحرك يديه الاثنتين كأنه يدفع بهن، واحدة بعد واحدة، من مؤخراتهن.

وإذ يبدأ، فور ذهابهن، الكلام الذي كان هيأه لواحدة من البنات النازلات على البحر، منفردة من دون أحد معها، أصير أفكّر كيف أنّه يؤثر التكلم الفاحش عن البنات على مجالستهن أو

اللهو معهن. وكنت أنا أقول له ذلك لكن بطريقة أبدو فيها كأنني أمازحه فقط. «أنت قوي من بعيد»، أقول له، ملمحاً إلى أنه، إن اقترب من البنت التي يتكلم عنها، أو إن اقتربت هي منه، سيخاف ويقف صامتاً. وكان ميخا يكمل من بعدي فيقول عن جوزف إنه قويّ بلسانه فقط، قاصداً أنه يحلّ لسانه محل عضوه. وأنا، إذ أجد ذلك أكثر مما يُنتظر من ميخا، أكون أعرف أن جوزف لن يعرف بماذا يجيب وأنه، لذلك، سيلجأ إلى طرف من أطرافه، يده أو رجله، لينهر ميخا أو ليلطمه.

ولن يردّ ميخا على ما يأتيه. ولن يبتسم مع ذلك ليبدو أن اللطمة هي من قبيل ردّ المزاح. لكنه يروح يتحسب لأن يكرر جوزف لطمه من جديد فيبتعد بجسمه مسافة عنه، ثم يقوم بعد ذلك ماشياً إلى اتجاه البنات اللواتي، بعد أن ينظرن إليه، يرحن ينتظرن ذهابه لكي يكملن ما كنّ يتحادثن به. أو يُضحكن أنفسهن بأن تقول واحدة منهن شيئاً لا يفهمه ميخا ولا يعرف ماذا هو.

«تعال، لا أحد يريدك»، يقول له جوزف ممازحاً ومصالحاً. لكن ميخا لن يعود إلا بعد أن يمشي مسافة بمفرده على حافة بركة السباحة، مفكراً في أن ينزل إلى مائها. «إنها باردة.. تعال»، يقول له جوزف فيما هو يتهيأ لأن يقوم ويتوجه بعد ذلك، متجاوزاً البنات، إلى حيث يقف ميخا متردداً. «أتركه، هذه المرة سيزعل»، أقول له لكن من دون أن أكون راغباً أن يطيعني. وحين يستدير جوزف بعد ذلك ليصير في الجهة التي أدار ميخا وجهه عنها، تقول البنات، لكي يلهينه عما سيحصل له: ميخا.. ميخا، وذلك في اللحظة ذاتها التي تدفعه رجل جوزف إلى الماء.

ويعرف جوزف، كما نعرف نحن، أنّ ميخا لن يستطيع أن يردّ بشيء، فقط تلك النظرة العابسة التي تبديه كأنه يفكّر في إضافة ما لحق به إلى ما سبق له أن جمّعه في رأسه، كأنما من أجل أن يردّ على كل ذلك مرة واحدة، ذات يوم. «إنه يكرهني الآن»، قال جوزف للبنات اللواتي تقدمن إلى حافة البركة ليضحكن. ولم ينظر إليهن ميخا من حيث هو في الماء، عابساً يغطّي الشعر جبينه وأذنيه، إذ لم يزح نظره عن جوزف كأنما ليفهمه أنه سيردّ عليه وإن كان لن يفعل ذلك الآن.

ولن يعود ليجلس معنا. سيظل وقتاً في بركة السباحة، هناك عند طرفها، مديراً ظهره لنا. يحتاج إلى وقت لكي يعرض نفسه لمشاهدتنا خارجاً من الماء. وحين يبدأ خروجه متسلقاً درجات السلم، يظل مديراً وجهه حاجباً إياه عنا وعن البنات اللواتي ضحكن عليه مرمياً في الماء. ولا يعود جوزف إلى مصالحته حين يراه جالساً بمفرده وناظراً إلى من يكونون تحت أقرب مظلة إليه، بل ومحدقاً فيهم، كأنه بذلك يستعدّ إلى أن ينضمّ إليهم.

أما أنا فأروح أنتظر البنات ليأتين، واحدة بعد واحدة، ويقلن لجوزف أن يعتذر له عما فعله به. ولا أكرر ما قلنه من بعدهن لئلا أبدو متقرباً إليهن. ولا يكتفي جوزف بأن يردهن عنه بأن يقول إن ميخا سيأتي بعد قليل راضياً لوحده، بل يصير، فيما هو يقول لهن أن يتركنه، يدفع رجله باتجاههن، مستعيضاً بها عن حركة يده. لا يهمّه أن يظهر أمامهن في الهيئة التي يحبّ البنات أن يرينها في الشباب. كأنه لا يريد شيئاً منهن ولا ينتظر أن يحصل له معهن شيء. وليس هو وحده في ذلك، بل الآخرون أيضاً، الآخرون

جميعهم الذين ينزلون إلى البحر من أجل أن يتفرجوا على البنات المتوزّعات حول بركة السباحة، البنات اللواتي لا يعرفونهن لكي يستطيعوا أن يقولوا عنهن الكلام الفاحش، ذاك الذي أجد، أنا أيضاً، أن قوله لا ينطبق على البنات قريباتهن. فيما كنت أنقّل نظري بينهنّ، واحدة بعد واحدة، كنت أحبّ فيهن أشياء لن أكون فاحشاً إن وصفتها، بالكلام، بيني وبين نفسي. أشياء مثل الطريقة التي تلتفت بها لبيبة، كأن يهتزّ شعرها الناعم الأملس فيما هي تدير وجهها في اتجاه الصوت الذي أتاها من وراء الكرسي التي تستلقي عليها. أحب حركاتهن بقدر ما أحبّ وجوههنّ وأجسامهن. الحركات التي تُظهر في كل واحدة منهن ما يلائمها ويجمِّلها. وهذه لا يراها جوزف فهو لم يكن ليدفع رجله هكذا في اتجاههن ليبعدهنّ عنا، ولم يكن ليتكلّم هكذا عن البنات الأخريات، محدقاً فيهن ورافعاً صوته فيما هو يتحدث عنهن، إن كان يرى تلك الحركات أو يفهمها.

* * *

على رغم أن توافد القادمين إلى الزهرانية لم يتوقف ظلَّ المبنى الذي نحن فيه آخر الأبنية لا شيء بعده. المسبح الذي كنّا ننزل إليه، وهو وحده الذي يتلونا، لا يُرى من الطريق وهو، على أي حال، يقع في الجانب الذي هو جانب بيوتهم. من طرف شرفتنا التي تعلوها الهضبة، كما من نافذة الغرفة التي ينتقل إليها أخي حين تمتلئ غرفته بهواء نَفَسه الساخن، ما زال المشهد هو ذاته لم يتغيّر من يوم أن وصلنا. تلك الغرفة المبنيّة بالحجر القديم والمتهاوي سقفها إلى داخلها، لم تزل في مكانها، هي

وحجارتها، على بعد حوالى خمسين متراً منا. وهناك، في آخر المشهد، ما زالت ترتفع تلك السحابة السوداء من معمل الكهرباء الذي لا يُرى شيء من بعده. كأن المبنى الذي فيه محلنا وبيتنا، بضخامته ولون إسمنته الكالح العتيق، يضع حداً يعيّن بداية الزهرانية، أو نهايتها. أولئك الذين قدموا للسكن وراء صَفّ المحلات الطويل كانوا يعبرون من أمام محلنا، سائرين إلى الأمام، وإذ لا يجدون شيئاً هناك، يستديرون عائدين إلى حيث البنايات والمحلات.

ولا يخرج هؤلاء للتمشّي إلا قبيل الغروب، حين تبرد الشمس وتقلّ السيارات حتى لتكاد الطريق تخلو منها. نكون نحن نتهيأ لنقفل محلنا عند ذاك لكننا نروح نتباطأ في ذلك لأنّ أخي يحبّ أن يتفرج على الماشين، واقفاً على باب محلنا كأنه ينتظر أن يلقوا عليه السلام. وهو يعرف أنّهم سيكتفون من الالتفات إلى محلنا بالنظر إلى الواجهة، تلك التي يحتاجون أن يطيلوا النظر إليها ليميّزوا بين اللعب التي يشاهدونها مصطفّة، ناظرة إليهم، على الرفوف. «هم لا يشترون إلا ما يحتاجونه لأكلهم»، كان يقول لي أخي فيما هو يقفل باب المحل، أو حين أفتح له باب البيت إن كنت قد وصلت من قبله إلى هناك. أو يقول إنهم جلبوا لعب أولادهم معهم، تلك التي لن يستبدلوها بأخرى جديدة طالما أنهم لا يعرفون كيفَ سيكون بقاؤهم هنا وإلى متى سيطول. ذاك أنهم، أولئك الذين أقاموا في البنايات خلف صف المحلات الطويل، لم يأتوا إلى الزهرانية ليقيموا فيها، بل لينتظروا الوقت الذي يعودون فيه إلى بيوتهم. وهم لذلك اكتفوا بالقليل من كل شيء. من ثيابهم

اكتفوا بما يمكن أن يُلبس في داخل البيت وفي خارجه، حين يقصدون تلك المحلات التي تبيع خضاراً ولحمة منتظرين أن يحين دورهم فيها، ومن الأثاث لم يحضروا معهم إلا القليل الذي يكفي لنومهم وجلوسهم. بل أن هناك من أتوا هكذا من دون أن يحملوا شيئاً معهم. «بل شهراً واحداً» يقولون لصاحب المبنى الذي يُصرّ على أن يدفعوا له أجرة ثلاثة أشهر. وإذ يصرّ هو على ما قاله يفكّرون أنهم مجبرون على أن يدفعوا ثمن إقامةٍ ربما لن يكونوا في حاجة إليها. بل ندفع شهراً ونصف الشهر يقولون فيما يشبه أن يكون رمية أخيرة يعرفون أنها لن تصيب، فالذين أتوا اليوم لن يعودوا إلى حيث كانوا. ثم أنّ آخرين سواهم سيأتون غداً ما دام أن حاجة الناس للهرب من بيوتهم لن تتوقف.

يدفعون أجرة الثلاثة أشهر كاملة وذلك لظنّهم بأن تردّدهم سيبعد صاحب المبنى عنهم ويذهب إلى مستأجرين آخرين ينتظرونه. لا يطيقون العودة إلى حيث كانوا، ثم أن تعبهم يلحّ عليهم بالبقاء حيث هم، ناظرين إلى البحر من النافذة التي يفتح لهم صاحب المبنى درفتيها. «هنا لن تسمعوا شيئاً»، يقول، عارفاً بحاجتهم إلى التمدّد على الصوفات التي وزّعها في غرف الجلوس ذات النوافذ الواسعة.

* * *

من حيث نحن، من بيتنا ومحلنا، كانت الزهرانية تكبر وتكتظ من جهة واحدة. وقد بقينا نقف، أنا ورفاقي، حيث اعتدنا أن نقف ومن دون أن يتغيّر شيء من حولنا. بل أن ما كنا ننتظره من سفر أبو عاطف لم يحصل منه إلاّ القليل على شرفة بيتهم

الواسعة. فسريعاً ما عاد الأولاد إلى حيث اعتادوا أن يكونوا، هناك في الغرف المشرعة أبوابها بعضها على بعض. ليس إلا سلمى التي، هي أيضاً، صارت لا تمكث طويلاً في مكانها ذاك، عند زاوية الشرفة التي تستطيع أن تلعب فيها لعبة الظهور والاختباء. وأيضاً زوجة عاطف التي تظهر لثانيتين تكفيانها لكي تلتفت إلى اليمين ثم إلى اليسار، ثم إلى الأسفل قبل أن تستدير عائدة إلى الداخل. لكن جلبتهم لم تخفّ، ولن تخفَّ كما كان يقول لي أخي، حيث أنهم يحتاجون إلى أن يجدوا لهم منفساً في البيت الذي لا يتسع لهم. وقد وجدوا ذلك في الفسحة التي بين بابهم وبابنا، وعلى الدرجات التي تنحدر منها،كما على الدرجات الصاعدة، من قرب بابنا، إلى سطح المبنى الخالي. وأنا كنت أجيب أخي بأنهم ضمّوا فسحة المدخل تلك إلى بيتهم الذي باتوا يبقون بابه مفتوحاً. صرنا نمرّ من بينهم كلما خرجنا، أنا أو أخي، كما أننا نجدهم هناك كلما صعد أيّ منا إلى البيت. ولم يفد الباب المفتوح أخي في شيء وربما بدا له أن الأولاد يظلونَ هناك من أجل أن يحرسوا بيتهم ويمنعوه من النظر إلى داخله. وأنا صرت كلما نزلت إلى محلنا من بعده أقول له شيئاً عن جديد ما يفعلونه. هل رأيت البسكلات؟ أسأله من أجل أن يجيبني أنه شاهدهم عند نزوله يتعلقون بها ويسوقونها في تلك المسافة القليلة بين بابهم وبابنا. أو أقول له إنهم بدأوا بالطبخ مبكرين اليوم وأنهم وضعوا في ما سيأكلونه بصلاً كثيراً. كان قد توقف عن انتظار تلك الخطوة، أو أنه خفّف من ترقبه لحصولها وصار يكتفي، في أثناء عبوره من أمام بابهم، بتلك النظرة السريعة التي لا تزيد عن نظرته

إلى أول الدرج، حيث سيضع قدمه بادئاً نزوله. وفي المرات التي يراها واقفة هناك، في المحل ذاته الذي كانت تقف منتظرة فيه من قبل أن يسافر زوجها، يظل جالساً حيث هو في داخل المحل، أو مكملاً نفض الغبار عن اللعب بمنفضة الريش. ولا يلتفت إليها إلا لكي يعرف إن كانت ما تزال حيث هي أو أنها غادرت.

كأنهم تركوا الشرفة لأبو عاطف ليجدها خالية له حين يعود. ذلك الظهور القليل لسلمى كان يبقينا منتظرين عودتها إذ تبدو لنا كأنها لم تفعل الشيء الذي خرجت لكي تفعله. ستعود. . ستعود، كان يقول جوزف في كل مرة يستبقينا. وهي، إن عادت، فلوقت أقلّ تبدو فيه كأنها تبحث عن شيء تركته هناك في خروجها الأوّل. «يلزمنا تيسير»، صار يقول جوزف بعد أن يخيب توقّعه. «أين هو تيسير»، يقول فيما هو يستعد ليخرج نكتته: أين هو ميلاد، أحضروه لكي يذهب إلى هناك ويأتينا بتيسير.

وكان ميلاد هو الذي ارتاب من وقوف تيسير مبتعداً عن الطريق مسافة لا يستطيع معها أن يرى مجيء الباص ليوقفه ويصعد إليه. «لا أقل من ١٥ متراً»، قال ميلاد محاولاً أن يعيّن موقع تيسير ذاك مما يعلوه من بيت أبو عاطف. «فكّر الأهبل أننا سنظن أنه ينتظر الباص»، قال ميلاد فيما هو يروي لنا، وبجانبه طوني، ماذا رأى بعينيه. أليس كذلك؟ كان يسأل طوني كلما قال شيئاً، فيجيبه طوني بهز رأسه، أو بإشارة من إصبعه يدلّ بها على المكان الذي ذكره ميلاد. «هنا كنت»، قال طوني ماذّاً إصبعه إلى وسط الدرب الصغيرة النازلة إلى بيته، معقّباً على قول ميلاد: «رأيت طوني فمشيت خطوات إلى الأمام لكي يراني هو وأهزّ له يدي

ليجيء معي». لم يكن تيسير ناظراً في اتجاه الطريق تلك المرة، بل كان مستديراً كله، «هو وأقفاصه»، بحسب ميلاد، في اتجاه شبّاك بيت أبو عاطف. «تعال طوني.. تعال.. أسرع»، قال له ميلاد. وقد كانا مسرعين كلاهما فيما هما يسيران، بل يهرولان، إلى حيث يمكنهما أن يشاهدا ماذا يفعل تيسير هناك. «لأنني شاهدته مسطّلاً، وفاتحاً فمه وراخياً بيضه»، قال ميلاد مقاطعاً نَفْسَهُ. «لم نستطع أن نرى شيئاً من تحت الطريق، ولا من فوقها بعد أن قطعنا إلى الجهة الأخرى». كان ميلاد يتقدم ليلحق به طوني، مسرعين ومُحنيين ظهريهما مثلما يفعل الصيادون حين يتقدمون إلى ما سيصيدونه. «كما لم نشاهد شيئاً من وراء الصخرة الكبيرة هناك. لكننا، حين مشينا إلى ما قبل منتصف التلة، شاهدناها»، قال ميلاد (وقد أيّده طوني بهزة قوية من رأسه)، «واقفة وراء النافذة، كاشفة عن ثدييها ليراهما تيسير».

ـ كبيران؟ سأل ميخا:

ـ كبيران؟ أعاد ميلاد لميخا سؤاله مهيّئاً نفسه للإجابة: قل له يا طوني، قل له إن كانا كبيرين.

وبدلاً من أن يجيب، باعد طوني بين كفيه المفتوحين ليبدو كأنه يشير بهما إلى شيء في حجم بطيختين.

ـ ولونهما؟

لم يجب ميلاد عن هذا، إذ لو فعل سيقول له ميخا: وكيف رأيت لونهما من ذلك البعد؟ لكنه، بدلاً من ذلك، راح يصف كيف كانت سلمى ترفعهما بيديها الاثنتين، «واحداً باليد هذه

وواحداً باليد هذه»، كأنها تقرّبهما لتيسير أو كأنها، من حيث تقف في الأعلى، تعطيه إياهما ليرضعهما.

ـ وتيسير؟

ـ من هناك لم نره إلا من ظهره، قال طوني. .

وكان طوني سيزيد شيئاً على ذلك لو لم يأخذ ميلاد الكلام عنه ليقول بأن تيسير كان واقفاً مثل لوح، لا بدَّ، إذ أنّه كان متهيّجاً ومهبّلاً في الوقت نفسه، فاتحاً فمه مثلما حين رآه واقفاً تحت النافذة ورافعاً رأسه إلى الأعلى.

ـ لكن كيف أنها لم تنتبه لكما أنت وطوني، قال جوزف متدخّلاً ومشككاً في ما يقولانه.

ولمّا استعد طوني ليقول ما يؤكد كلامهما، أسكته ميلاد: أتركه. . أتركه. .

ـ أتركه؟ رددها جوزف مرة واحدة كأنه يسأل نفسه إن كان هو المقصود بها حقاً.

وهو سكت لأنه كان يعد نفسه بأن يتحقق من ذلك بمفرده. لهذا لم يُطل الرد على ما قاله ميلاد لطوني. بل أنه كان يستعجل تفرقنا وذهابنا كل في اتجاهه، لكي يعود إلى حيث كان ميلاد حين رأى تيسير واقفاً رافعاً رأسه إلى الشرفة التي تعلوه، كما إلى وسط التلة، ذاك الذي أشار إليه طوني بتكرار توجيه إصبعه إليه. إن فعلاها مرة سيفعلانها مرة ثانية، كان جوزف يفكِّر مغتاظاً كيف أن ميلاد وطوني حققا سبقاً عليه، ومهتاجاً لرؤية الثديين عاريين حتى من ذلك البعد.

وأنا عرفت أنه سيعود من فور تفرّقنا ليعرف، حين سيأتي غداً، كيف يمكنه أن يجد مكاناً أقرب إلى النافذة من ذلك الذي اختبأ فيه ميلاد وطوني. وهو سيكون هناك، قاعداً فيه، من قبل أن يصل تيسير إلى حيث سيقف، مديراً ظهره إلى جوزف المتربص به، ورافعاً رأسه إلى النافذة في الأعلى.

* * *

أماكن السكن التي أقيمت من بعد مجيئنا أنا وأخي ظلّت تتسع وترتفع إلى جوارها أبنية جديدة. لم يبق على حاله إلا حيّنا، كما صرنا نسميه، جامعين بذلك بيت أبو تيسير، أو قلعته، إلى المبنى الذي نحن فيه وبيوت رفاقي وأهلهم التي إلى جهة البحر. حتى أننا كنا منفصلين عن أولئك المزدحمين من جهتهم، وليس فقط من الجهة التي تنتهي عندها دواخين معمل الكهرباء. قطعة الأرض الواسعة تلك، التي تفصلنا عنهم، ظلّت خالية يغطيها الرمل وحده، الناشف الذي حمّصته الشمس. كأن شيئاً ما لا نعرفه كان يمنعهم من أن يوصلوا بناياتهم إليها. ولم يصحّ أبداً توقع أخي الذي ظلّ يقول إنهم سيأخذونها لا بدَّ، طالما أن الناس الهاربين من الحرب في مناطقهم يغادرون بيوتهم ولا يجدون مكاناً ينتقلون إليه إلا الزهرانية. البنايات التي أقيمت وراء صفّ المحلات الطويل تقدمت مسافة أخرى إلى الخلف، فقد ارتفع وراءها صفّ بنايات آخر. بل أنها بدأت تقيم صفاً ثالثاً منها كانت قد ظهرت منه ورشتان أو ثلاث حين وقعت تلك المقاتلة الأولى بين أصحاب المحلات في الأسفل وأولئك الذين تكاثروا في البنايات والطرقات نازلة بيوتهم ومحلاتهم من أعلى الهضبة إلى أسفلها. لم يعجبهم

أن تتقدم البنايات الجديدة إلى الأرض الخالية الملتصقة بهضبتهم، وهم كانوا قد ضمّوها إليهم بأن شقوا في وسطها طريقاً ظلّت غبراء غير معبدة، لكن يمكن لها أن تعيّن الحدود التي تفصلهم عن سواهم. ومن أجل أن تكون الطريق تلك طريقاً حقيقية وليست مجرّد خط رسموه، راحوا يسلكونها بسياراتهم، القديمة المخلعة، ثم يعودون من أعلاها راجعين إذ أنها لا توصل إلى شيء. بل أنهم بدأوا ببناء أساسات ضيقة المساحة في أسفلها لبناء صغير هو أقل من أن يكون بيتاً، لكنه، مع ذلك، يكفي ليوقف تمدّد أصحاب المحلات إلى الخلف.

الذي قام بتخريب تلك الأساسات كان رجلاً بمفرده ولا أحد معه. ولم يكترث بأن يُستدلّ من قرب محله وبيته إلى الأساسات تلك على أنه هو الفاعل. بل أنه، فيما هو يزيح حواجز الخشب عن الباطون الذي كان ما يزال طرياً، لم يلتفت لا إلى الأمام ولا إلى الوراء ليتبيّن إن كان يشاهده أحد. وإذ خلا الباطون مما يحجزه صار مثل وحل متيبّس راح الرجل يفتته بجزمته الكوتشوك العالية حتى ركبتيه.

ما فعله ذلك الرجل في أول الليل وصله الردّ عليه في منتصفه. لم يأتوا إليه من بيته الذي كان ينام فيه مع زوجته، بل من محله الذي لا تبعد واجهته وبوابته المقفلة متراً واحداً عن الطريق. حتى أنهم جعلوا يكلّمون بعضهم بعضاً بأصوات عالية فيما هم ينزلون من السيارتين اللتين أوقفتا واحدة بجانب الأخرى، مضيّقتين هكذا عرض الطريق التي كانت خالية من السيارات العابرة على أي حال. «هات الغالون»، صاروا يقولون بصوت مسموع، «هنا. . هنا»

راحوا يقولون فيما هم يوزّعون البنزين على طرفي المحل ويدلقون بعضاً منه إلى داخله، من الشق أسفل بوابة الحديد. وكاد كلامهم وحده يوقظ الرجل من نومه لولا أن سبقته إلى ذلك خبطة الحريق الذي اشتعل فجأة وراح، بعد ذلك، يُطلع أصواتاً غريبة متلاحقة.

كان يمكن للرجل أن يراهم عائدين إلى سياراتهم، مقفلين أبوابها بتباطؤ من أنجز مهمة لا عواقب لها، لو لم يلهه عنهم خوفه من النيران. هاتي الماء.. هاتي الماء.. أين سطل الماء، صار يكلم زوجته حيناً ويكلم نفسه حيناً آخر فيما هو يدور في مكانه لا يعرف ماذا يفعل. أما زوجته فلم تعرف هي أيضاً إن كان عليها أن تقف بقرب الحنفية التي لا ينزل منها إلى السطل إلا ماء قليل أو أن تذهب إلى زوجها لتبعده عن النار الخارجة من شقوق محله. «المصاري..» صار يقول معلياً صوته كأنه، بهذه الكلمة، يصرخ للنائمين في البيوت حوله ليقوموا من النوم.

احتاج الحريق إلى ماء كثير كان يُدلق من الغالونات ومن النباريش التي كان أصحاب المحلات يسقون بها زريعات الأحواض وراء محلاتهم. كان قد ترك غلّة الأمس مستّفة في الجارور الذي ستأكله النيران حتى وإن كان مقفلاً بالمفتاح. أما الخضار والفاكهة فبدأت تطلع روائح شوائها إلى الخارج، حيث بات المتفرجون أكثر عدداً من أولئك المنهمكين بدلق الماء على النار. بعد ذلك راحت تُسمع أصوات المعلّبات التي تفقّعها الحرارة. ولم يجرؤ أحد على أن يفتح باب الحديد الجرار بسبب حماوته وكثرة المسامير التي تشدّ عوارضه إلى الحيطان. كانوا ينتظرون أن ينفتح لوحده منبعجاً قبل أن ينفسخ من وسطه، قاذفاً

النار إلى الخارج. لذلك كان حاملو السطول يفرغونها مستعجلين ليتراجعوا، بعد ذلك، هاربين إلى وسط الطريق.

لكن الحريق اقتصر على محل الرجل ولم يصل إلى المحلات على جانبيه، كما لم تصل إلى بيته الذي عاد هو إليه مع زوجته بعدما تفرّق جيرانه إلى بيوتهم. لكنهم سيعودون في الصباح ليقفوا على الطريق، أمام المحل المحترق كله والذي بات بإمكانهم الدخول إليه ليشاهدوا كيف تكون الأشياء وهي محروقة. وقد تولّوا عنه التفتيش بين المعلبات ليروا إن كان بعضها ما يزال صالحاً، كما في أكياس الخيش الكبيرة المملوءة سكّراً وأرزاً، وكذلك في الأشياء الأخرى التي يبيعها مثل مقصات الأظافر ومفكات البراغي والشواكيش الصغيرة ومصائد الفئران المصنوعة كلها من الحديد. لقد احترقت كلها، كان يقول عن المصاري كلما سأله أحد عنها.

ولم يكن محتاجاً إلى شجاعة زائدة لكي يقول لسائليه إنهم «هم»، مشيراً بإصبعه إلى الأعلى حيث الهضبة، ومحركاً إياه في أثناء ذلك، مثل من يتوعّد أو يهدّد. «هم»، كان يقول، جامعاً من بنوا تلك الأساسات إلى من طلبوا منهم بناءها إلى أصحاب البيوت التي في الخلف إلى ساكني الهضبة جميعهم. ومثل ذلك كان يقول فيما هو يتكلم عن الأساسات التي خرّبها برجليه، جاعلاً أصحابها أهل الهضبة كلهم. سيأتي وقت يبنون بيوتهم فوق محلاتنا، كان يقول. إنهم جراد، يضيف، دالاً على كثرتهم التي ستلتهم كل شيء.

ولم ينجح سعيه لإظهار أن ما جرى هو اعتداء من ساكني الهضبة عليهم كلهم، هم أصحاب المحلات والبيوت التي وراءها،

إذ أنه، فيما هو يكرّر ذلك، لم يسمع أحداً يقول من بعده، «علينا أن نفعل بهم مثلما فعلوا بنا»، أو أن يبدأ آخر بإعلاء صوته سابّاً مهدّداً. بل أنهم صاروا يشغلون أنفسهم بالنظر إلى الأرض أو إدارة وجوههم إلى الجهات الأخرى حين يرون أنه يلحّ عليهم لموافقته على ما يقول. حتى أنهم بدأوا بالتفرق ناظرين قبل ذلك إلى ساعاتهم أو سائلين بعضهم بعضاً، كأنهم انتبهوا فجأة إلى تأخرهم: كم صارت الساعة الآن؟

أصحاب البنايات العالية، وراء صفّ المحلات الطويل، قالوا إن اشتعال أشرطة الكهرباء هو الذي أدّى إلى الحريق. وهم حاولوا أن يؤكدوا ذلك لساكني بناياتهم، أولئك الذين شاهدوا بأم عيونهم تلك السيارات القديمة المخلّعة تسير في صفّ واحد طويل، عابرة من أمام المحل المحترق، فيما هي تطلق زماميرها الزاعقة المتحدّية. كان يكفيهم أن يشاهدوا تلك العصيّ المرتفعة من نوافذ السيارات، أو تلك التي يلوّح بها شبان أخرجوا نصف أجسامهم من تلك النوافذ، حتى يعاودهم الخوف الذي جاء بهم، هاربين، إلى الزهرانية. تلك الطمأنينة التي كانت تتركهم كسالى مرتدين ثياب البيوت ذاتها في الليل والنهار، والتي جعلت أوقاتهم متشابهة لا يختلف أولها عن وسطها عن آخرها، والتي تبطئ حكيهم وتطيل ابتسامهم كلما حيّاهم أحد أو حادثهم، تلك الطمأنينة توقفت في ذلك اليوم فصاروا، في شققهم، يأكلون من أكل البارحة ويكتفون من التنزه بفتح النوافذ والنظر منها إلى ما قد يجري على الطريق. بل وربما أسرع بعضهم إلى فتح الحقائب ليعيدوا إليها ثيابهم وأغراضهم التي كانوا قد أخرجوها منها،

متذكرين أمكنة عرفوها أو سمعوا عنها، ومدركين في الوقت نفسه أنها لن تكون ملائمة لهم مثلما هي الزهرانية.

* * *

لم يستطع جوزف أن يهتدي إلى مكان أقرب يرى منه ما قد يحدث وراء النافذة. وهو، وإن كان قد قام بجولة استطلاع أوصلته حتى إلى حدود بيت أبو تيسير، لم يجد موقعاً أفضل من ذاك الذي اهتدى إليه ميلاد وطوني قبله. من هناك، محتجباً خلف تلك الصخرة، يستطيع أن يأخذ النافذة من وسطها فتظهر له سلمى كلها كأنها تقف أمامه، وذلك على رغم المسافة غير القصيرة بينهما. «من وراء الصخرة، تكون أمامها في خط مستقيم»، قال مخاطباً ميلاد، كأنه يدلّه لماذا اختارا كلاهما ذلك الموضع دون سواه. لكنه، وهذا ما لم يحظ به ميلاد ولا طوني مرافقه، تمكّن من أن يشاهد العرض من أوله، كما قال، وإن كان عليه أن ينتظر ساعات هناك، أو ربما أياماً، ما دام أن سلمى لن تخلع ثيابها في كل مرة ترى تيسير نازلاً من بيته.

في تلك المرة الأخيرة عرف جوزف أن ما ينتظره سيحدث الآن. كانت سلمى قد أطلت من النافذة ثلاث مرات، ناظرة إلى حيث سيظهر تيسير، لا بدَّ، نازلاً على مهله ومثنياً ذراعيه لكي تكون أقفاصه مرتفعة عن الأرض. هو أيضاً كان ينظر إلى النافذة مقرّباً رأسه صوبها. وحين صار على بعد ثلاث خطوات أو أربع منها، أطلّت سلمى لتنظر أين هو، فرآها. وإذ خطا بعد ذلك الخطوات الباقية ليكون وقوفه حيث كان يوم رآه ميلاد وطوني، أدارت هي نظرها في الأرض الخالية أمامها لتتأكد من أن لا أحد

هناك. كانت تعرف أنها ستكشف له عن صدرها، قال جوزف، لكنها لم تكن لتفعل ذلك من فور ما بدأ النظر إليها، منزلاً أقفاصه إلى الأرض. كأنها كانت تسأله أين كنت، أو لماذا لم تأتِ، وكانت تشير له بيدها إلى الأعلى أيضاً، حيث بيته. كما كانت تنفض كفّيها الاثنتين نفضاً كأنما لتقول له «إذهب إذهب أنا لا أريدك». لكنها بعد ذلك صارت ترسل له قبلاتها وتحرّك له رأسها متمهلة كأنها تحبه وتقول له، في الوقت نفسه، ماذا أفعل بك.

«وهو.. ماذا كان يفعل هو؟»، سأل طوني مستدرجاً جوزف لأن يحكي أيضاً عما كان يفعله تيسير على الرغم من أنه لم يكن يرى منه إلا ظهره. «لا شيء»، أجاب جوزف، محسناً التخلص وقائلاً، في الوقت ذاته، ما يمكن أن يكون صحيحاً. هذه فشلت، قلت أنا لطوني لكن كأنني أُفهِم جوزف، مرة أخرى، أنه يتكلّم من عنده إذ كيف يمكن أن يرى، من تلك المسافة، تلك الحركات كلها ويفهم ماذا تعني فوق ذلك. وقد فهم جوزف، وهو ردّ على ذلك بأن دعانا كلنا لنذهب إلى هناك، حيث كان يختبئ وراء الصخرة. «لا.. لا.. أنت نظرك قوي»، قال له ميلاد، معيداً عليه شكّنا في ما نسمعه. لكن ميخا، الذي أراد أن يكمل جوزف ما كان يقوله، سواء كان صحيحاً أو مختَرَعاً، قال، مقاطعاً معابثتنا: «أتركونا نسمع.. أكمل.. أكمل يا جوزف».

ولم يكن جوزف من النوع الذي يُكمل حين يقول له ميلاد أن يُكمل أو حين نروح نحن نكذِّب ما يقوله أو نشكك فيه. ما كان ينتظره منا هو أن نتسابق على استنطاقه موقفين إياه عند كل تفصيل يذكره، فلا نرضى مثلاً بأن يجيب «لا شيء» حين نسأله «وماذا كان

يفعل تيسير؟». كان يحتاج إلى أن يمتنع عن الكلام لدقائق نروح نحن فيها نلقي اللوم بعضنا على بعض لأننا أغضبناه. بعد ذلك سيكون علينا أن نسأله شيئاً كان يرغب هو في قوله لكنه غفل عنه: وكيف كانت تقف على النافذة؟ هل كانت تسندهما على حافتها كما تفعل على الشرفة؟

كان تيسير يدعوها إلى أن تكشف عنهما بأن يرفع يده في اتجاههما كأنه يدلّ عليهما. وهي كانت تمانع في ذلك وترفع إصبعها إلى الأعلى مفهمة إياه بأن هذا حرام وأن اللّه لا يرضى بذلك. لكن ذلك لم يدم طويلاً، على رغم أنه كان يكرّر حركة يده ذاتها في كل مرة ولا يزيد عليها ما يشير إلى نفاد صبره أو إلحاحه. وحين جعلت تفكّ أزرار بلوزتها، بدأت بذلك من الأسفل، من حيث تنتهي الأزرار لا من حيث تبدأ في الأعلى. وكانت تعود إلى رفع إصبعها وإلى تحريك رأسها خوفاً من الحرام كلما انتهت من فكّ زرّ ونقلت يدها إلى الزر الذي يعلوه. وحين لم يعد مغلقاً إلاّ زرّ واحد، تمهّلت، بل وبدت كأنها توقفت عما كانت تفعله فجعلت ترفع وجهها إلى الأعلى بدلاً من إصبعها كأنما لتقول إن اللّه يراها الآن. وهي خوّفت نفسها من ذلك فأسرعت، في لحظة، إلى ضمّ جانبي بلوزتها المتباعدين الكاشفين عن وسط بطنها. ولم يعرف تيسير ماذا يفعل عند ذاك إذ ربما أفهمه عقله القليل إن رفع يده نحوها، أو نحو صدرها، لن يفيد هذه المرة، وإن الانتظار سيكون أفضل له. وقد ظلّ واقفاً مثل صنم لا يتحرك حتى ترفع يدها عن البلوزة التي أغلقتها، لتعود بعد ذلك إلى تردّدها، هناك عند الزرّ الأخير.

ـ أخت الشرموطة ستقتله، قلت أنا.

ـ ومن قال لك إنها ليست خائفة من اللّه، قال ميلاد.

ـ في المرة الماضية، حين رأيناها أنا وميلاد. . .

وقبل أن ينهي طوني ما أراد أن يقوله، قال ميلاد لجوزف: أكمل أكمل، ثم أضاف بأننا صرنا الآن نتناقش إن كانت تخاف من اللّه.

«إندلق صدرها»، قال جوزف فيما هو يمثّل، بيديه الاثنتين، كيف اندلق الثديان. في حركة واحدة فكّت الزرّ وفتحت البلوزة كأنما من أجل أن تصرع تيسير. هذه المرة أيضاً قدّمت جسمها إلى الأمام ليصير صدرها أقرب إلى الهواء في الخارج مما هو إلى داخل الغرفة. كانت بذلك توهم تيسير بأن نهديها باتا قريبين إليه وأنه، إن أعلى يده في الهواء، سيحس بهما أكثر قرباً منه.

ـ رأيتهما واضحين من حيث كنت؟ سألت أنا.

ـ واضحين، أنظر، ألا تستطيع أن ترى نهدين أمامك هناك، أجاب جوزف مشيراً إلى البرج المنخفض للمسبح، ذلك الذي يعتليه من يراقب السباحين في البحر. إنها نفس المسافة، قال، فيما هو يحرّك إصبعاً من كل يد دالاً بهما على المسافات.

وقد نظر طوني إلى البرج الذي لا يظهر منه إلا الكرسي الفارغة على قمته والشمسية المتسعة التي تعلوه.

ـ حتى أنني رأيت من هناك لون حلمتيها.

ـ بنيّ؟ سأل ميخا.

ـ بنيّ أقرب إلى الزهري، وهي، لكي تهلك تيسير بعدما صرعته راحت تداعب حلمتيها بكفيها المفتوحتين إلى آخرهما.

ـ وجسمها في الهواء؟ سأل ميلاد ليضيف بعد ذلك أنها بذلك عرّضت نفسها لنظر اللّه .

ـ في المرة الماضية أخرجت جسمها إلى الهواء أيضاً، قال طوني ملتفتاً إلى ميلاد ليوافقه.

ـ والأهبل ماذا كان يفعل؟ قال ميخا.

ـ ولا حركة واحدة. كان واقفاً رافعاً رأسه إليها مثلما يكون القاعدون في السينما.

وإذ راح جوزف يدير كفيه مرة أخرى على صدره بدا لنا أن لم يعد لديه شيء ليقوله. إن توقف عند حركته تلك يكون، في ما رآه، يُعيد ما سبق لميلاد وطوني أن حكياه. لكنه، بعد ذلك، وفيما هو يستمرّ بتحريك كفيه على صدره، اتخذت عيناه نظرة من يَعِد سامعيه بأنه سيدهشهم بشيء.

ـ لو تعرفون ماذا حصل بعد ذلك.

ـ ماذا، أجبناه بفضول هو أقل مما كان ينتظر.

ـ فيما كانت سلمى تداعب حلمتيها هكذا (مثلما ظل يفعل هو) رأيت أحداً يقف وراءها في الغرفة.

ـ زوجة أبيها؟

ـ لا.

ـ أباها المسافر.

ـ لا.

ـ أخاها المتزوج.

ـ ولا أخاها.

كان جوزف يسكت قليلاً قبل كل «لا» يقولها، مطيلاً وقت استمتاعه.

ـ زوجة أخيها.

ـ هي، زوجة أخيها. عرفت أنها هي حتى حين كانت بعيدة في العتم. من شعرها، قال، كأن أحداً سأله، من شعرها الذي يشبه شعر الفراعنة.

ـ عرفت ماذا تفعل سلمى؟

ـ يمكن. . كانت سلمى تظهر لها من الخلف حيث بلوزتها تغطي ظهرها، لكن زوجة أخيها تقدمت خطوات إليها.

ـ وسلمى، عرفت بها سلمى؟

ـ أنا أقول أنها عرفت، لأنها حركت رأسها كأنها سمعت شيئاً يتحرك وراءها.

ـ وظلت كما هي؟

* * *

أولئك الذين كانوا يتمشون كل يوم، ذاهبين في الطريق إلى ما يوازي مكان الغرفة القديمة المهدمة، عادوا إلى تنزههم في اليوم الثاني، كثيرين هذه المرة، كأنهم اصطحبوا معهم ساكني البنايات جميعهم. أحبوا أن يكونوا كلهم في الطريق مثلما كانوا كلهم في البيوت، قال لي أخي وقد نزلنا تلك الدرجات الثلاث من مدخل محلنا لنصير أقرب إليهم. كانوا يتوافدون أمامنا، ناظرين إلى مسافات لا تبعد كثيراً عن أجسامهم. ولا يكلّم أحدهم حتى مرافقه الماشي بجانبه. «مظاهرة»، قلت لأخي وأنا أنتظر اللحظة التي تقلّ

فيها كثرتهم لكي أقول لرفاقي، بالإشارة من دون صوت، إنهم يحتلون الزهرانية. كانوا يقفون هناك حيث أقف معهم عادة، ناظرين مثلنا إلى الماشين ومكلّمين بعضهم بعضاً فيما البنات قريباتهن، الواقفات معهم أيضاً، لا يتوقفن عن الاندهاش والضحك الذي، حين يعلو، يخبّئنه بأن يقفلن أفواههن بأيديهن. «لم يتركوا أحداً في البيوت»، قال أخي، فقد كان يرى أمامه أناساً لم يكونوا ليخرجوا إلى التمشي لولا انحباسهم. وعلى الرغم من أنه يعرف أنني لا أقصد ما قلته له عن أنهم يحتلون الزهرانية، قال لي، مصحّحاً، إنهم يخافون أكثر مما نخاف نحن لأنهم يفكّرون أن أي شيء يحدث حولهم ستحدث، لا بدَّ، أشياء كثيرة من بعده.

وهم، على أي حال، لم يخيفوا أحداً. ذاك لأنهم كانوا متفرّقين في مشيهم ولم يظهر عليهم أنهم يشعرون بأن في كثرتهم قوة. ونحن، لذلك، صرنا نتمازح بعد ذلك على جانبي الطريق، وإن بالإشارة والصوت القليل الذي نقصد ألا يسمعه إلا من نرسله إليه. طوني أخذ يحرّك يده حركات سريعة مستهولاً كثرتهم. وحين التفتّ عنه رأيت جوزف مشيراً بعينيه إلى الأعلى ليفهمني أنهن جميعاً هناك، على شرفتهم، سلمى وزوجة أبيها وزوجة أخيها التي يشبه شعرها شعر الفراعنة. إلى ذلك الجانب من الطريق، كان قد خرج أهل رفاقي أيضاً، ملتقين مجموعات صغيرة في الأمكنة الوسط بين مداخل بيوتهم. وحين عدت لأشير إلى جوزف بأن أهله يقفون هناك، رأيت برناديت ناظرة إليّ وهي دعتني، من حيث تقف، أن ننضمّ إلى الماشين، أنا وهي، وذلك بحركة من ذراعها ورأسها. ثم أنها، ممازحة، بدت كأنها تتقدم

نحوهم لتسبقني. وقد فعلتُ ذلك مرة من بعدها، قاطعاً خطوات كادت تجعلني في جمعهم. وقد خطر لي بعد ذلك أن أنفذ من بينهم لأكون هناك، في الجانب الذي تقف فيه لولا أنني رأيت أن بقائي في مكاني أفضل لي. هذا هو، قال أخي مشيراً إلى مروان الذي، حين صار بموازاة محلنا، التفت نحونا وأطرق برأسه إطراقة خفيفة بما يشبه أن يكون نصف تحية. كان يمشي بمفرده، عالياً مرتفعاً عن الماشين القليلين الذين هو بينهم فقد كان طابور مشيهم الطويل قد صار في آخره، بل وإن الذين كانوا قد وصلوا إلى ما يبعد قليلاً عن الغرفة المهدمة بدأوا يعودون، مختلطين بالذين لم يصلوا إلى هناك بعد. وقد صار هؤلاء يبطئون مشيهم أو يتردّدون به إذ كان العائدون كثيرين أمامهم. قال أخي إنه كان علينا أن ندعو مروان ليأتي إلى محلنا، وقد نظر إليّ فيما هو يقول ذلك كأنه ينتظر أن أوافقه أو أن أقول له أن ندعوه الآن. كان مروان قد ابتعد مسافة إلى الأمام، مختلطاً بأولئك العائدين الذين جعلوه، هو أيضاً، يتردّد أين يضع خطواته. ننتظره حتى يعود، قلت لأخي الذي كان يرى الذاهبين عائدين، غير مكملين إلى حيث كان قد وصل من سبقوهم. وفي عودتهم معاً باتوا، من قبل أن يصلوا إلى الطريق أمام محلنا، مزدحمين في مشيهم وقد وسّعوا عرض طابورهم فصاروا قريبين إلينا وإلى رفاقي حتى أننا رأينا أننا يجب أن نتراجع لهم خطوات إلى الخلف. هذا مروان، قلت لأخي الذي كان ينتظر التفاتته حتى يدعوه إلى محلنا، لكنه لم يفعل. تركه ناظراً إلى الأمام ماشياً بين الماشين ومبتسماً تلك الابتسامة الخفيفة التي تبديه مسروراً من شيء لا يعرفه إلا هو.

إنهم أكثر من ساكني الهضبة، قلت لأخي بعدما عبر من أمامنا آخر طابورهم. ثم عدت إلى قول ذلك لحظة وصولي إلى حيث يقف رفاقي وقريباتهم البنات. قال ميلاد إن هؤلاء، ساكني الهضبة، سيردون عليهم غداً بمظاهرة يكونون حاملين فيها العصيّ والشواكيش. . «وغالونات البنزين»، أضاف طوني قبل أن ينظر في وجوهنا ليرى إن كان ما قاله قد أضحكنا. كان الغروب قد صار في آخره، والطريق التي كانت مزدحمة بهم بدت خالية لا حركة فيها ولا صوت. من وراء ما أقف سمعت ما كنت أنتظره. قالت برناديت: والآن، هل سنذهب إلى البيوت؟

كانت بذلك تنبّهنا كم ستكون البيوت مضجرة.

ـ تعالوا إلى عندنا، قال طوني.

ـ أنت اسبقنا ونحن نلحقك، أجابه جوزف ممازحاً إياه بقوله إنه صغير وأننا سنسهر من دونه.

وأنا، لكي أدفع احتمال سهرنا إلى الأمام وأتنصّل من أن أكون أدعو إليه في الوقت نفسه قلت، فيما أنا أستدير متجهاً إلى محلنا الذي لم يكن قد أقفله أخي بعد:

ـ أنتم قرّروا. . أنا لن أتأخر. .

* * *

في تلك الليلة كان لنا وحدنا المسبح كله: المقهى والمطعم الذي في الطابق العلوي وحديقة العشب الأخضر وبركة السباحة وكذلك الشاطئ الذي شقّوا له طريقاً بين الصخور ليصل السابحون إلى رمله. كانت بركة السباحة ممتلئة بالماء حتى حافتها وكان

سطحها معتماً قليلاً إذ لا يصله الضوء إلا من اللمبات الموزعة على أطراف أمكنة القعود والاستلقاء التي يستريح فيها السابحون. هذه أيضاً كانت لنا، لنا وحدنا. لكننا لن نجلس فيها كما كنا نفعل كلما أتينا في النهارات. لا لأن الكراسي كانت مضبوبة ومركونة في الزاوية المخصصة لها، فقد كنا نستطيع أن نُخرج منها ما نحتاجه لجلوسنا، بل لأننا كنا نجرّب التنقّل في أنحاء المكان كله. حتى أنّنا رحنا، في المطعم، نفتح البرادات التي ستّفوا في ثلاجاتها لحوماً قلنا إنها تكفي زبائنهم لمدة شهرين. العاملان المصريان اللذان أبقاهما صاحب المسبح معنا، لخدمتنا ولحراسة المسبح في الوقت نفسه، تركانا نفعل ما نريد ونتنقل كيفما نشاء كأنهما، هما أيضاً، يشاهدان المسبح على غير ما اعتاداه ما يتيح لهما أن يمزجا اللهو بالشغل. حتى أنّ أحدهما جعل يغنّي بعدما ألححنا عليه أن يفعل، قائلين له إننا سنغني معه. وقد بدأ جوزف بطرق أصابعه على طرف الطاولة، مفاجئاً إياي لكون طرقه ذاك يُطلع نغماً. وهو صار ينوّع في طرقه ونغماته كلما قلت له، من أين تعلّمت هذا. يالله. . يالله، صار يقول للشاب المصري فيما هو يقوّي توقيع أصابعه على الطاولة. وإذ بدأ الشاب بالغناء بدأنا نحن نصفّق مماشين إيقاعه. كانت تتباطأ أصابع جوزف مفكِّراً إن كان يعرف الأغنية أو إن كان قد سمع لحناً مثل لحنها من قبل.

وحين نزلنا بعد ذلك إلى المقهى المطلّ على البركة فتح جوزف البراد الطويل وأخذ يُخرج منه قناني البيرة يرميها لكل واحد منا ونحن نلتقطها بالأيدي. خذيها. . خذيها، قال لرينيه فيما هو يحرّك يده هاماً برمي القنينة إليها. «لا. . لا. . ستقع»، صارت

تقول له مذعورة ومتراجعة إلى الوراء خوفاً من أن تخبط القنينة بالأرض ويتشظى زجاجها. ولمّا حوّل لعبته بعد ذلك إلى برناديت وبدأ بمطّ يده وذراعه إلى الأمام كأنه سيرمي القنينة حقاً هذه المرّة، قال له ميلاد أن يوقف زناخته وهو تقدم ليأخذ القنينة من يده. «هاتها»، قال له بعد أن راح جوزف يبعد يده فيعليها ثم يخفضها ثم يرجعها ليلويها وراء ظهره. وحين بدا أن هذه اللعبة ستطول لأكثر من دقيقة استدار ميلاد نحو البراد وأخرج منه قنينة. «هذه أحتفظ بها»، قال لجوزف فيما هو ينظر إلى القنينة في يده.

لكننا أنهينا ما كان يمكن له أن يتحوّل شجاراً بأن صرنا نصفّق لما فعله ميلاد ونصفّر له ليبدو ما جرى كأنه كان مزاحاً من أوله. وقد قَبِل جوزف ذلك وهو أعلن عن قبوله بأن قال مازحاً إنه لن يخدم إلا نفسه بعد الآن. ثم نزع عن القنينة سدادتها بالمفتاح المثبت بجانب البراد وكرع منها كرعة أفرغت نصفها. ولأجل أن ينتهي أثر ما جرى بينهما قالت رينيه إنها تريد كأساً لأنها لا تحب أن تشرب من القنينة. إذهب أحضر لها كأساً يا ميلاد، قال جوزف مفترضاً أنه بذلك ينهي معركته مع ميلاد بالتعادل.

كان صوت الأغنية قد ارتفع فجأة مالئاً المسبح كله قبل أن يعود فينخفض، فجأة أيضاً، محدثاً خشخشة. «إنه المصري»، قال طوني متلفّتاً كأنما ليعرف أين وضعوا آلة التسجيل التي تبثّ الأغنيات. أين هو عبدو؟ صار يقول طوني بعد أن لم يظهر لنا أيّ من الشابين المصريين. لكن جوزف قال إنها أغنية جميلة، وأخذ يفرك أصابعه على إيقاعها كأنه يستعد ليبدأ الرقص داعياً البنات إليه. ولم يستجبن له، لا بأن يشجّعنه على أن يبدأ الرقص ولا بأن

يرقصن هنّ أنفسهن. ولمّا تقدم نحوهن لكي يدفعهن إلى ذلك، مدّت رينيه يديها أمامها كأنها تبعد عنها شيئاً، أما برناديت فاكتفت بأن حادت من طريقه، إلى ناحية ما أقف أنا.

وقد عرفت أنها صارت بقربي، على بعد خطوتين مني أو ثلاث، من دون حتى أن ألتفت لأراها بعينيّ. هناك أيضاً، في المطعم حيث كان عبدو يغنّي أغنيته المصرية، أحسست بها قريبة إليّ يكفيني أن أطرف بعيني قليلاً حتى أراها. لكنني، هناك كما هنا، بقيت لم أقم بأكثر من نصف التفاتة إليها لأعلمها بأنني أعرف أين هي، كما بأنني أعرف لماذا وقفتْ قريبة إليّ.

لا أكثر من نصف التفاتة إذ لن أعرف في أي الاتجاهات قد تذهب عيونهم الكثيرة. قال جوزف، بعد أن لم يستجب أحد لما كان يطلبه أو يفعله، إنّ الأغنية التي وضعها عبدو طويلة وهو جعل يناديه بصوت صارخ لكي يعلو على صوت المكبّرات. أين هو، صار يقول سائلاً طوني. ولكي يغيظه طوني قال له إنه نام. كان كل شيء يقولونه قابلاً لأن يوصل إلى شجار، لكنهم، مع ذلك، ظلوا ملتصقين معاً ومتنقّلين معاً. حين قال ميلاد أن نأخذ قنانينا لنقف حول بركة السباحة، كنت أنا أوّل القابلين مع أنني رأيت أن عليّ أن أنتظر أحداً سواي يخطو الخطوة الأولى إلى هناك. نذهب إلى هناك، قالت رينيه التي أضافت أننا لو بقينا هنا سنشرب براد البيرة عن آخره. وهي كانت تقصد جوزف الذي كان، قبل دقيقة، قد فتح باب البراد ليأخذ قنينة البيرة الثالثة. وحين تقدمتْ رينيه باتجاه بركة السباحة لحقها طوني، ثم مشت وراءهما بيبي التي بدت ضجرانة ومتعبة مع أننا لم نفعل شيئاً في السهرة بعد. كنت

أنتظرهم لكي يتقدّموا واحداً بعد واحد لنكون، أنا وبرناديت، الأخيرين، فنتباطأ عنهم عند ذاك أو نسير وراءهم فلا يكون ناظراً إلينا منهم أحد. ولن يدوم ذلك لأكثر من لحظات قليلة لن أستطيع فيها حتى أن أنظر إلى برناديت تلك النظرة التي أبدو بها كأنني أمسك يدها بيدي مبلغاً إياها شيئاً. وقد نظرتْ إليّ برناديت هي أيضاً، نظرة قريبة أظهرتْ عينيها واسعتين ومتسائلتين. بعد ذلك كان على أحدنا أن يسبق الآخر، من أجل أن لا يرونا ماشيين معاً، لكن أيضاً لأننا، بعد أن اقترب وجهانا إلى ذلك القدر، كنا نحتاج إلى أن ينفرد أحدنا عن الآخر لما تبقى من مسافة الوصول.

حين وصلنا قريباً من حافة البركة رأينا جوزف خالعاً قميصه وحاملاً إياه بيده. أين عبدو صار يسأل، ولمّا لم يُجِبْهُ طوني هذه المرة، عاد فسأل: المصري الثاني، أين المصري الثاني. ثم قال إنه سيذهب إليهما. قال طوني إن البيرة لم تعد تكفيه وإنه يريد المصريَّيْنِ ليسألهما عن الفودكا. ولم تَخَف البنات من احتمال أن يكون جوزف قد سكر، بل أن رينيه قالت إن المياه لذيذة وهي ستنزل إليها. وإذ بدأت بالتلفّت حولها لترى إن كان يمكنها ألا تذهب إلى الكابينات، قال لها ميلاد: اشلحي هنا، سندير وجوهنا. وهي أجابت ميلاد بأن ابتسمت له ابتسامة سريعة ساخرة ثم قالت لبيبي أن تأتي معها إلى الكابينات.

كان جوزف ما زال حاملاً قميصه بيده حين عاد، حاصلاً على قنّينة فودكا مملوءة إلى أكثر من نصفها. قال إن عبدو سيلحقه مع الكاسات والثلج فيما هو يرفع سدادة القنينة ليدير رائحتها على أنوفنا. «طيبة»، قال له ميلاد من دون أن يبدو على وجهه أنه

استحسن ما شمّه. «شمّها..»، قال لطوني الذي أبعد القنينة بيده لأنه سيسكر من رائحتها كما قال. «انظر.. انظر إلى رينيه»، قلت له فيما هو يقترب مني مادّاً يده بالقنينة إليّ. كانت رينيه قد بدأت بالركض تاركة بيبي وراءها، كأنما لتستعجل النزول إلى الماء لتخبّئ جسمها الذي كشفت عن أكثره ثياب السباحة. وهي، حين وصلت إلى حافة البركة قفزت، راكضة أيضاً، متخذة في الهواء شكل الجلوس على كرسي. وقد أحدث سقوطها في الماء طرطشة بلغت حدّ ما تقف برناديت التي هيّأت يديها لأن تصفّقا من فور ظهور رأس رينيه فوق الماء. وقد احتفل جوزف بدوره بأن رفع القنينة إلى فمه ليأخذ منها جرعة جعلته يقشعر وينفض رأسه من قوّتها. ثم قال: أين عبدو؟ ثم قال مخاطباً عبدو كأنه واقف أمامه: أين الثلج يا عبدو؟

ظلّت رينيه في الماء ملتصقة بزاوية البركة ومستمتعة بارتجاف شفتيها. قالت لبرناديت أن تفعل مثلها فأجابتها برناديت بارتجافة مصطنعة لتدلّ على خوفها من برودة الماء. في الزاوية هناك كانت رينيه تنتظر مبقية جسمها في مكانه؟ ولمّا تأخّرت في بقائها هناك حيث هي سألها ميلاد، واقفاً على حافة البركة فوقها، إن كانت ستبقى هكذا حتى خروجنا إلى البيوت. وقد زاد طوني على ذلك بأن قال، واصفاً الحال الذي أوقعت رينيه نفسها فيه: «علقتْ.. رينيه علقت» صار يقول قاصداً أنها لن تسبح ولن تخرج من الماء أيضاً لأن الهواء، إن خرجت، سيجعلها تبرد من جديد. لكنها أخلت مكانها ذاك فجأة حين نظرت إلى الأعلى ورأت جوزف فوقها في محل ما كان ميلاد. كان حاملاً قنينته وجسمه يتمايل كأن

ريحاً تدفعه مبطئة إلى الأمام لترده ريح أخرى إلى الوراء. وقد خافت رينيه من سكره ومن نظره إلى جسمها وتحديقه فيه، هكذا غافلاً عن وجودنا جميعنا. تقدمت رينيه سابحة في اتجاه الطرف الثاني من البركة، وهي توقفت هناك لترى إن كان يتقدم، هو أيضاً، ليصير فوقها من جديد. لكنه ظلّ واقفاً في مكانه، متمايلاً لكن مبقياً رأسه منخفضاً إلى الأسفل كما كان. قالت لي برناديت إنهن يعرفنه كيف يكون حين يسكر. وكانت قد صارت قريبة إلى حدّ أنها، فيما هي تقول لي إننا يجب أن ننتبه لرينيه، أحسست بشعرها الأملس القصير يكاد يلامس وجهي. قال ميلاد إننا يجب أن نُرجع جوزف عن حافة البركة، ثم التفت إليّ بعد ذلك كأنه يدعوني إلى أن نتقدم أنا وهو إليه. «كن منتبهاً»، قالت لي برناديت فيما أنا أخطو مبتعداً عنها. وحين صرنا قريبين من حيث يقف جوزف، ناظرين إلى وجهه المنخفض في اتجاه الماء، قال لي ميلاد إنه نائم، ثم قالها مرة ثانية حين كدنا أن نكون لصيقين به. لكنه فتح عينيه فجأة فيما كان ميلاد يفهمني، بحركة من يديه الاثنتين، أن نحيطه بأذرعنا ونرجع به إلى الوراء. كانتا حمراوين ومنتفختين، لكنهما، مع ذلك، بدتا كما لو أنهما استردّتا انتباههما. «تعال نذهب»، قال له ميلاد، فالتفت إلى ميلاد ناظراً في وجهه، ثم التفت إليّ بعد ذلك كأنه يستفهم متسائلاً ماذا نفعل هنا حوله. لكن انتباهه لم يدم لأكثر من تلك اللحظات القليلة. قلت لميلاد «أمسكه. أمسكه» فيما أنا أحيط وسطه بيديّ. كان السواد في عينيه قد انزاح ليتركهما بيضاوين غاشيتين، وجسمه كان ثقيلاً بين أيدينا كأنه يشدّه شداً إلى الأسفل. كنا نتساءل إن كان

علينا أن نوقفه أو أن ننيمه حين أتته تلك الانقباضة في بطنه. «انتبه سيستفرغ»، قال لي ميلاد فلم أعرف كيف أبعد جسمي عنه وأظل ممسكاً به في الوقت نفسه. «انتبه. . انتبه»، قال ميلاد صارخاً هذه المرة. كانت دفعةُ القيء الأولى قد سقطت على الأرض، قليلة، لكن من صوته المرعد الذي تلاها عرفنا أنه يستعد للدفعة القوية. «لا، ليس هنا» قالت رينيه من مكانها في آخر البركة حين رأته ينحني جاعلاً رأسه فوق مائها. «ليس هنا»، عادت لتقول هلعة مذعورة كأن استفراغه، حين أخذ يتدافع من فمه، سيلوّث ماء البركة كله.

* * *

# نافذة إلى الدانمرك

لا أشتاق إلى الزهرانية مع أني لا أحب عيشتي هنا. حين أقول الزهرانية لا أكون أعني أهلي بل الناس الذين هناك. أهلي أحبّهم، خصوصاً أخوتي الصغار، أقصد حين كانوا صغاراً. كنت أقول لهم: أريد ماء، لنرى من هو الأول بينكم؟ فيركضون إلى المطبخ هم الثلاثة ويرجعون مسلّمين لمحمود إبريق الماء يحمله بيديه الاثنتين. أحبّهم وأشفق عليهم. أو أني أحبهم لأني أشفق عليهم. وأنا هنا، يهبط قلبي وتكاد تنزل الدمعة من عينيّ حين أتذكرهم واقفين أمامي، تكشف قمصانهم الصغيرة عن بطونهم. الآن، بعد أن صار لي أولاد، أتخيّل أنني أمدّ يدي إلى أطراف القمصان وأشدها إلى الأسفل. كما أتخيّل أنني أمسح وجه أختي فاطمة كأنني أعوّضها الآن عن بقائها بين الصبيّين، تركض معهما من أجل أن يأتوا لي بالماء، وتلعب معهما ألعاب الصبيان. كما لأعوّضها عن قصّهم شعرها بالمقص الكبير وممازحتهم لها بسؤالها الذي لم يتعبوا منه: أنتِ بنت أو صبي؟

طاهر، زوجي، يقول لي إني أكذب حين أقول بأني لا أشتاق إلى الزهرانية. «أبداً؟» يسألني كأنه يتمسخر عليّ. «أبداً» أجيبه، ثم

أزيد على ذلك بعد لحظة «أبداً أبداً» كأنني، في تلك اللحظة، سألت نفسي عن ذلك وأجابتني نفسي.

ـ وبيتكم؟

ـ بيتنا. لا أعرف، أجيبه.

ثم أقول له بعد أن أفكِّر: بيتنا شيء والزهرانية شيء.

كلمة «الزهرانية»، حين تقال أمامي، تذكّرني بالمناظر التي نراها من بيتنا. ليس البحر كما يظنّ طاهر الذي كان يحب، ونحن هناك، أن يضع كرسيّه بمواجهته ويقعد ناظراً إليه. الكبار فقط يسلّيهم النظر إلى البحر، ومروان كان كبيراً. ليس كبيراً مثل أبي، ولا حتى مثل زوجة أبي، لكنه كان كبيراً عليّ كما كانت تقول لي كوثر، زوجة أخي. «قولي لكوثر إن زوجها تركها لأنه ولدٌ مثلها»، كانت تقول لي زوجة أبي من أجل أن أقبل بطاهر ولا أظل أقول لهم، كلما سألوني، أنني لا أعرف. الزهرانية هي البحر بحسب طاهر، وبيتنا، بحسبه أيضاً، هو شرفته المطلّة على البحر. «الكبار يحبّون أن يمرنوا عيونهم بالنظر إلى البعيد»، كانت تقول لي كوثر، مصرّة مرة أخرى على أن طاهر واحد من الكبار. لكنها، مع ذلك، كانت تقول شيئاً صحيحاً فأنا، كلما تذكّرت الزهرانية، تخطر لي تلك الساحة الصغيرة أمام محل الألعاب، وشجرات أول بيتين من بيوت المسيحيين، وذلك الطرف من الطريق حيث عمود الكهرباء الذي كان يقف تحته أولئك الشباب الذين لا شغل لهم إلا التلصّص على البنات، كما صار يقول كلّ من في بيتنا.

كما أنني أتذكّر كومة الحجارة الكبيرة تحت نافذتنا، تلك التي جمعوها من شقهم الطريق الذاهبة إلى بيت أبو تيسير. «وماذا في كومة الحجارة حتى تتذكريها؟»، يقول لي زوجي مبتسماً تلك الابتسامة التي تبديه كأنه يحادث ولداً صغيراً، وأنا أروح أبتسم معه، مسلّمة له بأنني أبقيت في رأسي منظراً لا أهمية له. ذاك بسبب الثلاث عشرة سنة التي بين عمري وعمره، وأيضاً بسبب العِلْم الذي تعلّمه ووصل به إلى الجامعة.

«أستاذ. . أستاذ. . !» كانت تقول لي زوجة أبي كأنها تعبت من قولي لها إنني لا أعرف. لكنها تبدأ بتغيير نبرتها وهي تستعد لأن تقول لي، مبتسمة، إنه سيأخذني إلى الدانمرك. ثم تقول لي، مبتسمة مرة أخرى، إنني، حين أصير في الدانمرك، أستطيع أن أرسل لهم لكي يلحقوا بي جميعهم. لكنني أعرف أنها تريدني أن أتزوّج لكي ينقص بذهابي عدد الذين في البيت. ربما هكذا فكرت حتى حين ذهب أبي، أبي زوجها، فقد كان ينام في غرفة لوحده ولا يقبل أن ينيم أحداً معه. نحن ننام فوق بعضنا بعضاً مثل الدجاج ، كانت تقول له كلما خرج من غرفته مسرعاً، كأنه يسابق سعاله للوصول إلى الحمام.

حين وقفنا على الشرفة منتظرين، مثله، السيارة التي ستأتي لتأخذه، كانت هي أول من عاد إلى داخل البيت تاركة إياه في الأسفل، قاعداً على كرسي أحضروها له من محل الألعاب. كانت تحب أن يكون رواحه بلا رجوع، مثلما كانت تقول عن رجال يزورونه يظلون، حتى خروجهم من الباب، ينظرون متلصّصين على كل شيء حولهم. «تعالي خذي الفناجين»، يقول لها فيما هو

يعود إلى مكانه على الشرفة. «روحي هاتي الفناجين»، تقول لي بصوت ساخط لا تكترث إن هو سمعه. «نظّفيها. . نظّفيها»، تقول حين تراني عائدة بالصينية الصغيرة مملوءة، فوق الفناجين، بورقات الكلينكس المطوية على مخاطه وعلى ما يبصقه مع سعاله. نظّفيها، تقول لي مرة أخرى لأعجّل في تخليصها مما يقرفها. وأنا كنت، بيدي الصغيرة، بإصبعين قرفانين، أرفع الورقات من أطرافها لأرميها في الزبالة. روحي يا سلمى نظفي الحمام، تقول بصوت يسمعه هو على الشرفة وأسمعه أنا فأقوم عن المراية التي أكون جالسة قبالتها أنا وكوثر. كان يحبني، لكنه لا يتقاتل معها من أجلي. أكره صوتها، يقول مكشّراً ضامّاً شفتيه ليبدو كأن ليس صوتها فقط ما يكرهه، بل مشيتها أيضاً حين تسير جارة رجليها الحافيتين اللتين، لثقلهما، لا يرفعهما مشيُها عن الأرض.

الزهرانية هي أيضاً جيراننا، وليد وأخوه الثخين الذي كنا نتساءل أنا وكوثر أين يجد ثياباً على مقاسه. الزنار، انظري إلى الزنار، تقول إحدانا للأخرى إذ يبدو لنا متدلياً شبراً ونصف الشبر من عروته كأنه قد صنع لرجل أثخن منه. وفي أحيان كنا نراه لابساً تلك النقّيفات التي تشدّ بنطلونه إلى الأعلى بملاقطها فنتخيل أننا نمطّها بأيدينا لتخبط على صدره حين نفلتها. مَنْ كان مثله أحسن له أن يشتغل بغير اللعب. تبدو صغيرة بين يديه، كما تبدو البسكلاتات صغيرة أيضاً حين يمسكها من مقودها مقرّباً إياها إلى الأولاد الصغار. كان أبي، قبل أن يسافر، يدعوه إلى أن يصعد إلى عندنا ليشرب معه قهوة، ونحن نقول إنه سيأتي لا من أجل أبي بل من أجل زوجة أبي. «إنه يقف الآن وراء الباب»، أقول

لكوثر أو تقول هي لي. نتراهن على ذلك أنا وهي ثم نفتح باب بيتنا مطلعين من ذلك صوتاً يسمعه. «خسرتِ»، تقول لي فيما هي تقف ورائي مخبّئة نفسها، لكنها لن تظل رابحة عليّ فبعد دقيقة سيفتح بابه متظاهراً أنه سمع طرقاً عليه أو أنه يكمل بحثه عن شيء سقط منه على فسحة الدرج.

ونحن نروح نتساءل إن كانت زوجة أبي تعرف وتتصرف كأنها لا تعرف، أو إن كانت تعرف لكنها تخاف من اللّه.

ـ إن كان يعجبها لن يهمّها الخوف من اللّه، أقول أنا.

ـ أنا أقول إنه لا يعجبها لكنها يمكن أن تقبل معه، تقول كوثر.

لم تكن لتخاف من أحد إن قبلت معه. كنا سنعرف أنا وكوثر لكننا لن نقول ذلك لأحد. أبي، حتى لو كان ما زال هنا، سيفكّر أنها لا تفعل شيئاً لأنها لا تُعجب أحداً. حين كان هنا لم يكن يستحي من أن نراه يحدّق بجميع النساء اللواتي يظهرن له نازلات من السيارة مع أولادهن أو خارجات من بيوت المسيحيين. حتى البنات اللواتي في عمري أنا، الواقفات مع أقربائهنّ الصبيان تحت عمود الكهرباء، يدرن وجوههن عن عينيه المبحلقتين اللتين تبديانه كما لو أنه تخلّص لتوّه من نوبة السعال. لا يستحي من أن يُشاهَدَ وهو يحدّق بهن. في مرات، حين أذهب لأخذ الصينية عن الطاولة الصغيرة أمامه، يلتفت إليّ كأنما ليجعلني أنتبه إلى امرأة في الأسفل، لأفهم أنه يحب أن يقول: هذه امرأة وزوجتي امرأة؟!

ـ الرجال ليسوا مثلنا، لا يخافون اللّه مثلنا، تقول لي كوثر

بعدما تكون قد أصابتها نظرته المحدّقة التي تبديه كما لو أنه يهم بأن يفعل شيئاً من بعدها، كأن يقرّب يديه مثلاً ليمسك بهما الشيء الذي تنظر إليه عيناه، لكنه، فجأة، ينتبه إلى أنه كاد يغلط، فيدير وجهه متطلعاً في الجهات حوله. يفكر ربما أنها مثل غيرها ما دام أن ابنه، أخي، لم يعد يريدها. هي زوجة ابنه مع أنه هو، وليس ابنه، من يشاهدها كلما قام من مكانه على الشرفة ليقوم بجولة في أنحاء البيت. «قولي لها أن تخفّف مكياجها»، كان يقول لي حين تشتد رغبته فيها. «لا يجوز أن تظل ممكيجة هكذا وزوجها غائب لا يأتي»، كان يضيف ليجعلني أفكِّر أن ما يقصده هو ما يحكيه الآباء عادة، الآباء الكبار الذين تزوّج أولادهم. «يقول أن تخففي الماكياج»، أقول لها من أجل أن نضحك أنا وهي. لكنها لا تفعل. لا تخرج من غرفتها التي تنام فيها مع ولديها إلا بعد أن تكون قد أضافت إلى الكحل الذي حول عينيها كحلاً فوقه وغطت وجهها بالكريم الذي تظل تزيده حتى تجد أن بشرتها صارت بيضاء من لونه.

«جاءت المدام»، تقول زوجة أبي حين ترى كوثر خارجة من غرفتها، ثم تزيد على ذلك قولها لي، متمسخرة: إسأليها إن كانت تريد أن نعمل لها قهوة. وحين تصل إلى المطبخ لتعمل قهوتها بنفسها، تقول «صباح الخير» لكن بصوت ضعيف قد تسمعه زوجة أبي وقد لا تسمعه. ثم تتركنا بعد ذلك حاملة الركوة وفنجان القهوة إلى غرفتها. «جاء وقت تفطيس الأولاد برائحة الدخان»، تعلّق زوجة أبي من دون أن تنتظر وصولها إلى باب غرفتها وإغلاقه بعد ذلك وراءها.

كانت كوثر تظلّ حاملة علبة الدخان التي تسرع في تدخين سجائرها الثلاث الأولى، واحدة بعد واحدة، لكي توسع مكاناً فيها للقداحة التي تكره أن تضيّعها. وقد خرّب التدخين أسنانها، تلك التي لن تستطيع أن تغطّي اصفرارها بشيء ولا أن تسدّ ذلك الثقب الصغير الذي، كلما رأيته، أفكّر أنه سيظل ينخر حتى يأكل سنّها كله. لكنه لم يبشّع شيئاً آخر في وجهها، لأنها تظل مقفلة شفتيها، ولأن ابتسامتها جميلة، ولأن الاصفرار الذي حوله يخفف من لون نقطته السوداء. «حين يصير معي مصاري سأسوّيه وسأنظف أسناني كلها»، تقول لي كما لو أنها موظفة تقبض راتباً كل شهر.

* * *

لا أحب عيشتي هنا ولا أشتاق إلى الزهرانية. قلت لزوجي إنني لا أستطيع أن أنجب أولاداً وأشتغل فوق ذلك عند الناس في بيوتهم. من أجل أن يظلّ ابني عمر معي، الصغير الذي أُرضعه من حليبي، تركت شغلي في السوبرماركت القريب من بيتنا. قلت لطاهر إن النساء في بلدنا يخلّفن أولاداً كثيرين لأنهن لا يشتغلن بغير الأولاد. كان يجيبني بأن الشغل يحسّن عقل المرأة، وأنا لم أكن أجد أن شيئاً يتحسّن بي من دوراني طيلة النهار فوق بلاط السوبرماركت أنظّفه بتلك المسّاحة التي ترشّ الماء وتنشّف هي الماء في الوقت نفسه. هناك في السوبرماركت أنا موظفة أما في شغل البيوت فإني خادمة، أقول له محتجة على حَبَلي بالولد الثالث الذي ستساعدنا الحكومة على تربيته، كما كان يقول. كما كان يقول لي إنني أنا التي أبقيت نفسي خادمة لأني لم أصبر على تعلّم

لغتهم. كان يمكن لي، بحسبه، أن أُنقل من مسح الأرض في السوبرماركت إلى الجلوس وراء ماكينة الحساب لا أفعل شيئاً إلا أن أجمع حساب الزبائن. «اللغة هي كل شيء»، وأنا كنت أعرف، منذ أن نزلنا في المطار، أنني لن أعرف حتى أن أتعلم العدّ حتى العشرة. لكنني مع ذلك رحت أذهب إلى المدرسة التي لم أستحِ فيها من كبري على الدرس، فقد كان بين الآخرين معي من هم أكبر مني. لكنني كنت أعرف من أول ما جلست بينهم أنهم سيتعلّمون وأنني لن أتعلم. ذاك أنهم يعرفون أشياء لا أعرفها، وهم كانوا يكتبون كل ما تقوله المعلمة، بل ويسألونها أشياء أخرى من أجل أن يتعلموا أكثر ما تريدهم هي أن يتعلموا.

لأنني لم أدرس في المدرسة وأنا صغيرة كان أحسن لي أن لا آتي إلى هنا. «الدانمرك»، كانت تقول لي زوجة أبي لكي أرضى بمروان الذي ثقّل رأسه العلم الذي تعلّمه كما ثقّل جسمه أيضاً. كنت لم أزل في السابعة عشرة وعليّ أن أقبل به، هو الذي صار يقضي ساعة أو ساعتين على الكرسي، رافعاً ظهره ورأسه إلى الأعلى ومكتفياً بالنظر إلى البحر. لكن الناس الذين في عمره ليسوا هكذا مثله، كنت أقول لكوثر التي، كلما سألتها إن كان أحسن لي أن أقبل به، لا تقول لي نعم ولا تقول لي لا. فقط «الدانمرك»، تقولها وتغمض عينيها كأنها تستلذّ بطعم تذوّقه لسانها. الدانمرك التي لا أكلم فيها أحداً ولا يكلمني أحد. في السوبرماركت كنت أدخل تلك البطاقة في شقّها، هناك عند المدخل، بدل أن أقول لهم ها إنني قد جئت. وفي البيت الذي انتقلت للشغل فيه بعد أن خلفت ابني الثالث عمر لم أكن أقول إلا

«غود مورغن»، وذلك بعد أن يكون زوجي قد علّمني إياها ورددتها له مرة بعد مرة على الطريق. أقول لها، وأترك لزوجي بعد ذلك أن يفهم منها بماذا عليّ أن أشتغل اليوم. دقيقتان فقط ويذهب تاركاً إياي بين هدير ماكينة تنظيف السجاد وبكاء ابني المنزعج من صوتها. لم يكن قد مضى أكثر من ثلاثة أيام على شغلي هناك حين قالت لزوجي وليس لي، أن عليّ أن أترك ابني في بيتنا لأنه يؤخّرني عن شغلي ويضايقني. يضايقني أنا قالت وليس يضايقها هي. وهو يؤخرني عن عملي وليس أنّ حملي له، ليسكت، يأكل من الوقت الذي تدفع أجره بعدّ الساعات.

قالت ذلك لزوجي، بالكلام، بكلامهم الذي يقلبونه فيصير ابني يضايقني. قلت له إننا خسرنا السوبرماركت وها أننا سنخسر شغل البيوت. «الدانمرك.. همم..» كانت تهمهم كوثر فيما هي تغمض عينيها وتلوي رأسها رافعة إياه إلى الأعلى، كأنها تحلم بالدانمرك التي لم ترها، ولم تعرفها. إصبري.. إصبري، يقول لي زوجي ليضيف بعد ذلك أن الناس هنا لا يظلّون كما هم. «إلا أنا»، أجيبه، وأكاد أن أُزيد على ذلك بأن أقول.. «وإلا أنت» طالما أن عيشنا لم يتغير بعد، وطالما أنه ما زال كما هو ينتظر أن يتحسّن لأتحسّن أنا معه.

«لكنكِ يجب أن تعودي إلى المدرسة لتتعلمي اللغة»، يعيد عليّ ما كان يقوله وأنا أجيبه بأنني لا أقدر أن أشتغل وأربّي الأولاد وأتعلم اللغة فوق ذلك. ولا أقول له إنني كنت أحسن في الزهرانية لأنني لا أشتاق إليها. أشتاق فقط لأخوتي الصغار الذين لا أعرف الآن كيف هم. كانت زوجة أبي تقول لي بأني حين أصير في

الدانمرك سأجلبهم إليّ. في أوقات أتخيّلهم هنا، أكبر من العمر الذي أعرفهم فيه، ضائعين لايعرفون ماذا يفعلون لأنهم لن يستطيعوا أن يتعلموا اللغة. لن يصبروا على الجلوس ساعات يستمعون إلى ما تقوله المعلمة. زوجة أبي كانت تحبّ أن يذهبوا إلى المدارس. «لكن أين هي المدارس»، كان أبي يسألها لكي لا تعرف بماذا تجيب. وحين تبدأ بأن تسأله بدورها عن أولاد المسيحيين أين يتعلمون كان يقول لها إن أولاد المسيحيين صاروا كباراً وهم يستطيعون أن يركبوا الباصات لوحدهم من دون أن يكون أحد معهم. وكانت تعرف بماذا سيجيبها عن كل شيء ستقوله. «آخذهم أنا؟» سيجيب متعجباً من تخيّل نفسه راكباً معهم في سيارة أو في باص. . «أخذهم وأرجعهم؟» يضيف بعد ذلك محرّكاً إصبعه على حركة الرواح والمجيء، وليصل بعد ذلك إلى أن يقول إنه أحسن له أن يظلّ معهم في المدرسة يدرس معهم في الكتب.

بل أنه سيخترع كلاماً آخر إن هي أكملت «معزوفتها» كما كان يسميها. «الآن. . الآن أسجلهم في المدرسة!»، سيقول مذكّراً إياها بأن المدارس ليست مثل الدكاكين نشتري منها ساعة نشاء. «ثم أنهم كبروا على الصفوف، أتريدين أن يقعدوا مثل الحمير بين الأولاد؟».

أتذكرهم وهم صغار لأنني لم أرهم بعد ذلك. وإذ أروح أتخيلهم كيف صاروا أروح أخلط بين وجوههم ووجوه أخرى فأرى أخي محمود كبيراً في هيئته إياها وفي أحيان أراه في هيئة أخيه عاطف لكن في عمر أصغر. ولا أراهم إلا في البيت لا

يفعلون شيئاً لأنهم لم يعودوا في العمر الذي يقضون نهارهم يركضون واحداً وراء الآخر أو يلاعبون أولاد أخي بعد أن تخرجهم أمهم من غرفتها. «صاروا كباراً»، أقول لزوجي كأنني أذكّره بما كانت تقوله زوجة أبي عن مجيئهم إلى الدانمرك. «لكن ماذا سيفعلون هنا»، يجيب، لكي يضيف بعد ذلك شيئاً يتعلق بي أيضاً: «هنا لا يشغّلون من لا يعرفون كيف يقرأون ويكتبون». وحين يقول ذلك يكون يعرف أنني لن أردّ عليه. إنني لن أقول له إنه كان يعرف، منذ أن كنتُ هناك في الزهرانية، أنني لم أتعلم ولم يدخلني أهلي إلى المدرسة.

لقد تعلّم هو، لكن العلم الذي لا أراه يناسبه. في أحيان أتخيّله كيف سيكون لو لم يتعلّم. «كان سيعجبني أكثر»، كنت أقول لكوثر مغيّرة، على شفتيّ، شكل ابتسامته فأجعلهما مسترخيتين بدلاً من أن تكونا مزمومتين. وكوثر كانت تضحك فيما أنا أغيّر وقفته أيضاً ، وجلوسه على الكرسي الذي أبدأه بأن أرفع رأسي وكتفيّ إلى الأعلى وأبقي ظهري مستقيماً، ثم أهبط فجأة فأحني رأسي وظهري وأترك يديّ تتدليان إلى جنبيّ. وكوثر تصير تضحك فيما هي تهزّ رأسها كأنها تقول لي: بلى.. بلى.. هكذا هو.

ـ المتعلمون كلهم مثله؟ أسألها.

ـ المتعلمون الفقراء مثله.

كانت تعرف أكثر مما أعرف. لأنها أكبر مني، ثم أنها كانت قد تعلّمت في المدرسة، وهي ظلّت تتعلم حتى قبل أن يتزوجها أخي عاطف بسنتين.

ـ الذين يقفون هناك تحت عمود الكهرباء ليسوا مثله.

ـ ليسوا فقراء.

ـ أغنياء؟

ـ لا فقراء ولا أغنياء.

ضحكتُ. أعجبني ما قالته عنهم فقد كانوا يبدون لي مثلما قالت، لا فقراء ولا أغنياء. وكنت أرى ذلك في البنات خصوصاً. كانت زوجة أبي تقول إنهن يدفعن على الثياب أكثر مما معهن. وأنا لا أرى ذلك في ثيابهن وحدها، بل في هيئاتهن أيضاً. في شعورهن المالسة ووجوههن التي تظل بيضاء لا تسوّدها الشمس..

ـ فقراء لكن يعيشون مثل الأغنياء، قلت موافقة.

ـ لا فقراء ولا أغنياء، ردّت كوثر مستمهلة نفسها لتصحّح لي ما قلته:

ـ هم يحبّون أن يقلّدوا الأغنياء.

وهن، البنات، يعرفن كيف يفعلن ذلك. لا يبدين يقلّدن أحداً حين أراهن ماشيات بجانب الطريق ولا يبدو عليهن أنهن يفعلن ما لا يليق بالبنات حين يمازحن السيارات التي تقف بجانبهن. كنت أقول لكوثر إنهن بحركاتهن وليس بجمالهن يرغّبن الشباب بأنفسهن.

ـ لأن لا أحد يمنعهن عن شيء، قالت كوثر.

ـ تجدينهن جميلات؟

ـ لا جميلات ولا قبيحات.

ـ وسط؟

ـ . . حسب المرات، قالت بعدما راحت تتذكرهنّ صافنة ناظرة في وجهي.

لمن ينظر إليها مبتسمة لكن مقفلة شفتيها ستبدو له أجمل منهن. لا أقول ذلك عن وجهها تحت المكياجات الذي هو ناشف وبلا لون، بل عن وجهها الذي تعرف كيف تجمّله. وهذا، الممكيج، صار وجهها لأنها لا تترك أحداً يراها قبل أن تجلس أمام المرآة لتلوّنه. أنا الآن، حين أتذكرها، أجدها هكذا، مغطية وجهها بالبودرة السميكة ومكحّلة عينيها باللون الأسود الغامق وموسعة الحمرة القوية على شفتيها الرفيعتين. وأنا كنت أعرف أنها ستبين حتى أجمل لمن يراها من بُعد. لكنها لا تخرج إلى الشرفة ليروها. تظلّ في الداخل، بين غرفتها والمطبخ الذي تغلي فيه قهوة وتطبخ أكلاً لأولادها، أو جالسة على تلك الكنباية في الصالون حين يكون الأولاد يلعبون في فسحة الدرج.

ـ تعالي نقعد على البلكون، أقول لها.

لا تقبل. كنت أحبّ أن أريهم إياها، هكذا جميلة، من تلك المسافة. لا لأنني كنت أكره ما يفعله بها أخي عاطف، ولا لتصير تكلّم أحداً من الواقفين هناك، تحت عمود الكهرباء. لا أعرف كيف أقول ذلك الآن، ولم أكن أعرف كيف أقوله في ذلك الوقت. ربما أردت فقط أن يروا كم أنها جميلة، ثم تعود بعد ذلك إلى الداخل ولا تفكِّر فيهم أبداً.

«لا تحب أن يحكي عليها أحد»، كانت تقول زوجة أبي بعد أن تنهي شغل البيت وتقعد في الصالون ناظرة إلى البحر من الباب المفتوح. «وهذا مشغول بالشراميط يأخذهن ويجيبهن بسيارته التي

مثل سيارة العكاريت». كانت حمراء مكشوفة وهو يظلّ يلمّعها ويزيد عليها أضواء وزمامير. «عاطف، جاء عاطف..» كان يقول أخوتي الصغار راكضين، ليعودوا بعد ذلك إلى البلكون ليشاهدوه جالساً في السيارة المكشوفة ورافعاً عينيه إلى الأعلى. «قومي يا كوثر»، أقول لها لكي يراها كيف هي جميلة فيصعد. في مرات كان يكتفي بأن يفهمنا بتحريك يده أنه سيكمل طريقه ويصعد إلى البيت في عودته. وكان يعود مرة ومرة لا يعود. يقول وهو داخل من الباب أنه اشتاق للولدين ويسألنا إن كانا نائمين، وإن كانا مع أمهما في الغرفة. يكلّمني بصوت تسمعه هي لتخرج تاركة الولدين لوحدهما. «خرجتْ»، يسألني، فأومئ له برأسي مع أنه يكون قد أحسّ بها مارّة من ورائه.

ـ تركت الغرفة أكيد؟

مرة أخرى أومئ له برأسي وأشير بإصبعي بعد ذلك إلى المطبخ ليفهم أنها صارت هناك. «إنتظري هنا»، يقول لي كأنما من أجل أن أحرس باب الغرفة فلا يدخل إليها أحد وهو فيها مع ولديه. لكنه لا يبقى طويلاً معهما. لا أكثر من الوقت الذي يلزمه ليحملهما، واحداً بعد واحد، ويكلّمهما فيما هو يحدّق في وجهيهما من ذلك القرب: «خلص»، أقول له، مستعيرة ما يجب أن تقوله كوثر التي لا تعود من المطبخ إلا بعد أن تسمع خبطة الباب القوية.

ـ أنا لو كنت في مكانك أتزوج رجلاً غيره.

لا تجيب. فقط تبتسم لي فيما هي تتقدم باتجاه الغرفة لترى كيف هما الولدان.

ـ أقصد أن تخرجي مع رجل غيره، أقول لها من حيث صرت واقفة لصق الباب الذي أبقته مفتوحاً. وهذه المرة ستلتفت إليّ وتبتسم أيضاً مبقية عينيها محدّقتين فيّ.

أقول لها ذلك لأنني أكره ما يفعله بها. ثم أنها تحتاج إلى أن تنام مع أحد. جسمها يحتاج إلى ذلك. كل النساء يحتجن. المتزوجات خصوصاً لأنهن تعوّدن. أنا أحتاج أيضاً، لكن ليس مثلها. زوجة أبي تحتاج، لكن تحتاج أقل.. أقل بكثير لأنها صارت كبيرة ولا شيء في منظرها يدل على أن شيئاً بات ينقصها بعد سفر أبي. لم يضعف جسمها ولا صارت تسرع في مشيها ولا صار وجهها ممصوصاً كما هو وجه كوثر تحت الماكياج. من كانت مثل كوثر، متزوجة وتركها زوجها، لا يكفيها أن تفعل ذلك لوحدها تحت اللحاف أو في الحمام. تظل تحتاج إلى أن تفعله حقيقياً. بل أنها، إن فعلته لوحدها، ستحسّ بعد أن تنتهي أنها تحتاج إلى رجل يأتي الآن. هذا ما بتّ أعرفه أنا بعد أن صرت متزوجة.

ـ لكن تعالي لنقف على البلكون، فقط لنتسلّى.

ـ أقف على البلكون لأنظر إليهم وينظروا إليّ؟

ـ نتسلّى.. ونمزح..

مع أنني كنت أعرف أنها لن تكون مثلي حين أخلط الحاجة باللعب. ستحتاج إلى شيء يحصل. أن تكلم أحداً من الواقفين هناك، بتلك السرعة التي تمشي بها في البيت، لتسأله، بعد يوم واحد، في أي مكان ستراه.

وأنا أريدها أن تقف هناك قبالتهم من أجلها ومن أجلي أيضاً. لكي لا أكون وحدي حين أحرقصهم وأعرف، فيما هم ينظرون إليّ، أنهم يقولون أشياء فظيعة عني. أريد أن تخرج معي إلى البلكون لكي نصير نضحك أنا وهي ولكي نزيد في حرقصتهم.

ـ هذا شيء عندكم في العائلة، قالت لي بعدما رأتني ألحّ على أن تأتي معي. «هذا في الطبيعة»، قالت قاصدة أخي الذي يظلّ مصاحباً النساء الفاسدات وأبي الذي يتحرّش بأي امرأة يراها، حتى هي، زوجة ابنه.

* * *

لا أشتاق إلى الزهرانية لأنّني، وأنا أتذكرها الآن، يخطر لي أن أهزّ يديّ إلى الأمام كأنني أرفض شيئاً أو أدفع عني شيئاً لا أحبّه. كان زوجي يتعجب من كرهي لها خصوصاً وأني لم أعش قبلها في مكان آخر سواها. «مثل المنام»، أقول له حين يسألني إن كنت أتذكّر شيئاً من بيتنا الأول.. تلك الأرض المزروعة بشتلات الخسّ المرتبة صفوفاً وأنا أقفز من فوقها، صفّاً بعد آخر، هاربة من ركض أمي ورائي. وأتذكر أيضاً يوم مجيئنا إلى الزهرانية لكن مع زوجة أبي وليس مع أبي. كنا في الشتاء وكانت تمطر، وأبي يقول لي «عجلي.. عجلي» وأنا واقفة تحت المطر لا أعرف ماذا أفعل. كانت فردة المشاية قد خرجت من رجلي وأنا، بدلاً من أن أعود وألبسها، رحت أتطلع فيها كأنني، بعينيّ المسلّطتين، سأمنع الماء من أن يجرفها.

ـ هبلا، يقول ممازحاً إياي، لكن من دون أن يضحك أو يبتسم.

لم يكن في الزهرانية بيوت كثيرة. فقط بيوت المسيحيين التي تحت الطريق ومحلات قليلة تفصل بين أحدها والآخر قطع أرض واسعة. لا أتذكر إن كان بيت أبو تيسير قد جاء قبلنا أو أننا نحن جئنا قبله، لكنني، مع ذلك، لا أستطيع أن أتخيّل أنه لم يكن موجوداً في أيّ يوم. الحجارة الضخمة التي في أسفل سوره العالي تبديه كما لو أنه أقدم حتى من بيوت المسيحيين. ثم أنني أتخيّل أن كل شيء يجري هناك، وراء ذلك السور، قديم هو أيضاً وعتيق. «عنده كل شيء»، كان أبي يقول بعد كل واحدة من المرات القليلة التي يذهب فيها إلى هناك. «إسألوني ما ليس عندهم»، يقول حين يخطر له أن يلاعبنا، فنروح نحن، أنا وأخي عاطف، نتسابق على أن نسمّي شيئاً ليس عندهم مثله. «عنزة»، أقول، فيجيبني أبي إن عندهم عنزة؛ بسكلات، يقول أخي؛ ثم أقول أنا أرنب فيردّ أخي من بعدي «حصان». «عندهم حصان»، يجيب أبي قبل أن أعيد عليه سؤال أخي، «حصان.. عندهم حصان؟». «حصان صغير»، يقول أبي فيما هو يرفع يده عن الأرض على قدر ما هو الحصان الصغير.

ـ حصان مثل الكلب؟

ـ مثل كلب كبير.

ـ قوي لنركب عليه.

ـ الصغار، لا يحمل إلا الأولاد الصغار.

أكون قد تحولت إلى أن أكون في اللعبة هذه وحدي، إذ يصير أخي، مثل أبي، ينتظر أن أقول أي شيء لنضحك.

لكنني لم أحب أبداً أن أذهب إلى بيت أبو تيسير. فوق الزحمة في الأشياء عنده، والتي يروح يعدّدها لنا أبي بعد أن ننتهي من لعبتنا، كنت أضيف أشياء أخرى تخيفني. «إنه صوت البقرة»، كان يقول لي أخي عاطف، بعدما أسأله، وأنا ممدّدة، لأوقظه من خوفي، إذ كان الصوت كأنه يطلع من شدق هو في عرض بوز سيارة. ثم يقول لي إنها الضفادع حين أحسّ بأنها تقترب وأنها صارت هنا تحت بيتنا. كنت أحبّ أبي وأخي وليس الزهرانية. وكنت أصدّق زوجة أبي حين تقول لي بأنني يجب أن لا أخرج إلى الطريق لأنني، إن خرجت، ستدهسني السيارة وأموت. ولم يأخذني أحد للتفرج على البحر، لكي أراه قريباً مني أقصد، فأستطيع أن ألمس ماءه بيدي أو برجلي. «كيف نذهب إلى هناك»، كان يسألني أبي لكي أتذكر ما كان قاله لي قبل ذلك: «من أين نذهب ولا طريق تأخذنا إلى هناك».

كوثر راحت تقول لي، بعدما صارت تعيش في بيتنا، أن كل ذلك لا يكفي لأن أكره الزهرانية. بل أنها تصير تضحك نفسها فيما هي تردّد: «البقرة.. ضفادع.. صوت البقرة». وأنا، إذ أروح أفكّر بما تقول، أبدأ بأن أفتش في رأسي عن سبب آخر لكرهي الزهرانية.

- زوجة أبيك؟

- يمكن.

لم أكن أكرهها. كنت أكره صوتها الذي، بعد أقل من دقيقة، لا تعود تتحكم فيه فيصير يطلع مثل أصوات الرجال. كما كنت أكره رجليها، ليس فقط قدميها الحافيتين اللتين تجرهما جراً على

الأرض، بل أيضاً سمنتهما فوق القدمين، هناك في ساقيها اللتين تكادان تفتقان الجلد الذي يغطيهما.

لا تقتنع كوثر بأنني لا أكرهها، لكنها، مع ذلك، تقول لي: تذكري، تذكري.

وأنا لا أتذكر أشياء كثيرة. حتى أن الأشياء التي أتذكرها، أتذكرها كأنها حدثت مرة واحدة. كأنني خفت مرة واحدة من صوت البقرة ومرة واحدة أتذكر ملاعبة أبي لي ولأخي عن بيت أبو تيسير. أو كأنني مرة واحدة مشيت في بيتنا، حافية أيضاً، مثل زوجة أبي، مع أنني لم أتركه أبداً حتى تزوجت.

فجأة وجدت نفسي وقد صرت كبيرة. كأن كبري استعجل عليّ. كأنه سبقني. حتى أنني أفكِّر أن ثدييّ نبتا وأنا بعد طفلة. كنت ألعب مع أخوتي الصغار وأنا لي ثديان. لكن زوجة أخي كانت تقول إنهما ظهرا في العمر الصحيح وأنني لم أعد صغيرة. لكنهما لم يصيرا بالغين بعد، تقول لي فيما هي تنظر إليهما ممسكة إياي من كتفي. روحي البسي ثيابك، تقول لي ناظرة إليهما فيما أكون أنا أستدير لألبس ثيابي ذاتها، تلك التي كنت أظنّ أنها تعصر الثديين عصراً. ما زالا صغيرين على الصدرية، كانت تقول، وهي ظلت تقول ذلك حتى صارت الحلمتان تظهران مثل طبعتين على فستاني أو على قميصي.

كانا في حجم ثدي امرأة حين ألبستني الصدرية لأوّل مرة، قالت لي كوثر حين صرنا نحكي بعد ذلك عن جسمينا أنها لم تطق نفسها وأنها كانت تبكي كلما رأتهما يكبران ليصبحا مثل أثداء النساء. أنا لا. أمام المرآة رأيت جسمي في شكل جسم امرأة

أحبّ أن أكونها. لا أقول ممشوقة لكن لي صدر كسّمته الصدرية وكسّمتْ جسمي من تحته.

* * *

كنت أظن أنني لا أفعل شيئاً حراماً حين أكشف لتيسير عن جسمي. ليس ذلك مثل أن أكشفه لأحد من أولئك الذين، كلما رأوني، يروحون يتكلمون عني من دون أن ينظروا في وجوه بعضهم البعض. كنتُ أظن أن الشيء يكون حراماً على قدر ما يفهم من يراه أنه حرام. ثم أننا، أنا وكوثر، كنا نلعب ونتسلى ولم نكن نقصد أن نذهب في تسليتنا إلى أبعد من ذلك. حين كنت أشير بإصبعي إلى اللّه، كنت كأنني أجرّب تيسير إن كان يفهم بالحرام. فقد كان ينظر إلى الأعلى، حيث يدلّ إصبعي، كأنّه سيرى اللّه، ثم يعيد نظره إليّ، محدّقاً فيّ لكن من دون أن يبدو مركّزاً بعقله. وفيما كنت أتظاهر بأنني أكلّمه هو فيما أنا أتمتم بشفتيّ، كان ما أفعله هو أن أكلم كوثر، الواقفة ورائي:

ـ لا شيء، أجيبها بصوت التمتمة.

ـ ما زال ممسكاً بالأقفاص؟

ـ ما زال.

ولم يكن يريد أن يفهم أو يسمع ليعرف أنني أكلمه هو بتحريك شفتيّ. فقط تلك النظرة التي كأنها وحدها تشتغل فيه.

ـ فكّي له زرّاً ثانياً.

ببطء رحت أُخرج الزر من العروة، وبتردّد، كأنني أسائل نفسي إن كان عليّ أن أفعل ذلك حقّاً.

ـ لا شيء؟

ـ لا شيء، تمتمتُ.

بعد أن فككت الزر الذي يكشف عن أسفل ثدييّ، أرجعَ رأسه إلى الخلف وانتفخت رقبته للحظة كأنه ابتلع شيئاً ثقيلاً.

ـ الآن، ماذا يفعل الآن؟

ـ يبلع ريقه.

ثم، حين رآني عدت إلى إغلاق طرفي القميص، ظهرت على عينيه تلك النظرة الخفيفة، لكن المتوسلة، سائلة إياي أن لا أتوقّف.

ببطء أيضاً، وبتردّد، رحت أباعد بين طرفَي القميص.

أعاده ذلك إلى صفنته، ناظراً فقط إلى حيث انكشف من صدري. وأنا بقيت واقفة هكذا مثل صنم مبقية يديّ مبعدتين ما تمسكانه.

ـ ماذا يفعل، صارت تهمس كوثر من ورائي، مرة بعد مرة.

ـ إنه يُنزل الأقفاص ليضعها على الأرض.

قبل ذلك كان قد انتبه فجأة إلى أنه ما زال يحملها، فراح ينقّل نظره بينها، ثم أحنى جسمه ليوصلها بعد ذلك إلى الأرض.

ـ يريد أن أفكّ له الزر الباقي.

طلب ذلك بحركة عينيه ذاتها، تلك الحركة التي يعرف كيف يقول فيها إنه يريدني أن أتقدّم، أن أقفز قفزة أخيرة إلى الأمام.

لكن كان عليّ أن أتوقف قبل أن أكشف له عن كل صدري.

بدأت بإغلاق الأزرار، الأول، الثاني، ثم لوّحت له بيدي من أجل أن يذهب.

ـ لماذا توقّفتِ؟ سألتني كوثر فيما أنا أقترب منها مكملة إغلاق الأزرار.

قلت لها إن وجهه صار أحمر وأن الدم يكاد يفرّ منه.

كان ما زال واقفاً هناك، حيث هو، حين عدت إلى الشبّاك لأرى إن كان ذهب. نفضت يدي مشيرة باتجاه الطريق، لكنه بدا أنه سيظل واقفاً. ولم يتحرّك من مكانه حتى حين نظرت إليه تلك النظرة الساخطة.

كان ما يزال هناك حين عدت مرة ثانية.

التفتّ إلى حيث تقف كوثر وهززتُ رأسي مقلّدة حركة الرقص.

ـ مثل ما تفعل القطة.. سيظل في مكانه، قالت كوثر.

كنت أستطيع أن أغلق درفتي الشباك، لكنني كنت أحب أن أرى كيف سيذهب، وكيف سيمشي الخطوات التي توصله إلى الطريق

في حرقصتنا لتيسير نصير أنا وهي كأننا في عمر واحد. لا تعود تكلّمني ناصحة إياي، وأنا لا أعود أكلمها كأنني أستفهم منها ماذا عليّ أن أفعل. وفيما يكون تيسير ما زال منتظراً في الأسفل، ناظراً إلى الشباك المفتوح، تبدأ تسألني: هل وضع يده في جيبه؟ هل وضع يده فوق عضوه ليغطيه؟ هل ذبلت عيناه؟

صرنا بما نفعله لتيسير، مثل رفيقتين في عمر واحد. حين تلتقي إحدانا الأخرى، هناك بين المطبخ وغرفتها أو في الصالون حين تكون جالسة تدخّن، أقول لها كلمة لأضحكها أو أقرصها قرصة خفيفة لا تتلف البودرة التي تغطي خدّها. وهي تبتسم لي، أو تضحك إن كان مزاجها رائقاً. في أحيان أذكّرها بما بيننا فأروح أباعد بين طرفي قميصي أو، في أحيان أخرى، أقف إلى جانبها وأصنّم جسمي مثلما يكون تيسير في وقوفه تحت الشباك. حتى أنني، من أجل أن أسلّيها أكثر، صرت أقف على البلكون أمامهم، ليس عند زاويته بل عند واجهته، وأترك عينيّ تنظران إليهم للحظات أعود بعدها إلى التلفّت حولي، كأنني أنتظر أحداً تأخر عن المجيء.

ـ أنا لو كنت محلّك لا ألعب معهم.

لأنهم زعران، كما تضيف، وكثيرون، ثم أنهم إن فعلوا شيئاً فإنما يفعلونه لكي يحكوه لبعضهم البعض.

وأنا أعرف ذلك من دون أن تقوله لي. حتى أنني، من دون أن أسمعهم، أكاد أعرف ما يقولونه فيما هم ينظرون إليّ. أعرف ماذا كانوا يقولون قبل أن يتقدم واحد منهم خطوات إلى وسط الطريق ليمازحهم بأنه ذاهب إليّ. وهم، وراءه، يحمّسونه قائلين له أن يبرهن عن رجولته ثم يقولون له بعد ذلك، حين يستدير ليرجع إليهم: خفت يا جبان.

ـ كان ينظر إليك وهو يقطع الطريق؟

يخاف، يقطع الطريق كأنه ذاهب إلى محلّ الألعاب. وحين

يرجع إليهم يشير بيده إلى وليد ويقول له، مثلاً، إن أخاه يسأل أين هو.

وهو، وليد، يضحك لهم كما يضحكون هم. يجعل نفسه واحداً منهم حين يكون بينهم. يتكلم مثلهم عني وهم يسمعونه من دون أن ينظروا إليه. هو مثلهم حين يكون معهم، واحداً منهم. وهو واحد منهم حين يكون خارجاً من بيته، قاطعاً فسحة الدرج بخطوات عريضة لكي يبدأ نزوله المسرع على الدرجات، هارباً من أي شيء قد يظهر أمامه.

ـ ليس هم، لا تفعلي ذلك أمامهم، تقول لي كوثر حين تراني عائدة من الشرفة مبتسمة كأنني تمكنت من إغاظتهم وتركهم هناك يتكلمون معاً ناظرين في وجوه بعضهم بعضاً هذه المرة. ليس هم، تقول لي فيما هي تُطلع من فمها كلّ الدخان الذي كانت قد ابتلعته. «اللعب معهم ليس لعباً»، تقول فيما هي تنظر في عينيّ مخوّفة إياي ممّا هو أكثر من زعرنتهم بالحكي.

* * *

كأنما لتفهمني بأن ما نفعله مع تيسير هو لعب فقط. وأنا أعرف الآن أنه لم يعد كذلك. كنت ألعب يوم كنت أقف له، هناك عند زاوية البلكون وأروح، أمامهم وهم واقفون ينظرون إلينا، أشير بإصبعي إلى عصافيره أو أكوّر شفتيّ لأمثل أمامهم أنني أقبّله. كان ذلك لعباً لأنه كان يجري أمامهم، من أجل أن يشاهدوه وإن كانوا، فيما هم يضحكون على تيسير، يصيرون يحكون أشياء عني. الآن صارت كوثر تقفل باب الغرفة من لحظة ما أقول لها: هذا هو، لقد جاء. يكون هو ينظر إلى الشباك منذ أن يبدأ نزوله

حاملاً أقفاصه التي لم يعد، حين يقف، يرفعها من أجل أن أراها وأكلّم عصافيرها. بل أنه بات يضعها على الأرض منذ أن يقف، ليخلّص يديه منها. يكون بذلك يستعدّ لوقوف طويل وأنا، لأغيظه، أروح أمسك الشباك من درفتيه كأنني سأقفله، أو ألوّح له بيدي أنني سأتركه وأستدير مبتعدة عن الشباك. وفي مرات أتركه وحده في الأسفل وأكون أنا واقفة بقرب كوثر لا أفعل شيئاً إلا إطالة انتظاره.

تقول كوثر إن ذلك لعب وأنا أعرف أنّها لا تكون تلعب فقط. تصير تمدّ رأسها إلى ناحية الشباك وتغمز لي أن أتقدم إليه لأرى إن كان تيسير ما يزال هناك تحته. وهي في أحيان أخرى تدفعني إلى أن أستعجل هامسة لي بأننا لا نستطيع أن نبقى طويلاً مقفلتين الباب. لم يكن ما نفعله لعباً، وإن كانت تقول إنه كذلك. لو كان لعباً لملّت ولقالت لي، فيما أنا أدعوها إليه، إنها لا تحب أن تقوم أو أنها ستقعد الآن مع الولدين. وأنا، كلما أحسست بها واقفة ورائي في الغرفة، مسندة الباب بظهرها، أروح أستغرب إذ تخطر لي هيئتها الأخرى، تلك التي تكون فيها بمفردها ولا تكلّم أحداً.

ـ يكفي؟ أسألها.

وهي لن تجيبني تماماً بما تريد.

ـ على الأقل انظري إن كان ما يزال هناك.

وأنا أعرف بأنني أغيظها بتباطُئي، حيث أسير منقّلة خطواتي كأنني، بعد كل خطوة، ألتفت إليها وأبدو كما لو أنني أسألها ماذا عليّ أن أفعل الآن.

وهي لا بدَّ تفهم لماذا أفعل ذلك. يبدو لي من وجهها المحتقن كأنها على وشك أن تكرهني. أو تنظر إليّ تلك النظرة التي تقلبنا عن الحال الذي وضعت نفسها فيه، وأفكر أنها، بعد لحظة ستمدّ يدها إلى مسكة الباب وتفتحها لتخرج.

لكنني، في لحظة حنقها تلك، أتقدم إلى الشباك الذي لم تعد تفصلني عنه إلا خطوتان. بإيماءة خفيفة من رأسي أخبرها بأنه ما زال هنا، واقفاً في مكانه. وهو يبتسم لي إذ يراني، بشفتيه، وبعينيه أيضاً اللتين باتتا رطبتين لكثرة ما تطلعتا في فتحة الشباك. يستطيع أن يظل منتظراً هكذا، واقفاً وقفته ذاتها. لا أكثر من أن يرفع يده ليشير بإصبعه إلى صدري، مرة واحدة، ثم يعيدها بعد ذلك كما هي، كأن بقائي ناظرة إليه لم يغيّر فيه شيئاً.

ـ «أنت. . أنت»، قلت، متمتمة، فيما إصبعي أنا تشير إلى وسطه هذه المرة.

أخفض رأسه لينظر إلى الأوفرأول الطويل، بادئاً من أسفله، ثم منتقلاً بعد ذلك للنظر إلى جنباته.

لم أعرف إن كان فهم.

ـ «أنت»، قلت له قبل أن أقرّب يديّ من صدري وأبعدهما كأنني أكشف عما تحت قميصي.

لم يفهم، أو ربما فهم لكنه لم يعرف ماذا يفعل. ظلّ ينظر إلى حيث يشير إصبعي ليعيد بعد ذلك نظره إليّ.

فتحتُ زراً من قميصي، من الأعلى هذه المرة، وقربت رأسي نحوه بتلك الحركة التي تعني: أنت، الآن دورك أنت.

وقد فهم، لأنّه بدأ يتلفت حواليه، إلى الأعلى، هناك حيث

بيته، ثم إلى الطريق التي لا يراها من حيث يقف. لكن تلفّته لم يكن ليوصله إلى أن يبدأ بإنزال سحابة الأوفرأول، وأنا كنت أعرف ذلك.

ـ لا تخف، قلت له فيما أنا أمسك بأصابعي الزرّ الذي سيكشف، إن فتحته، عن صدري.

وقد فهم أيضاً أنني لن أفكّ الزر إلا بعد أن ينزل سحّابته، لكنه، مع ذلك، أشار بإصبعه إليّ لكي أفعل ذلك أنا وحدي.

كان خائفاً، وقد بدأ يهز رأسه ويلوي رقبته من ضيقه، ضيقه ذاك الذي سيدفعه إلى أن ينحني إلى أقفاصه ليحملها ويذهب بها.

لم يكن يستجيب. وأنا، حين تأكدت من ذلك، رفعت في وجهه كفّي مفهمة إياه أن ليس عليه أن يفعل شيئاً. بل أنني فككت الزر الذي كانت تمسكه أصابعي، ثم الزر الذي تحته، ثم الذي تحته. لم أكن أفعل ذلك من أجله وحده، بل أيضاً من أجل كوثر. حتى أنني لم أبق طويلاً واقفة له أمام الشباك. لا أكثر من دقيقة، أو نصف دقيقة استدرت بعدها، مبقية أزراري مفتوحة وكاشفة عن صدري كله، كأنما لكي أقول لكوثر: هذا ما رآه.

***

الزهرانية هي بيتنا، هي غُرَفُهُ التي ما زلت الآن، وأنا بعيدة عنه كل هذه المسافة، أستطيع أن أصف كلّ ما كان فيها، كأنني أراها أمام عينيّ. وهي بلكونه، زاوية بلكونه خصوصاً، تلك التي كنت أحسّها، وإن كانت مفتوحة وبلا حيطان، كأنها بيت صغير. وشباكه، والحجارة تحت شباكه التي تجمّعت من شقّ الطريق إلى بيت أبو تيسير. الزهرانية هي الطريق التي تحت بيتنا. منظرها،

ذلك الذي ينتهي عند انعطاف السيارات مكملة طريقها إلى ما بعد الزهرانية. أقصد أن الزهرانية هي بيتنا وما يطلّ عليه بيتنا. إنها أيضاً فسحة الدرج التي تفصل بابنا عن باب وليد وأخيه، وهي ما نشاهده من بيتهم حين ننظر من بابهم الذي يسرعون إلى إغلاقه. الزهرانية هي البيوت والأشياء القريبة، تلك التي لا أحتاج إلى أن أخرج من البيت لأراها. ليس أني لم أنزل إلى الطريق ولم أتفرج على ما حولها، فقد كنت، وأنا صغيرة، أذهب لأشتري ما تحتاجه زوجة أبي لطبخها. لكن لا أذهب إلى أبعد مما تستطيع هي أن تراني، منتظرة إياي عند طرف البلكون حتى أرجع حاملة ما أوصتني عليه. «من أجل أن لا تدهسني السيارات» مثلما كانت تقول، كما من أجل أن لا يعتدي عليّ أحد أو يسرقني. وحين كبرت صرت أخرج أيضاً، لكن لمرات قليلة كان عليّ فيها أن أكون منتبهة إلى ما قد يحصل لي.

كما أنني كنت، وأنا كبيرة، أفكر بمشيتي كيف هي وكيف أبدو للناظرين إليّ، أولئك الذي كان يشغلني أيضاً تلفّتي نحوهم لكن من دون أن أتركهم يلاحظون أنني أنظر إليهم. أي أن عقلي كان منشغلاً بأشياء فيّ وليس في ما هو حولي. كل الذين كانوا يأتون إلى بيتنا، حتى من قبل أن يسافر أبي، كانوا يقولون إن الزهرانية تكبر وأن الساكنين فيها باتوا لا يعرفون بعضهم بعضاً. وأنا كنت أرى البنايات لكنني كنت أفكِّر أنها كانت موجودة من قبل ما أراها. حتى العمّارون الذين أفزع عليهم من أن تنقطع الحبال بهم ويسقطون من علوّهم ذاك إلى الأرض، كنت أفكِّر أنهم كانوا هنا من قبل وإنني سبق لي أن فزعت عليهم. وقد سمعت زوجة

أبي تقول ذلك عني أمام من يأتون لزيارتها، فينظرون إليّ فيما أكون أعبر من أمام الصالون ويروحون يمازحونني. «والناس»، يقولون لي، «الناس، هل تفكرين إنك رأيتهم من قبل؟». كانوا يقصدون الناس الكثيرين الذي سكنوا في البنايات، أولئك الذين قالت عنهم زوجة أبي، التي لا تعرف كيف تعدّ، إنهم مئة ألف.

ثم عادت زوجة أبي لتقول إنهم مئة ألف حين رأتهم مالئين الطريق أوّلهم عند مدخل المسبح وآخرهم في الطريق الصاعدة إلى الهضبة. «لو كانوا نصفهم أو ربعهم لقالت عنهم أيضاً أنهم مئة ألف»، قالت لي كوثر التي كانت تقف ورائي على البلكون قبل أن تذهب إلى الداخل لتحضر ولديها لكي يتفرجا على الناس الكثيرين. «لا أحد يعرف كم هم المئة ألف»، قلت لها لأُسمع زوجة أبي التي، هي أيضاً، راحت تنظر إلى أخوتي الصغار لترى إن كانوا يشاهدون الناس من فوق حافة الدرابزين.

وقد ظلت زوجة أبي تقول إنهم مئة ألف. «مئة ألف»، كانت تقول متعجبة كيف اتسعت لهم البنايات. وحين رأتهم اختلطوا معاً هناك حيث التقى الراجعون بالمتابعين مشيهم أطلقت من فمها أفّ قوية بدا معها أنها ستقول إنهم أكثر من مئة ألف. لكنهم، مع كثرتهم، لا يخيفون. كنا نبتسم لمن يرفع عينيه نحونا منهم، ونضحك على الثخين تحتنا الذي وقف يتفرج عليهم مدهوشاً حتى لا تكاد تفصله عنهم إلا خطوتان لو قطعهما لصار بينهم ولربما مشى معهم.

«بعد سنة سيصلون إلى هنا»، قالت زوجة أبي فيما هي تميل برأسها إلى قطعة الأرض الكبيرة التي بجانبنا. وأنا فكرت أنهم

حين يصلون إلى قطعة الأرض سيقفزون من فوق بيتنا ليملأوا الأرض الخالية التي وراءنا.

ـ إن جاؤوا إلى هنا سيصير بيتنا مثل البيوت التي وراء المحلات، قلت لزوجة أبي.

نظرت إليّ كأنها لم تفهم.

ـ لن تظل الزهرانية مثلما هي، قلت.

كادت تضحك، لكنها اكتفت بأن ابتسمت ابتسامة تدلّ على صغر عقلي.

ـ هناك أيضاً الزهرانية، قالت.

ـ . . .

ـ هنا الزهرانية وهناك الزهرانية.

كنت أعرف ذلك، لكنني كنت أفكِّر أن اسم الزهرانية لا يصحّ على بيوتهم وبناياتهم مثلما يصح على بيتنا والبيوت التي حولنا. وكنت سأسألها إن كانت الهضبة بكل ما فيها تابعة للزهرانية لولا أنها اكتفت من النظر إلى الماشين واستدارت نحو البيت لتكمل شغلها فيه.

في آخرهم باتوا قليلين تفصل بين واحدهم والآخر مساحة لن تمتلئ إلا إن أسرع هؤلاء الأخيرون للحاق بمن سبقوهم.

ـ هذا هو، قلت لكوثر.

ولم أكن أحتاج إلى أن أشير لها إليه فهي رأته في لحظة ما رأيتُهُ. «عرفتُ أنه هو»، قالت لي كوثر فيما هي تقترب مني وتلصق رأسها بكتفي لكي يصير أقرب إلى نظرها. كان يلبس

قميصاً بلا أكمام ليكشف عن زنديه القويين اللذين تخيلتهما، إن لمست أحدهما بيدي، ساخنين من كثرة الدم الذي يجري فيهما. «إنه طويل»، قالت فيما هي تلتصق بي لكي تستطيع أن تراه أكثر لكن من دون أن تترك مكانها ورائي. كان الثخين قد بدأ يتطلع إليه منتظراً أن تأتيه التفاتة منه فيراه. «وجسمه زهري»، قالت كوثر متكلمة عن لون زنديه. وإذ رأته يبتسم لجارنا الثخين قالت لي، من دون أن تنظر إليّ، إنه يعرفه. وأنا كنت قد قلت لها ذلك، بل أنني قلت لها أيضاً إنني رأيته خارجاً من محل الألعاب مودّعاً الثخين برفع يده إلى أعلى صدره.

زادت التصاقاً بي حين ابتعد ولداها، لاحقَيْنِ بأخوتي، إلى زاوية البلكون. كانت تنتظر مني أن أفعل شيئاً، أن ألوّح بيدي مثلاً، أو أن أدلّي جسمي عن الدرابزين، لكي يرفع نظره نحونا فيرانا نتطلع فيه. عرفت ذلك من شدّها على ذراعي التي كانت يداها الاثنتان تحيطان بها، مرة، ثم مرة، ثم مرتين متتاليتين من أجل أن أقوم بذلك مسرعة فقد كان يتقدم في مشيه ليصير في الخطوات التي تجعلنا وراء ظهره.

لم أفعل أنا شيئاً ولم يرفع هو رأسه إلينا. «سيرانا حين يعود»، قلت لكوثر لكي تبقى واقفة بقربي بل وملتصقة بي. كان هذا ما تريده، أن تلتصق بي فيما هي تنظر إليه تحتنا. كانت تمثل رغبتها فيه تمثيلاً، وهي بدأت بذلك من لحظة ما قلت لها: هذا هو. «سنراه في عودته»، قلت لها مع أنني أعرف أنها ستترك ذراعي، الآن، ولن تعود ملتصقة بي.

* * *

زوجي أيضاً يحتاج إلى أحد ثالث كلما وقف أمامي متخيّلاً ما سوف يراه مني قبل أن أبدأ بخلع ثيابي. يكون يفكّر بأولئك الذين في الزهرانية، مقلّباً إياهم واحداً واحداً، ناظرين إليّ مثله، وقريبين إليّ حتى ليلامس جسمهم جسمي. وأنا تعودت على ذلك ولم أعد أجد منظره غريباً حين تكون يداه تتحركان على جسمي فيما عقله يخلط أشياء بأشياء. لو شئت أن أصفه لكوثر لقلت عنه إنه مثل اللوح، أو لقلت إنه يفعلها برأسه أكثر مما يفعلها بجسمه. حين يضع يده على صدري يكون يفكر أن يداً سبقته إلى ذلك. وهو في مرات يقول لي ما يفكّر فيه: هكذا كانوا يضعون يدهم؟ يقول، بالصوت ذاته الذي يحكي به في الصباح حين يقول لي في أي ساعة سيعود. يحتاج إلى أحد ثالث لكنه، فيما هو يتخيله مسابقاً إياه وواصلاً إليّ قبله، يقول لي ذلك من دون أن يوارب أو يتحايل: «هكذا؟»، يقول لي في لحظة ما يضع يده تحت كلسوني وينظر محدّقاً في عينيّ.

كل تخيلاته هذه تمرّن عليها وهو هناك في بيتنا بالزهرانية. كان يديرها في رأسه فيما هو جالس ناظراً إلى البحر، ثم يعيدها إلى رأسه من جديد مغيّراً من كان يضعه معي بواحد آخر سواه. وكان يستطيع أن يقضي ساعتين جالساً هكذا على الكرسي، رافعاً رأسه وكتفيه مثلما يكونان مرفوعين قبل جلوسه. يحتاج إلى أحد ثالث، لكن ليتخيّله أو ليتذكره تذكراً. أنا وكوثر كنا مثله في ذلك، نحتاج إلى أحد ثالث لتبدو واحدتنا للأخرى كأنها تلعب أو تتسلّى. تسألني قبل نصف ساعة من موعد نزول تيسير من بيته إن كنا سنراه نازلاً. إذهبي إلى الشباك، تقول لي، أو تغمز لي لكي

أتبعها إلى هناك. تحتاج إلى ثالث هي أيضاً، لكن لكي يكون موجوداً أكشف له عن صدري وأشير له بإصبعي أن يخلع ثوبه ذاك الذي يلفّه كله والذي لا أعرف أين تنتهي سحابته وأين هي أزراره. هناك، تقول فيما يذهب إصبعها إلى حيث يمكن أن يكون وسط جسمه، هناك في الأسفل الذي لا تراه من حيث تقف ورائي.

وأنا أشير له بإصبعي إلى هناك، وهو يكتفي بأن يتطلّع في الاتجاهات حوله. «لا أحد يرانا»، أقول له بصوت لا أعرف إن كان يسمعه. ولمّا رحت أصرّ عليه زاجرة إيّاه، أوقف تلفته وأنزل يديه إلى وسطه ذاك. لم يتردد كثيراً في إنزال السحّابة لكنه، حين انتهى من إنزالها توقف هناك، وإن كان قد أبقى يديه حولها. كان يحتاج إلى أن أزجره من جديد، بصوتي المهدّد وبإصبعي الذي رحت أهزّه أمامه كأنني أهدّده. «ماذا فعل.. ماذا فعل»، صارت تقول كوثر، وأنا لا أجيبها ولا ألتفت إليها. كانت تفهم أنه بدأ بذلك وهي، مستجيبة لما عرفت أنه يحدث في الأسفل، تركت مكانها بجانب الباب وتقدمت خطوتين أو ثلاثاً لتكون قريبة من الشباك. «أخرجه.. أخرجه»، صرت أقول له مرة بعد مرة ومن دون أن أمهله ليفكر أو يخاف. «الآن..» قلت له كما لو أنني أقولها لمرة واحدة سأقفل بعدها الشباك. أزاح وجهه، لا لينظر إلى شيء بل ليبعد عينيه عما سيحدث. وبيديه البطيئتين أزاح لباساً من تحت الأوفرأول وأخرجه، كبيراً منتصباً كأنه لرجل في كامل عقله.

هززت رأسي لكوثر التي كادت أن تصير ورائي إذ لم تعد تفصلها عني إلا خطوة واحدة. كان ما زال مبعداً وجهه من أجل أن لا يعرف شيئاً ولا يرى شيئاً. «أنظري إليه.. لن يراك»، قلت

لكوثر التي، محاذرة، قرّبت رأسها من ورائي وتطلعت، مختبئة فيّ، إلى الأسفل. رأته، ليس بنظرة سريعة واحدة، بل أنها أبقت عينيها ناظرتين إليه فيما يداها تستندان على كتفيّ. وأنا لم أفعل أي شيء لأبعدها، كأنني لا أكترث لأن يدير وجهه إلينا ويرانا نحن الاثنتين ناظرتين إليه. «قولي له أن يمسكه بيده»، قالت لي، لكنه، في تلك اللحظة ذاتها، أزاح وجهه عن التفاتته تلك، كأنما ليقول إنه فعل ما أردته أن يفعل وأن عليّ أنا الآن أن أكشف له عن صدري. كانت كوثر قد تراجعت إلى الوراء حين رفع وجهه إليّ منتظراً ماذا سأفعل. وحين رأى أني تأخرت عن ذلك، بل وبدا له أنني لن أكشف له عن شيء هذه المرة، غطى عضوه بيديه وراح ينظر إليّ تلك النظرة المتسائلة الخائبة. كانت كوثر ورائي تماماً حين مددت يديّ الاثنتين لأغلق النافذة تاركة إياه هناك تحتها. وفيما أنا أستدير نحوها تاركة ورائي الشباك المقفل، كنت أعرف ماذا ستفعل. ما يفصل بيننا، واقعتين إحدانا بمواجهة الأخرى، أقل من خطوة. لم تتردد في أن تقوم بما كنت أنتظره. من الأعلى، من الزر الذي أبقيتُه مغلقاً أمام تيسير، بدأت، بيديها السمراوين الملونة أظافرهما، بفتح قميصي مبقية عينيها، هي الأخرى، بعيدتين عن عينيّ.

* * *

لم تكن زوجة أبي تفهم تلك الأشياء عن الزهرانية لو لم يقلها أمامها أبي. عيناه الكبيرتان المفتوحتان كانتا تريانه كل شيء. إن خرجت امرأة إلى جنينتها، في أي من بيوت المسيحيين، كان يدير وجهه إليها من فوره، حتى لو كان ينظر في تلك اللحظة إلى رجل

يقطع الطريق هناك بجانب المسبح. وإن توقفت سيارة تحتنا يظلّ ينظر إلى الخارجين منها وهم داخلون إلى محل الألعاب، بل ويظل ينتظر خروجهم ليرى إن كانوا قد اشتروا شيئاً. حتى حين يحرق أبو تيسير زبالته كان يذهب إلى الجهة الأخرى من البلكون لينظر إلى الدخنة المرتفعة سوداء وبيضاء إلى الأعلى. كان يعرف كلّ ما يحدث في الزهرانية، يراه ويفسّره. يقول لزوجته مثلاً إن أُم نزيه كانت مريضة لأنها لم تخرج لسقاية زرّيعتها منذ ثلاثة أيام. وهو عرف مسبقاً بما سيحدث بين أبو تيسير وأولئك الذين كانوا يتمازحون على تيسير ابنه. «قلت لكم إن هذا سيحصل»، قال بعد أن قبض أبو تيسير على ميلاد جاراً إياه من يده ليحبسه عنده في حوشه. ما تعلمتْه منه زوجته هو أن الزهرانية بدأت تتغيّر، كما كان يقول، قاصداً بذلك أنها بدأت تتخرّب. «الزهرانية خُلقت ليعيش فيها ناس قليلون»، صار يقول حين يشاهد البناء يرتفع على الهضبة، طابقاً، ثم طابقاً فوقه، ثم طابقاً ثالثاً في الأعلى. «الزهرانية لا تتحمل»، يزيد على ما قاله. وهذا ما تعلمتْه منه هي، زوجته: إن أشياء سيئة ستحدث مع مجيء الناس، وأن هذه الأشياء ستكون أكثر سوءاً كلما كان هؤلاء كثيرين. أما وقد صار أولئك الذين شاهدتهم ماشين تحت بيتنا، وهم فقط المستأجرون وراء صف المحلات، مئة ألف، وحدهم من دون جميع الباقين، فذلك يعني أن علينا أن نهرب من الزهرانية.

وهي تقول إنه هرب حين تتحدث عن سفره. لكنه هرب لوحده، تقول فيما هي تنظر إلى أخوتي الصغار مفكّرة كيف ستستطيع أن تربّيهم لوحدها. وفي أحيان، حين تجد أن الشغل

سبقها، تصير تكلم نفسها في المطبخ: كأنني تزوجته وتزوجت ابنه، تقول، لكن بصوت يمكن لكوثر أن تسمعه ويمكن أن لا تسمعه. «العتالة عليّ وعليك»، تقول لي لأنني أكون معها في المطبخ أشتغل مثلها. وفي أحيان أخرى تروح تكلم نفسها وتردّ على نفسها: «يظن أن المصاري هي كل شيء»، تقول عن المصاري التي بإصبعين اثنتين تدخلها إلى تحت صدريتها ثم تخرجها منها لا لشيء إلا لكي تتحقق من أنها ما زالت معها لم تضيّعها. «هذه مصاري؟» تقول شاكية من قلّتها. «لا يبقى لنا إلا الفراطة»، «اللّه أعلم كم يصرف على نفسه هناك»، «أنا أعرفه، وهل أحتاج إلى أحد يعلمني عليه».

«خذوني أتلفن له»، تقول، مع أنها تعرف أن لا أحد يأخذها، وأنها، من دون أن يكلّمها أحد، ستبدأ بتبديل ثيابها للخروج. وهي تخبط الباب خبطاً لنعرف أنها خرجت، مرتدية جاكيتتها الجلد وتنورتها السوداء التي ضاقت عليها وقصرت حتى باتت مرتفعة عن ركبتيها. ونحن، أنا وكوثر، نروح نتراهن فأقول إنها سترجع قبل أن تتلفن وتقول كوثر بل أنها ستتلفن هذه المرة.

ـ ما زالت واقفة، أقول لكوثر بعد أن أعود من البلكون، وذلك لأستعجل ربحي عليها.

ثم أعود إلى البلكون بعد خمس دقائق، ثم أعود بعد خمس دقائق أخرى..

ـ إنها تتمشى الآن.

ـ أين، أين هي، تقول لي كوثر وقد خرجت لتقف بجانبي، لكن مستعجلة الرجوع لأنها لا تحبّ أن يراها أحد.

ـ ذاهبة مشياً على رجليها؟

ـ لأنها تعبت من الوقوف، أجيبها.

ـ لكن كأنها تنتظر أحداً، تقول كوثر فيما هي تسرع في الرجوع إلى الداخل.

وإذ لحقتُ بها إلى الداخل، مسرعة أيضاً، كنت أعرف أنها ستؤكد لي ما قالته.

ـ حتى أنها تتطلّع إلى السيارات.. أكيد أنها تنتظر أحداً. إذهبي.. إذهبي أنظري أين صارت.

آنذاك، وأنا بعد في الزهرانية، لم أكن أعرف أن النساء اللواتي في ذلك العمر، يفعلن ما كانت تقوله كوثر. كنت أفكّر أن زوجة أبي هي مثلما تظهر لي، غاضبة تشحط رجليها شحطاً ولا تتوقف عن المشي في البيت رغم ذلك. بل أنني لا أتخيّلها كيف تكون مع السائقين الذين تكلّمهم وكيف تفتح جزدانها لتخرج منه الأجرة التي تعطيها لهم، وماذا تقول لأولئك الذين تعطيهم الورقة التي كُتب عليها رقم تلفون أبي.

ـ أخرجي انظري أين هي..

لم تكن هناك، لا في جهة الدكاكين ولا في جهة المسبح.

ـ اختفت؟ قالت كوثر بعد أن رفعتُ حاجبيّ لأقول إنني لم أجدها.

ـ معقول أن تكون مثلما تفكرين عنها؟

ـ معقول، أكثر من معقول. على كل حال لننتظرها ونرى كيف سترجع.

ولم نتراهن هذه المرة إذ أننا لا نعرف كلانا ماذا نقول. ثم أننا بتنا، أنا وهي، ننتظر معاً ماذا سيحصل.

وكان عليّ أن أظلّ واقفة على البلكون وكوثر، لكي لا أملّ، جلست على أقرب كنباية في الصالون لكي تكلمني من هناك، ولكي تقوم مسرعة حين أقول لها: قومي، ها هي جاءت.

ـ المخابرة ستكون طويلة هذه المرة، قالت حتى من دون أن يكون قد مرّ وقت طويل على خروج زوجة أبي.

ـ لن تعود قبل نصف ساعة أو ساعة، أجبتها.

ـ أين هو محل التلفونات، هل تعرفين أين هو؟

تسألني لكي لا أجيب، لكي ألتفت إليها ولا أعرف ماذا أقول.

ـ دائماً تذهب وحدها إلى هناك.. دائماً؟

تستطيع كوثر أن تقول إنها لا تقصدني أنا بسؤالاتها، هذه التي راحت تلاحقني بها، مع علمها أنني مثلها لا أعرف إلى أين ذهبت زوجة أبي ولا متى ستعود. ما يمكن لي أن أفعله، إن زادت أسئلتها، أن أترك البلكون وأقول لها، فيما أنا أستدير عائدة إلى الداخل: أنا تعبت.

ـ في المرة الماضية، ماذا قالت، هل قالت إنها كلّمته؟

وصلت تعبانة من حرّ الطريق، وهي لم تنتظر إغلاق الباب حتى تبدأ بخلع جاكيت الجلد السوداء تاركة جزدانها يسقط من يدها على الأرض.

ـ قالت إنه لم يردّ على التلفون، أجابت كوثر بنفسها عن سؤالها.

في مرات أخرى كانت زوجة أبي تقول إن الصوت ذاته ظلّ يجيبها، متكلّماً بالإنكليزية التي لا تفهم منها كلمة واحدة.

كانت كوثر كأنها تتسلى بإغاظتي وهي جالسة على الكنباية أو ممدّدة مدلّية رجليها إلى تحت حافتها، وناظرة إليّ. وأنا بتّ واقفة هناك كأنما رغماً عني، ولا أجيب على أي شيء تقوله، وأفكّر أنها تعرف أشياء كثيرة لا تخبرني بها، وليس خروج زوجة أبي فقط.

ـ أنا دخت، قلت مستديرة عن درابزين البلكون ومتوجهة إلى الداخل. ولم أجبها حين راحت تلاحقني بنظرها فيما أنا أخطو متجاوزة إياها وتسألني: إلى أين؟ فقط اكتفيت بأن أمسكتُ جبهتي بيدي كأنني أفهمها بأن شيئاً أوجع رأسي.

* * *

«إننا نلعب»، ظلت كوثر تقول عما نفعله أنا وهي بعد أن نغلق شباك الغرفة. في مرة قلت لها إن من يلعبون يكونون يضحكون في وقت لعبهم. قلت ذلك لأنني أحسست بأن عليّ أن أقول شيئاً، أيّ شيء، لكي أخفّف من قوّة الصمت الذي كنا فيه. لكنها لم تبتسم رغم ذلك، ولم تغيّر نظرتها الثابتة المحدقة في الأزرار التي تفكها، وفي ما تكشف عنه الأزرار المفتوحة بعد ذلك. كانت تنتظر أن نصير بمفردنا، لحظة أن نغلق الشباك تاركتين تيسير لا نعرف ماذا يفعل تحته. لكننا، أنا وكوثر، لا نفعل شيئاً قبل أن يقف لي تيسير، أو أقف أنا له، كاشفة له عن صدري وملحّة عليه، كما في كل مرة، أن يكشف لي عن عضوه وعمّا حول عضوه. في أحيان تخرج من صمتها المحدق لتقول لي إننا يجب أن نأتي به إلى هنا، قاصدة الغرفة المقفلة التي نكون فيها. في أحيان أخرى تصير تتكلم

عن البطل الرياضي الذي جسمه مثل أجسام الممثلين وتقول لي إن هذا أيضاً يجب أن نأتي به لنا، نحن الاثنتين.

لكنني، أنا، صرت أخاف كلما دخلتْ إلى الغرفة من بعدي وأسندت ظهرها إلى الباب بعد أن تكون قد أقفلته. أخاف، مع أنني أنا التي دعوتها لتأتي وأنا التي قلت لها «جاء.. ها هو جاء»، وذلك منذ أن أراه خارجاً من بيتهم. منذ البداية كنت أخاف. كنت أشير بإصبعي إلى الأعلى لكنني كنت أعرف أنني، مع خوفي، كنت أفعل ذلك لأغيظ تيسير. ما كان يجب أن يخيفني هو انكشافي لتلك المساحة الواسعة من الأرض، التي تبدأ من هنا، من تحت الشباك، ولا تنتهي إلا عند معمل الكهرباء الذي لا نرى منه إلا مداخنه العالية. بعد وقت بدأت أحسّ بأن هناك شيئاً يتحرك في مكان ما من حولنا؛ شيئاً يتحرك ثم يتوقف ثم يعود فيتحرك من جديد. وقد صرت أحسّ ذلك بجسمي الذي منه أعرف أنه لم يعد منكشفاً لتيسير وحده، وأن عيوناً أخرى تقع عليه.

وكانت كوثر تقول لي إن ذلك يأتيني من خوفي. «لو كان هناك أحد لرأيناه»، صارت تقول لتذكّرني بأنها، مثلي، تستطيع أن تنتبه لأي شيء قد يحدث في الخارج. لكن أنا أحسّ بشيء، أقول، فتهز رأسها متعجبة من وسوستي.

وقد بقيت أفعل ما كنت أفعله حتى بعد أن نظر إليّ وليد تلك النظرة التي أراد أن يفهمني بها أنه يعرف شيئاً. لم يبتسم لي رداً على ابتسامتي الخفيفة بل أنه زاد عبوسه قبل أن يُبعد عينيه عني ويكمل نزوله راكضاً على الدرج. أراد أن يفهمني أنه يعرف شيئاً وأنه، فوق ذلك ، يكرهني بسببه. وقد قلت لكوثر عن ذلك،

مقلّدة نظرته إليّ وعبوسه. لكن ذلك لم يخفها، وهي اكتفت بأن قالت لي بأننا، فيما أكون أنا واقفة لتيسير، ستكون هي تتطلع منتبهة إلى ما حولنا.

* * *

ما كنت أفعله في الزهرانية حملتُ ذَنْبَهُ معي إلى الدانمرك. صحيح أن لا أحد هنا يشير بإصبعه إليّ ويقول هذه هي، لكنني أفهم أن عليّ أن أقبل كل شيء من دون أن أحتجّ أو أرفع صوتي. «هذا حجاب إلبسيه»، قال لي زوجي من لحظة ما نزلنا من الطائرة، فلبسته وما زلت لا أخرج إلا وهو على رأسي. الشغل في البيوت أحسن من الشغل في المحلات، قال لي بعد أن احترت ماذا أفعل بأولادي. كان عليّ أن أفهم أنه يأتي بي إلى الشغل كل يوم ثم يعيدني إلى البيت من الشغل لأني لا أُترك لوحدي. ومع أنه يعرف أنني كنت لا أستطيع الخروج من هناك قبل انتهاء دوامي، بقيت أتحسّب لمجيئه، لا ليشتري شيئاً، لا ليقول لي شيئاً، بل ليراني فقط أمسح الأرض ممسكة عصا المسح الطويلة بيديّ الاثنتين. وأنا تعودت على أن أراه، مستديراً باتجاه بوّابة الخروج وذلك من لحظة ما يقع نظره عليّ. حتى أنه ربما أتى مرّات كثيرة رآني فيها ولم أره أنا. هي هنا، يقول لنفسه، ثم يخرج مطمئناً إلى أنني هنا مع مسّاحتي. ما كنت أفعله في الزهرانية، ما عرفه عما كنت أفعله هناك، كان مثل هدية كبيرة أعطيت له. وهي هدية مدوبلة لأني لا أستطيع الآن أن أشتكي من كوني أشتغل في بيتنا وفي بيوت الناس وذلك لأنه قَبِل بي بالرغم مما يعرفه عني. كما أن ما يعرفه عني أعطاه تلك الصور التي

يتخيّلني فيها مع آخرين سواه يفعلون بي ما يحبّ هو أن يفعله بي. ليس فقط أولئك الذين كان يراهم متجمعين تحت عمود الكهرباء ويستدعيهم بخياله واحداً واحداً، فيما هو جالس على الكرسي متهيجاً، بل يزيد عليهم ناساً آخرين لم يكونوا أبداً في الزهرانية. «هكذا كانوا يفعلون؟»، يقول لي منقّلاً يديه على جسمي كله وغارزاً أصابعه في داخلي. وهو يريدني أن أجيبه على ذلك، أن أوافقه، أن أقول له «بلى، هكذا كانوا يفعلون بي». هذا أيضاً هدية أُعطيت له وهو أخذها، بل أنه يعود إلى أخذها مرة جديدة كلما خطرت صورها في رأسه. في أحيان كان يترك شغله ليأتيني بادئاً بخلع ثيابه من قبل أن أفتح له الباب، ثم يعود، من فور ما ينتهي، إلى الشغل الذي كان تركه. لا يسألني كيف كان شغلي في البيت الذي كنت فيه. لا يقول لي شيئاً عن الأولاد. عشر دقائق فقط يذهب بعدها ولا يقول لي متى ينتهي دوامه. في أحيان كان يرجعني إلى بيتنا بعد أن نكون قد قطعنا نصف الطريق. «نتأخر على المرأة»، أقول له، فيجيبني بأنها تنتظرني في بيتها ولا يهمّ إن تأخرتُ عن موعدها نصف ساعة.

وهو بدأ بتجميع تلك الصور في رأسه حين كنت بعد في الزهرانية. «هذا هو؟» يسألني كلما وقعت عيناه على وليد واقفاً مع رفاقه هناك تحت عمود الكهرباء. أو يقول لي، فيما أنا أوصله إلى فسحة الدرج: «هذا بيته؟» وأنا يخطر لي أنه لم يأتِ إلى بيتنا إلا لأنه سمع ما كان الناس يقولونه عني. كأنه بدأ يتهيج عليّ حتى من قبل أن يراني. على تلك الكرسي التي كان يجلس عليها ساعات. كان يختار واحداً من بينهم في كل مرة. «وهذا أيضاً؟» يسألني،

مرة ليعرف إن كان فعلها معي ومرة إن كان رآني، مثلما رآني سواه، واقفة على الشباك كاشفة عن صدري ومداعبة نفسي بيديّ. تيسير أيضاً كان بين الذين جمع صوره في رأسه. في ظنه أن تيسير مثله مثل سواه ما دام أن له عضواً وما دام أنه كان يكشفه لي: «كبير؟» كان يسألني. «كنت تتخيلين أنك تمسكينه بيدك؟» أو يسألني كيف أني لم أختلِ به أبداً، «ولا حتى مرة واحدة؟».

ولم يكن يخرج من بيتنا من دون أن يلقي تلك النظرة على الباب الذي أمامه. النظرة التي يراني بها أدفع بيدي الباب الذي تركه وليد مشقوقاً وأخطو بقدمي عابرة العتبة التي أصير من بعدها في الداخل عنده. وكان هو، زوجي، يريدني أن أعرف إلى ماذا ينظر وماذا يرى. «من هنا كنت تدخلين إليه»، كأنه يقول لي في التفاتته إليّ قبل أن يبدأ نزوله على الدرج، مسرعاً، ليتركني أعاقب نفسي على ما فعلته.

وأنا أيضاً أروح أنظر إلى ذاك الباب بعد نزوله. كنت أقف خلفه لأهدّئ أنفاسي التي سرّعتها تلك الخطوات القليلة، وأستمهل وليد بأصابع يدي المضمومة لأنه، مثلي، كان يخاف من أن يطول بقائي عنده. من نظرته العابسة، التي تعني أنه يعرف شيئاً، عرفت أنه لا يتهمني فقط ولا يؤنّبني فقط. كان يرميني بها في صعوده ونزوله مقوّياً عبوسه في كل مرة؟ حتى أنني رحت أقلّب يديّ الاثنتين كأنني أقول له: أخبرني، ماذا فعلت؟

لم يكن ذلك مثلما يمكن أن يكون معهنّ، هن البنات اللواتي يعرفن كيف يلبسن وكيف يضحكن وكيف يرفعن أصواتهن ليسمعهن الشباب الذين سبقوهن بعشرين خطوة. لم يكن يكلّمني

مثلما يكلّمهن، ولم يكن يتمهّل مثلما يتمهل في مشيه بقربهن أو في التفاته إلى من تكون تتكلم منهن، متمهلاً أيضاً ومستحياً أن ينظر إليها. معي كان يبدأ هناك، وأنا بعد مستندة إلى الحائط وراء الباب. كان يستعجل أن يكشف عن صدري، عن ثدييّ اللذين، لحظة يندلقان أمامه، يأخذني من يدي إلى الغرفة القريبة من الباب، تلك التي كان هو وأخوه يضعان فيها الأغراض التي لا يحتاجانها. وأنا أظلّ ساكتة مثله سامعة أنفاسه وناظرة إلى يديه اللتين أروح أرفعهما عني بيدي بدل أن أقول له إنه يوجعني. وهو يبقيني هناك، في تلك الغرفة، حتى حين يروح يتطلع حوله مفتشاً عن شيء يمكننا أن نتمدّد عليه. وكنا نظل هناك، حيث نحن، واقفين، محاذرين أن نُطلع صوتاً يسمعه أحد. ولا حتى كلمة واحدة، يقولها لي أو أقولها له. فقط يداه، ويداي تزيحانهما لتتوقّفا عن أن توجعاني. أو أضع يديّ فوقهما لتبقيا حيث هما لكن لتوجعاني أقل. أو ليمسك بهما هو ويأخذهما إلى وسطه.

كنا نفعل كل شيء، في تلك الغرفة؟ هناك أروح أتطلع حولي لأعرف ماذا أفعل بسائله الذي ملأ يديّ. وهو يريدني أن أعرف ماذا أفعل، فأمشي في اتجاه المطبخ القريب لأغسل يديّ بحنفيّته. يكون هو ينتظرني أن أخرج بعد ذلك، أن أخرج مسرعة ليبدأ بمفرده تنظيف نفسه، ولكي يندم، بمفرده أيضاً، على ما أوقع نفسه فيه.

* * *

وقد نجت كوثر مما صارت الزهرانية كلها تحكيه عني. كأنها عرفت أن ما كنا نفعله، أو ما كنت أنا أفعله، لن يظل محصوراً في

تلك المسافة بين ما أقف وتيسير الذي يقف تحتي. عرفتْ أن ما أفعله سينكشف وستحكي فيه الناس، لذلك كانت تظل مختبئة ورائي وتقول لي، فيما هي مسندة ظهرها إلى الباب، ماذا أُظهر لتيسير وتسألني كيف يقع ذلك عليه. لقد نجت. مرة واحدة سألني زوجي إن كانت تُظهر نفسها مثلي وإن كانت تعرف بما كنت أفعله. مرة واحدة فقط، كأنه سمع عن شيء بيني وبينها ولم يعلق كثيراً في رأسه. أو كأنه، ربما، أراد أن يحتفظ به، أن يبقيه سرّاً لنفسه يقوّي به شهوته وتهيّجه.

لقد عرفتْ بما يحكونه عني قبل زوجة أبي التي جرّتني إلى تلك الغرفة ذاتها التي كنا نصير فيها لوحدنا، أنا وكوثر، بعد أن نقفل شبّاكها تاركتين تيسير واقفاً تحته. جرّتني زوجة أبي جرّاً إلى الغرفة ودفعتني دفعاً إلى داخلها قبل أن تبدأ بسؤالي ماذا فعلت، أو ماذا كنت أفعل، لتقاطع نفسها بأن تقول لي إن أبي، لو علم بذلك وهو هناك، سيأتي إلى الزهرانية ليذبحني.

كما أنها، هي كوثر، عرفت من قبل أن يعرف أبو تيسير، الذي أخفى ابنه في بيته وراح ينزل تلك الطريق بمفرده ناظراً إلى الشباك منتظراً أن تنفتح درفتاه ويظهر أحد من خلفهما. «من أخبره»، كانت تتساءل زوجة أبي قبل أن تعيد تساؤلها بكلمات هي من نوع ما يستعمله التحريون: من بلّغه، من أوصل له.. مذكرة نفسها ومذكرة إياي أيضاً ببيتهم الذي لا يدخل من بوابته أحد. تيسير.. تيسير..؟ صارت تقول متعجبة كيف يمكن أن يكون الذي فعلته قد فعلته معه.

كوثر عرفت قبلنا أنا وزوجة أبي، وقبل أبو تيسير الذي ظلّ

ابنه يقف أياماً تحت ذاك الشباك ينتظر أن ينفتح لأظهر أنا في وسطه. كنت أراه من شقوق الخشب واقفاً يتسلى بالتلفّت وبرفع رأسه إلى الأعلى، ثم بالتلفّت مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال. وأنا، في الغرفة المعتمة أنتظر كوثر التي لا تأتي. لم أحب أن أفعل ما كنت أفعله وأنا وحدي. بل أنني لن أعرف كيف أفعل ذلك من دون أن تكون هي في الغرفة معي، مختبئة ورائي، أخلع ثيابي لها ولتيسير وأصف ما يجري في الأسفل لها ولي.

توقفتْ عن أن تدخل إلى تلك الغرفة. وأنا صرت أخرج إلى البلكون أنظر حوله ولا أجدها تنتظرني حين أعود منه إلى الصالون. صرت وحدي، حتى أنها راحت تبقي مسافة بينها وبيني فتغيّر طريقها أو توسعها حين تجد أننا ماشيتان إحدانا في اتجاه الثانية.

كانت تكلّمني فيما هي ذاهبة بفنجان القهوة إلى غرفتها، لكن الكلام السريع الذي يقطع ما كنا أنا وهي فيه. أو تكتفي بأن تشير بإصبعها إلى غرفتها بدلاً من أن تقول لي، بالكلام، أنها ذاهبة لترى ولديها. أو تنظر إلى ما تكون تحمله بيديها بدلاً من أن تقول لي أنها تأخذ هذا الصحن أو هذه الركوة إلى المطبخ. كانت تريدني أن أنسى، وتلك السرعة التي انقلبت هي بها، عما كان بيننا. أن لا أعود أنتظر سؤالاً منها، أو حركة من تلك الحركات التي كنا نتبادلها ونحرص على أن لا يراها أحد غيرنا.

كنت أحبّ أن أحكي لها عن وليد وعما نفعله أنا وهو في غرفة بيتهم. حتى أنني، حين أكون معه، أروح أفكِّر أنني يجب أن أحفظ الأشياء التي نفعلها كأنني سأحكيها لها حين ننتهي وأرجع أنا

إلى بيتنا. ذاك لأنني أكون أتخيّل أنني أفعل تلك الأشياء معها. في تلك الغرفة، غرفتنا، بعد أن أغلق شباكها، كانت تقترب مني وأنا واقفة هناك ما زلت، ممسكة بيدي مقبض الشباك. وأنا كنت أنتظرها لتقترب. لم يكن ذلك لعباً، ولا حتى شيئاً يشبه اللعب. أقصد أنني، حين تضع يدها على صدري، أو حين تلامس شفتاها شفتيّ، لا أحسّ بأن جسمي وحده يحبّ ذلك بل أحسه إيضاً بنفسي. أجدني عندما تلتصق بي أحيطها بذراعيّ كأنني أحضنها لأقربها أكثر إليّ.

لم يكن جسمي وحده يحبّ ذلك فقد كنت، فيما هي تنقّل يديها بين صدري ووسطي، أروح أقبّل كتفها القريب إليّ. ليس جسمي وحده. مع وليد لم يكن يحدث لي ذلك. كنا نفعل ما نفعله متباعدين أحياناً، منفصلين، تاركين بيننا مسافة لأيدينا. كلانا كنا نسرع إلى إنهاء ما نفعله لأنسلّ أنا إلى بيتنا من فور ما أغسل يديّ. ولم يكن هو يتأخر عني فبعد دقيقتين سيكون نازلاً على الدرج، راكضاً، بل قافزاً، هكذا بما لا يلائم منظره الذي يكون فيه عابساً كأنه يشتم أحداً.

«تتدلّعين مع كل الذي فعلتيه؟»، كانت تقول لي زوجة أبي فيما هي توسع حركة من يدها لتشمل مساحة واسعة من الأرض تبدأ من هنا، من حيث نحن، لتصل إلى بنايات الهضبة كلها. كل هؤلاء عرفوا بي، تحاول يدها أن تفهمني أو تذكّرني. ثم تذهب يدها إلى البلكون لتشير إليه، أو لتصوّب إصبعها إليه، مرة، ثم مرة ثانية، لأفهم أن الجالس هناك على الكرسي مريض في عقله، لا بدَّ، لأنه يقبل بي.

ـ تقول إنها لا تحبُّ الدانمرك.

وكوثر، التي شكت لها زوجة أبي ذلك، تتوقف قليلاً لتنظر إلينا معاً.

ـ أنا لو كنت في مكانها لا أتأخر دقيقة عن الذهاب.

ثم تنهي ما قالته بإغماض عينيها لأفهم أن الدانمرك حلم تحلمه.

وإذ تبدأ بأن تكمل مشيها الذي أوقفته، تقول لها زوجة أبي:

ـ أَفْهميها، أقنعيها، قولي لها إنها لا يمكن أن تعيش هنا.

وكان ذلك يجري في وقت ما يكون هو جالساً على البلكون، قريباً منا، لكن لا يرانا لأنه لا يغيّر جلوسه ولا يميل برأسه ليرى ماذا يدور وراءه.

ـ ليس الدانمرك، بل هو.

قلت ذلك فيما أنا أنظر في وجه كوثر.

ـ وماذا ينقصه «هو»، قالت زوجة أبي معاودة إرسال إصبعها إلى حيث يجلس.

كدت أقول لها إنه مثل اللوح وإنه حين يجلس يبدو كأنه ما زال واقفاً وإن جاكيتته تظهره مثل أولئك الذين في عمر جدودنا.

وهذا مما قد تفهمه كوثر وليس هي، زوجة أبي.

ـ كلّميها، قولي شيئاً.

ـ أنا قلت أنني أسافر الآن لو كنت في مكانها.

ـ تسافرين معه؟ مع واحد مثله؟

لم تجب. فقط أعلت حاجبها قليلاً وهزت رأسها من أجل أن لا تُفهمني شيئاً.

تريدني أن أسافر. أن أفهم أنني لو بقيت هنا فلن أعود، أو لن تعود هي، إلى ما كنا فيه.

* * *

في كل مرة أكون مع وليد في بيته أفكِّر، وأنا هنا، إنه كان أحسن لي لو بقيت حيث أنا في بيتنا. وفي أحيان كان يخطر لي أن أعود إلى بيتنا وأنا عند بابهم ألهث من خوفي أن يكون قد رآني أحد. أقول له إنّي ذاهبة فيقف في طريقي ويمسك يدي لكي يدخلني إلى تلك الغرفة. لن نتأخر، يقول لي. وأنا أعرف أننا لن نتأخر. بل أعرف أن إقباله عليّ سيتحوّل إلى عبوس وسخط بعد أن ينتهي، مفكراً هو أيضاً أنه كان أحسن له لو بقي في بيته بمفرده. لكنه، مثلي، يصير يكثر من الصعود والنزول على الدرج، فاتحاً باب البيت ومغلقاً إياه بعد دقيقة لأعرف أو لأسمع فأفتح درفة بابنا لأراه. ولا أحتاج منه إلى أن يهمس بكلمة، أو أن يقوم بأي حركة. يكتفي بأن يوقف نزوله على الدرج، ويستدير عائداً إلى بيته ليدخله بعد أن يترك لي الباب مشقوقاً.

لا أكثر من خمس دقائق أكون في آخرها قد خرجت. خمس دقائق أو عشر لن ينتبه لغيابي فيها أحد، أفكِّر، لا أخوتي ولا زوجة أبي ولا حتى الرجل الجالس هناك، مديراً ظهره إلى كل شيء وراءه. في مرات، وأنا أستدير عن المدخل الذي ألهث فيه أقول لوليد، مبررة خروجي، إنه هناك. . كيف نفعل ذلك وهو هناك. وهو لا يجيب. ربما لأنه، إن أجاب، يكون يؤخِّر ما يجب

أن ننهيه سريعاً. ثم أنه يفضّل أن لا يتكلم، وأن لا أتكلم أنا أيضاً. يعرف أن الرجل ذاك جالس الوقت كله ينتظر، لكنه لم يقل عنه كلمة واحدة. لم يسألني إن كنت سأتزوجه ومتى، أو إن كنت سأرحل معه إن تزوجته. في وقت ما نكون معاً، أنا وهو، في تلك الدقائق الخمس أو العشر، لا يبدو لي مكترثاً لأي شيء يخصّني. ربما يدير ذلك في رأسه، مبقياً إياه هناك في رأسه. ذاك لأنه يعرف عني ما لا يحبّ أن يقوله لي. أو أنه لا يحبّ أن يقول ما يسمعهم يتكلمون به عني. في أحيان أقول بيني وبين نفسي إنهم يحكون إشاعات عني، لكنني أعود فأقول إنها ليست إشاعات، ثم أعود فأفكر بل أنها إشاعات لأنهم، لا بدَّ، يخترعون أشياء لم أفعلها ليسلّوا بعضهم بعضاً بي.

وليد، في تلك الغرفة، يفكِّر فيما سمعه عنّي لا فيّ أنا. تكون يداه تتحركان على جسمي بحسب ما يذكّره به رأسه. وهو لا يحتاج أن يكلمني بسبب ذلك. ولا يغيّر في شيء أن أكلمه أنا. أن أقول له مثلاً يريدونني أن أسافر إلى الدانمرك. أو أقول له أنا لا أكره الدانمرك فأنا لا أعرفها، لكنني لا أحبّ أن أكون زوجته. أو أقول له أكثر من ذلك، أقصد أشياء من نوع ما نقوله لمن نحبّ أن يستمعوا لنا. «لا أحب الدانمرك ولا أحب الزهرانية»، مثلاً، سيكتفي بأن ينظر في وجهي، إن قلت له ذلك، كأنه تفاجأ، أو كأنني قلت شيئاً لا يخصّه.

ـ هذه آخر مرة أجيء إلى هنا، قلت له.

لم يجب. كان منتظراً خروجي لينشغل بنفسه.

ـ لا تقل شيئاً لأحد عنا.

لم يجب أيضاً.

كان في أكثر لحظاته ابتعاداً عن التفكير بي وبما أقوله. وقد ظلّ على عبوسه الذي يبديه نادماً ومرتبكاً، بل وقرفاناً مما فعل. فقط تلك النظرة التي أوقعها مرة ثانية على وجهي. لم تكن تعني أنه يتساءل، أو أنه يريدني أن أزيد شيئاً على ما قلته، كأن أفسّر له لماذا لن أجيء. هي نظرة سريعة تبديه نصف متفاجئ مما قلت، نصف راغب بأن أستعجل في الخروج.

* * *

الدانمرك لا أحبّها. الزهرانية أيضاً لا أحبّها. يوم كنت أعيش هناك لم أكن أفكِّر أنه سيأتي يوم أقابل فيه بين الزهرانية ومكان آخر فأنا لم أفكِّر بأن ما حصل لي سيحصل لي، أقصد أن أكون مثل أبي الذي لم أكن أتخيّله، وهو في أميركا، إلا ماشياً في الطريق مقلِّباً نظره في البنايات التي أمامه كأنه يبحث عن مكان ينام فيه. أعرف أن الدانمرك قريبة من أميركا، أو إنها أقرب إليها من الزهرانية، حيث كنت. لكنني، هنا أيضاً، لا أتلفن له ولا يتلفن لي. صرت أفكِّر فيه لأنني صرت مثله، أو أنني صرت أقرب إليه منهم جميعاً، أقرب من أخي عاطف وأخوتي الثلاثة الآخرين، ومن زوجته التي راحت تقول لي: أهربي.. أهربي.. أهربي معه. ولم تكن تعيد تذكيري هذه المرة بما فعلته وبما يحكونه عني، فقد عرفتْ أنني سأظل كما أنا إن اكتفت بذلك. كنت سأظل أقول لها أنني أحتاج إلى أن أفكِّر. أهربي.. أهربي، راحت تقول فيما هي تنفض راحتيها كأنها تدفعني بهما دفعاً إلى الخارج، لكي أهرب مسرعة قبل أن يحدث شيء مما كانت تنتظره. «كنت أقول

ذلك ولم يصدّقني أحد»، صارت تردّد بعد أن سمعنا أصوات المدافع في تلك الليلة. «صارت قريبة»، قالت من فورها، ثم خرجت إلى البلكون كما لو أنها، إن تلفتت حولها وهي هناك، ستعرف أين يتحاربون. أهربي وأرسلي وراء أخوتك ، راحت تقول فيما هي تكرّر نفض يديها كأنها توحي بأن على كل الناس، وليس نحن وحدنا، أن يسرعوا إلى التخلص من كل شيء.

«انظري. . انظري كيف صارت السيارات»، تقول لي مادّة إصبعها إلى الأسفل. وإذ ترى أنني لم أعرف ماذا جرى للسيارات تسألني إن كنت لم أنتبه إلى أنها باتت تسير مسرعة وتكاد أبوازها تصدم مؤخراتها.

بلى مسرعة، أجيبها بعد أن أبدو أمامها كأنني لاحظت ذلك لتوّي، من هذه النظرة إلى الأسفل.

ـ ولماذا هي مسرعة، تسأل نفسها هذه المرة، ثم تجيب نفسها: تسير مسرعة لأن السواقين يريدون أن يصلوا قبل أن يحدث شيء.

في الأيام الأخيرة قبل سفري لم تتوقف عن إخافتي. «تعالي. . »، ثم تأخذني بيدي إلى البلكون لتريني سيارتين اصطدمتا وتحلّق ناس كثيرون حولهما. «هذا من السرعة، من سرعتهم».

في مرة أخرى جرّتني جراً من يدي لتريني «هذا الذي اسمه بشع مثله»:

ـ ديك. . وطاووس أيضاً هذا الذي يسمونه «ميخا»؟

كان يسير بمفرده عند خط البيوت التي في الأسفل، كأنه

يحرسها. ومن حيث كنا واقفتين على بلكوننا كنت أرى عينيه الخائفتين والمتحدّيتين مبحلقتين مفتشتين عن شيء.

ـ هل رأيت أحداً منهم يلبس قميص العساكر قبل اليوم؟

ولأنها صارت لا ترى الأشياء إلا متغيّرة، بدأت تخاف هي أكثر مما تخوّفني. حتى أنها أخذت تسألني عن شيء رأته من أجل أن تعرف إن كان ما تظنه فيه صحيحاً وليس من أجل أن أراه أنا وأصدّقه: «هذه السيارة هناك عند بيت أم نزيه كانت في بيت أهل ميخا»، تقول لي لأوافقها أن السيارة لا تكون مثل السيارات التي نعرفها حين تمرّ على بيتين اثنين.

ـ ستذهب إلى بيت ثالث، أكيد، انتظري لتري.

* * *

لم أكن أحتاج إلى أكثر من أن أقف بقربه وأشير له بإصبعي أن قمْ، ليقوم عن كرسيّه ويخرج لتحضير الأوراق التي تلزمني لسفري. ليس أني رضيت به، لكنني بدأت أفكِّر مثلما يفكِّر الكبار الذين في عمر زوجة أبي. كلّ شيء انسدّ، صرت أقول بيني وبين نفسي. أولئك الذين يقفون تحت عمود الكهرباء لم يعودوا، حين ينظرون إلينا كلهم معاً أو كل منهم بمفرده، يفعلون ذلك كأنهم يلعبون. ليس ذلك لعباً، كنت أقول لكوثر حين نكون في الغرفة معاً. وها هم الآن لا يلعبون إذ لا يظهرون مبتسمين فيما هم يديرون الكلام عليّ.

وليس أني رضيت به بسبب الحرب التي كانت تخوّفني منها زوجة أبي. حتى أنني، فيما هي تخترع كلام التخويف، كنت أفكِّر

أن ذلك لو حدث سيكون أحسن لي. سيكون شيئاً جديداً يلتهي به الناس ويوقفون كلامهم عني. ثم أن كوثر قرّبتني من أن أقبل به، بكلمة واحدة قالتها لي قبل أن تعود إلى غرفتها: «جربيه»، قالت، ففهمت أنني أستطيع تركه إن لم يعجبني.

من حيث أقف في مدخل الصالون رحت أنظر إلى زوجة أبي تتقدم نحوه. كانت المسافة التي تفصلني عنهما واسعة، لكنني لم أكن بحاجة إلى أن أسمع ما ستقوله له. هي كلمة واحدة لا أكثر: «قَبِلَتْ»، ثم سيلتفت إليها هو مبعداً وجهه عن جهة البحر، وسيقول شيئاً، لا يهمّ ماذا هو. لا يهمّ أن أسمعه أو لا أسمعه. قام عن الكرسي. قال كلمة لزوجة أبي قبل أن يدير وجهه في اتجاه الصالون، ربما ليرى أين أنا. لم يرني. كنت قد سبقت نظرته إليّ بأن قفزت تلك الخطوة التي أبعدتني إلى المطبخ.

ـ ماذا قال؟ سألتها بعد أن أقفلت الباب وراءه.

ـ ماذا قال؟ لا شيء.

ـ لا شيء؟

ـ قال إنه سيمر في الصبح ليأخذ الصور والأوراق، هل لديك صور؟

# حديقة أبي

لأني صرت كبيراً في التاسعة والعشرين وبعد سنة في الثلاثين لم يعد يضربني. يهزّ إصبعه الثخين قرب عينيّ وفي مرات يدقّ به على جبهتي، لكن لا يضربني. يقول لي رح إلى هناك لأنه لا يريدني أن أظل واقفاً أساعده في الشغل. حطّه ورح إلى هناك، يقول لي لأنني بقيت واقفاً لا أعرف ماذا أفعل بالرّنش الكبير. ولأني لا أعرف أين أحطّه يأخذه هو من يدي ويقول لي رح. . رح إلى هناك. أمشي ست خطوات أو سبع خطوات وأقف. أقف وأظلّ واقفاً حتى يرفع رأسه إليّ ويقول تعال. لم يعد يضربني. تعال إمسك الموتور من هنا. «من هنا؟» أسأله حين أصل إليه، فيجيبني من هنا، مطرطقاً بالبنسا على المحلّ الذي يجب أن أمسكه. أمسك من هنا يقول لي، ولا يكون عالياً صراخه عليّ لأنه صالحني وقال لي تعال. ولا يضربني. حتى أنه لم يضربني حين نترتُ يدي التي كان يشدّ عليها بيده ليجرّني جراً إلى البيت. يا أزعر يا كلب صار يقول لي، وأنا أنتر يدي وأتطلّع ورائي إلى القفصين المتروكين على الأرض. وكان هو يتطلّع مثلي إلى الوراء ويقول يا أزعر يا كلب. وقال أيضاً إنه سيقطعه مني. بالقدّوم قال

إنه سيقطعه بالقدّوم. كانت العصافير التي لم أبعها ساكتة في القفصين على الأرض وشباك الخشب فوقنا مقفل. لكنه كان يتطلع إليه كأنه مفتوح وكأنّ فيه أحداً. وحين وصلنا إلى باب بيتنا الحديد التفتّ أنا لأرى القفصين على الأرض، فدفشني هو دفشة قوية لأصير في الحوش. اليوم سأقطعه، قال وهو يأتي إليّ ليمسكني من يدي الثانية. تعالوا تفرّجوا، صار يقول بصوت عال ليأتي أخوتي كلهم ويتفرجوا عليّ. وأنا نترت يدي الثانية لأفلتها لأني أنا الكبير بين أخوتي وأستحي أن يتفرّجوا عليّ. بل أنني رحت أنتر يدي مرة بعد مرة لأفلتها قبل أن يأتوا كلهم. وهو لم يصفعني بيده، مع أنني كنت أزيح وجهي أو أخبئه تحت كتفي منتظراً أن يصفعني. إلى هنا يا كلب، قال وهو يطلع من جيبه مفتاح بوابة غرفة الموتور، الحديد، لكن الحديد المشبك الذي لا يسكّر على منظر الحوش.

حبسني. لم يقطعه مني بالقدوم لكنه حبسني. ولم يقل لأخوتي أن يبصقوا عليّ مثلما كان يقول لهم قبل أن يصير عمري تسعة وعشرين. لكنه قال لهم أن لا يقتربوا مني ولا يكلموني. لم يقتربوا مني ولم يكلموني. كانوا يحدّقون في بوابة الحديد وأنا أراهم من وراء الحديد المشبك، وهم لا يرونني. لا يرون يدي إن رفعتها إلى أعلى من كتفي ولا يرون رأسي إن حرّكته. أراهم أنا وهم لا يرونني. أعرف هذا من يوم ما حبس أبي ميلاد وقال لنا أن لا نقترب من غرفة الموتور. ميلاد انحبس أقلّ من يوم وخاف. خاف من الكلاب التي قال له أبي أنه سيفلتها عليه وتركها تنبح ولم يربطها فكان ميلاد يراها هائجة من وراء الحديد المشبك. وصار

ميلاد يخبط بوابة الحديد بيده أو برجله ويصرخ بصوت عال أن نفلته، أن نفلته. ولم يأكل الأكل الذي أدخله إليه أبي. ظلّ الصحن كما هو والرغيف كما هو فسكب أبي الأكل على الأرض بعد ذلك لكي تأكله الكلاب، ثم رمى لها الرغيف لتأكله أيضاً. أما أنا فتركني يوماً بلا أكل. يوماً أو أقل من يوم لأني كنت قد فطرت في الصباح جبنة وزيتوناً قبل أن أذهب لأبيع عصافيري. ومنذ أن فتح الباب وأعطاني الرغيف الملفوف وقال لي: كل، صار يأتي لي بالأكل مرة بعد الظهر ومرة في الصبح. مرة واحدة قال لي: كل. بعد ذلك صار يضع الصحن والرغيف على الأرض، أو يعطيني الرغيف الملفوف بيده، من دون أن يقول لي شيئاً ومن دون أن ينظر إليّ. وأنا أيضاً لم أكلّمه ولم أقل له شيئاً. فقط أزيح من طريقه حين يفتح بوابة الحديد بالمفتاح الذي معه ليدخل ويشغّل موتور الكهرباء فأرتاح أنا، بعد أن يهدر صوت الموتور العالي وإن كان يطوّش الرأس، لأنني أفكر أنه سيغضب إن تعطل الموتور ولم يشتغل. سيصير يلبطه برجله أو بيده وسيسبّه أيضاً لأنه يظل يصلحه ويظلّ يتعطّل. كما أنني أفكِّر أنه بعد ساعة، أو بعد ساعتين، سيصير يشفق عليّ لأن صوت الموتور يطوّشني. لكنه، حين يأتي بعد أربع ساعات، لا يكلمني. فقط يطفئ الموتور وأرتاح أنا لأنه أطفأ الموتور.

وأنا كنت أريد أن يراني أحد من أخوتي أو أن يقترب مني ليسمعني أقول له: العصافير، العصافير هناك على الطريق. في الأيام الستة التي بقيت فيها محبوساً كنت أتذكر كيف وضعتُ القفصين على الأرض. أتركها.. أتركها من يدك، قال لي حين

وصل إليّ نازلاً من بيتنا. خفت. كان وجهه مثلما يكون حين يأتي ليضربني. ولما أنزلتها إلى الأرض أمسكني بيده القوية وشدّ على يدي كأنه يعصرها. وأنا لم أقل له: القفصين.. القفصين لأني عرفت أنني لا يجب أن أقول ذلك. كانت العصافير ساكتة فيهما وهي لم تصفّر حتى حين أتتها الخبطة من وقوع القفصين على الأرض. كانت تعبانة من الهزّ ومن الخضخضة في الباص الذي عدت فيه، تعبانة وسوف تموت إن لم تأكل أو تشرب ماء. ولم يأتِ أحد من أخوتي لأقول له: العصافير.. العصافير. كان عليّ أن أبيعها لتلك المرأة التي راحت تنظر إليّ فيما هي تطرق إصبعها الممدود إلى الأسفل لتعرف إن كنت أفهم أنها تدفع ثمنها نصف ما قلته. أو أنها كانت تتسلّى ولا تريد أن تشتري. ربما إن قلت لها أقبل ستجيبني بأنها تدفع ذلك للعصافير والقفصين أيضاً. وقد تقول لي وهي تبتسم وتمزح: لكن أين تريدني أن أضع العصافير إن لم تعطني القفصين؟

«هيا أخرج يا كلب»، قال لي بعد ستة أيام وأنا نظرت إليه لكي أقول له، في وجهه، أنا مش كلب. ربما كان سيضربني لو قلتها. صحيح أنه لم يعد يضربني، لكنني أظل أخاف من جسمه الكبير. أنتر يدي لأسحبها من يده لكنني لا أقول له ذلك. إن نترت يدي يمكن أن يفكّر أنني أنترها لأن شدّه عليها يوجعني، فأنترها مثلما قد أفعل أنا، أو مثلما قد يفعل هو، إن سقطت يدنا على حديد الصاج. لكن أن أقول له أنا مش كلب؟ إن قلتها ستضربني يده من قبل أن يفكّر هو أن يضربني. كان الأوفرأول الذي ألبسه قد صار أسود من دخان الموتور، ووجهي أسود يسوِّد

إصبعي كلما مسحته به أو حككته. وهو رآني أسود كلّي من دخان الموتور وقال لي أن أروح أغتسل. وأنا، حين خرجت من بوابة الحديد المشبّك أحسست بأن عليّ أن أتجدّب وأطلع الصوت الذي أطلعه كلما تجدبت. آآآآي أقول فيما أرفع يديّ إلى فوق رأسي وألوي ظهري إلى الوراء. لكنني لم أفعل ذلك أمامه. لوحدي عرفت أنه لن يحب أن أفعل ذلك أمامه. لكنني وقفت لأتطلع في الحوش وهو لم يقل لي رح.. رح ولم يدفشني بيده لأمشي. كان عابساً زاماً شفتيه لكنه كان شفقاناً عليّ. وأنا أحبّ أن يشفق عليّ وأن يفكّر، وأنا أسود هكذا وتعبان، إنه ندمان لأنه حبسني في غرفة الموتور. ولم يكن أحد من أخوتي واقفاً في الحوش. فقط أنا وهو. أنا واقف وهو واقف ورائي كأنه ينتظرني. بعد قليل سيقول لي رح.. رح.. أمشِ لكنني مع ذلك أحببت أن يكون واقفاً ورائي لينتظرني. أخوتي في البيت كلهم، وراء الشبابيك، ينظرون إليّ أسود وتعباناً وواقفاً وورائي يقف أبي. وقد استحيت وأنا أتذكّرهم واقفين وراء الشبابيك لأنهم عرفوا أنني كنت أفتح الأوفرأول لأفرجي سلمى. حين سأراهم ينظرون إليّ سأستحي وسأنظر إلى الأرض. حتى أنني سأظل أنظر إلى الأرض إن سألت واحداً منهم يكون يتطلع بي إن كانوا يُطعمون عصافيري ويسقونها ماء. أو أسأله عن الأقفاص والعصافير في الأقفاص التي تركتها على الأرض. ستكون قد ماتت إن لم ينزلوا ليجيبوها، وأنا، في غرفة الموتور، كنت أفكِّر أنهم نزلوا إليها لأني أفكر أن أبي قال لهم أن ينزلوا ليجيبوها. وإلا ستكون قد ماتت لأن لا أحد يمشي على الطريق ليراها ويسرقها. ستكون قد ماتت، وأنا كنت

أتخيّلها ميتة ملقية على ظهورها في كعوب القفصين. بل ميتة ويابسة من الشمس التي سقطت عليها يوماً بعد يوم بعد يوم.

كنت أبعدها عن أيديهم وأخبئها وراء ظهري ثم أُرجعها إلى جنبيّ أو إلى أمامي لكي لا يأخذوها مني ويمدّوا أيديهم إلى العصافير ويؤذوها.. هاتها.. هاتها. صار يقول لي ميلاد ويضحكون هم. طوني يضحك وجوزيف يضحك وميخا يقول لي كيف تبيعها إن كنت تحبّها هكذا. ميلاد كان يحرقصني وهو الذي كان يمسك بالأقفاص ويشدّها إليه. لكنني كرهت ميخا وهو يسألني كيف أنني أخاف عليها ثم أبيعها، أو يسألني إن كنت أقليها في بيتنا وآكلها. ميلاد ليس لئيماً، ميخا لئيم. «هل تأكل منها.. هل تأكل منها»، كان يسألني، لا ليغيظني ولا ليضحك مثلما يضحكون. كان يريد مني أن أجيب على ما يسأله وأنا أروح أنظر إليه فيما أكون أقلِّب الأقفاص من ورائي إلى أمامي إلى ورائي إلى جنبيّ. كنت أنظر إليه، إليه وحده، ليعرف أنني أكرهه. وهو ظلّ يسألني كيف أبيع العصافير بعد أن أربّيها وكيف آكلها إن كنت آكل منها. ولم يتوقف عن سؤالاته حتى حين صار وجهي أحمر كلّه وصرت أتنفس كثيراً كأنني كنت أركض وتعبت من الركض. كيف تُزوّجها، يسألني وهو يحدِّق فيّ بعينيه الكبيرتين كأنه ينتظر مني أن أجيبه كيف أزوّجها. كانوا يضحكون من حوله وهو يظل يسأل كأنه يريد أن يعرف، كأنه حقاً يريد أن يعرف. كيف انطعج رأسك؟ يقول لي وهو يقرِّب يده من رأسي وأنا أُبعد رأسي قبل أن تلمسه يده. هاتها، كان يقول ميلاد وهو يمدّ يديه من حولي ليمسكها، وأنا لم أكرهه مع ذلك. ليس لئيماً. ميخا لئيم.. هو الذي كان

يجب أن يحبسه أبي وليس ميلاد. كان يجب أن يشدّه من يده كما شدّ ميلاد من يده ويحبسه في غرفة الموتور ويدير الموتور وليس أن يبقيه مطفأ مثلما أبقاه مطفأً لميلاد. وأن لا يفتح بوابة الحديد ليخرجه إلا حين يصير أسود كله، ثيابه سوداء ووجهه أسود وتظهر عيناه كأنهما مفتحتان في الليل. «من غيره؟»، قال لي أبي قبل أن يأخذ ميلاد لوحده شادّاً على يده. «قل لي مَنْ غيره»، وأنا لم أقل شيئاً. لم أقل له إنّه ميخا، «هذا ميخا» الذي كان عليّ أن أشير بإصبعي إليه ليراه أبي. كان أبي سيمسكه من يده أيضاً ويأخذه جارّاً إياه هو وميلاد إلى غرفة الموتور. ويمكن أن يضربه هناك أيضاً إذا قلت لأبي إنه يظل يتمسخر عليّ ويسألني، فيما هو يمدّ يده إلى رأسي، وأنا أبعد رأسي عنه قبل أن يضع يده عليه، «كيف انطعج رأسك هكذا؟» وكان يقول ذلك كأنه يريد أن يعرف، كأنه يريد حقاً أن يعرف، لكن الذين حوله كانوا يضحكون له. ميلاد يضحك وجوزف يضحك وطوني الصغير يضحك أيضاً. وكان وليد سيضحك مثلهم لو لم يكن أخوه الثخين يناديه في كل مرة ويقول له «وليد»، أو حتى لا يقول له وليد، بل يلتفت إليه فقط ويهزّ رأسه فقط فيعرف أخوه وليد أنه يريده أن يذهب إليه ولا يضحك عليّ مثلهم.

أتركها، أتركها حيث هي، قال لي حين انحنيت لآخذ الأقفاص بيديّ الاثنتين، يدي الأخرى ويدي التي يمسكها ويشدّ عليها ليجرّني. تسعة عصافير تركتها هناك على الأرض بينها اثنان من عصافير الغرام، لونهما أخضر. كانت المرأة التي في عمر الخمسين ستشتريهما لو كانت هناك في بيتها. تحبّ العصافير،

وأنا، بعد أن أصل بالباص، أذهب إليها لأنها تظل تقول لي أن آتي إليها أولاً حين تكون العصافير ما زالت كلها معي. كانت ستشتري عصفورَي الغرام لأنها دائماً تقول لي أن أحضر لها منها. تحب ألوانها. الأخضر أحسن لون، تقول، وهذان اللذان كانا معي لونهما أخضر. أخضر فاتح وحول منقارهما ريش صغير أحمر. لو كانت هناك في بيتها واشترتهما لكانا الآن في ذلك القفص الكبير الذي تستطيع العصافير أن تطير فيه طيراناً وليس تنطّ فقط لتغيّر مكان وقوفها. أقعد أقعد يا تيسير تقول لي. وأنا أستحي أن أقعد. أقعد لنشرب قهوة، تقول وأنا أجيبها أني لا أشرب قهوة. تبتسم لي تلك الابتسامة التي أعرف منها أنني قلت شيئاً كان أحسن لي لو لم أقله. لكنها لا تقول لي لماذا لا تشرب القهوة ولا تظل تسألني الشيء ذاته حين تعرف أنّني لن أجيب عليه. كما أنها لا تنظر إليّ محدّقة بي كما يفعل ميخا حين تسألني: والبنات، هل تحبّ البنات أيضاً؟ هل تحبهن مثلما تحبّ العصافير؟ وكنت أنا أستحي ويصير وجهي أحمر وساخناً.

وأنا أفهم أنها كانت تسألني لتعرف إن كنت أقدر أن أفعل ذلك الشيء مع البنات؛ أن أكون مع بنت وحدنا أنا بلا ثيابي وهي بلا ثيابها. يصير وجهي أحمر ويسخن وهي، في مرة، قالت لي أنني أحب البنات إذن ما دمت أنني استحيت.

ـ أحب واحدة. . اسمها سلمى.

ـ حلوة؟

ـ حلوة.

ظلت تبتسم أيضاً، ابتسامة خفيفة لا تغيّرها أبداً.

ـ وهي، تحبك مثلما تحبها؟

...

أنا لا أُكلم أحداً عن سلمى. هم ميلاد وجوزيف وميخا وطوني ووليد يعرفون أنني أحب سلمى وهي تحبني. حين كنت أقف لأنتظر الباص كانوا يغمزون لي بأنها جاءت إلى البلكون لأقف أنا وأصير أنظر إليها.

ـ تحبني.

ـ وتحكي معها؟

ـ ...

لا تلحّ عليّ ولا تسألني السؤال مرة ثانية.. بل أنها تظل تبتسم مثلما كانت ستظل تبتسم إن أجبتها عليه.

ـ أحكي معها بالإشارات.

ـ لماذا بالإشارات؟

ـ إذا تكلمنا يسمعوننا.

ـ من هم..؟

سكتّ. لأنني إذا كنت سأقول من هم سيوجعني رأسي وأنا أتذكرهم. وهي عرفت من هم على كل حال:

ـ أهلها؟

ـ أهلها.

قلت أهلها لأنني سأوجع رأسي إن بدأت أحسب من هم الذين يمكن أن يسمعونا. أوّلهم وليد حين يكون في محل الألعاب، وأخوه الثخين الذي يظل في محل الألعاب ولا يتركه.

ـ وأنت تحب أن تتزوجها؟

أنا لا أكلم أحداً عن سلمى. لكن هذه المرأة تظل تبتسم لي.. وهي لن تخبر أحداً لأن الزهرانية بعيدة. حتى لو ذهبتْ إليها بالباص لن تخبر عنّي لأنها لا تعرف أحداً هناك لتكلّمه.

كانت ستشتري مني العصافير لو كانت هناك في بيتها: هذا وهذا وهذا، كانت ستقول لي فيما هي تنقِّل إصبعها بين العصافير في الأقفاص، فأذهب أنا إلى جنينتها لأضع العصافير في القفص الكبير، واحداً بعد واحد، وهي تكون واقفة بقربي تنظر إليّ.

ولا تقول لي إنّني طمّاع حين أسألها إن كانت تريدني أن أضع العصفورين أو الثلاثة الباقية في القفص. لن تقول لي ذلك لأننا تكلمنا معاً. ثم أنها لا تسأل عن المصاري وهي تقول لي، كلما اشترت مني: كم أعطيك، وتكون تبتسم أيضاً فيما هي تفتح جزدانها الصغير وتجرّ سحّابته لتفتحه.

كانت ستشتري مني العصافير لو كانت هناك. وربما كانت ستشتريها كلها وأنا كنت سأجيء بالأقفاص وحدها التي لن تتخرّب إن بقيت هذه الستة أيام في الشمس. رأيتُ وجهي أسود في المرآة. أسود كثيراً. أبيض فقط حول عينيّ، لأنني كنت أغلقهما وأفتحهما. أخوتي رأوني أسود قبل أن أتطلّع في المرآة. لم يكلّموني. فقط كانوا ينظرون إليّ. ربما هو أبي قال لهم أن لا يكلّموني. ربما كانوا سيضحكون إن رأوني هكذا لو لم يكن قد حبسني بسبب ما كنت أفعله هناك، تحت الشباك الذي تقف فيه

سلمى. أنا أيضاً لم أكلمهم. بل أنني رحت أبعد عينيّ عنهم وأتطلع حولي كأنني أفتّش عن شيء ضيّعته.

ستكون المياه سوداء على الأرض. مخلوطة بالصابون لكن سوداء. ستكون سوداء أيضاً في اللكن الذي سأغسل فيه الأوفرأول، وهي ستظل كذلك في اللكن حتى بعد أن أغيّرها أربعة أزوام. لكنني أستطيع أن أغتسل على مهلي وأنظف الأوفرأول على مهلي. لن ينهرني أبي وهو يقول لي أن أستعجل. لن يقول لي هيّا قم ساعد أخوتك، لأنني بقيت ستة أيام في غرفة الموتور. بعد قليل سيخرجون كلهم إلى الحوش وأظل أنا في البيت وحدي. قد أنام وقد لا أنام، لكنني سأظل في البيت وحدي. ربع ساعة ويخرجون إلى الحوش، وأنا لن أسألهم عن العصافير إن كانت قد بقيت هناك على الطريق أو إن كان أحد منهم جاء بها إلى البيت. هم الذين يجب أن يقولوا لي، وقبل أن يخرجوا وأظل أنا لوحدي. هم الذين يجب أن يكلموني لأنني زعلان كيف أن أبي حبسني في غرفة الموتور ستة أيام. يكلمونني لكي يراضوني، مثلما يراضونني حين أكون زعلاناً منهم.

الآن سيخرجون إلى الحوش وأظل أنا في البيت وحدي. صوت المطرقة بدأ يدق كأنما على قسطل ثخين يجلّسه أبي. لن يتأخّروا دقيقة وأنا سأظلّ في البيت وحدي. لو كان يريدني أن أشتغل معه اليوم لكان قال لي. يريدني أن أرتاح. أن أغتسل وأغسل ثيابي وأنام. ولا أعرف ماذا سيقول لي إن رآني ماشياً في الحوش ذاهباً إلى السقف الواطئ المسيّج الذي وضعت تحته عصافيري.

سيحبسني في البيت بعد أن حبسني في غرفة الموتور. سينتظر حتى أفتح البوابة الكبيرة ليصرخ بي من حيث يكون في الحوش: إرجع، سكِّر البوابة وارجع. إن حبسني في غرفة الموتور ستة أيام فسيحبسني هنا عشرين يوماً أو ثلاثين. وستكون سلمى قد اختنقت في تلك الغرفة التي حبسوها فيها هي أيضاً بعد أن أقفلوا شباكها بألواح خشب دقّوها بالمسامير. أنا عرفت ذلك حين نزل إليّ أبي وصار يقول لي إنه سيقطعه لي بالقدوم. أهل سلمى عرفوا أيضاً أنها كانت تكشف لي عن صدرها وأنها في مرة أوقفت نفسها على كرسي عالية لكي أراها أنا تكشف لي عن هناك. لكنها نزلت عن الكرسي قبل أن أرى كثيراً. فقط أنزلت بيجامتها ورفعتها بعد ذلك. ثم نزلت هي عن الكرسي لتفهمني أنها أرتني ولن تريني مرة ثانية. لقد عرفوا قبل أن يعرف أبي، وهم أقفلوا الشباك بالمسامير وحبسوها في الغرفة، وأقفلوا الغرفة بالمفتاح من أجل أن لا تخرج منها وتقف لي هناك، على حافة البلكون.

* * *

كانت العصافير قد صارت كثيرة في الغرفة المسيّجة حين عرفتُ أن أبي سيتركني أخرج إن قلت له أريد أن أخرج. هو لم يجبني بالكلام ولا حتى بحركة يده، تلك التي سينفضها نفضاً كأنه يزيح بها شيئاً من أمامه. كانت العصافير قد صارت كثيرة وصارت زقزقتها تطلع قوية كأنها تتقاتل. فقط نظر إليّ ولم يقل شيئاً. لو كان يريدني أن أظل محبوساً في البيت لكان قال لي أنت هنا وستظل محبوساً هنا. أو لكان قلب يده وأخفضها إلى جهة الأرض، كأنه يمنع أحداً من أن يحرّك شيئاً عن المطرح الذي

وضعه فيه. لكنه ظل ساكتاً، وهو أدار نظره إلى حيث كان يشتغل أخوتي، ثم مشى إليهم تاركاً إياي لأفهم أنه يقبل بأن أخرج.

خرجت لا أحمل شيئاً بيدي لأني لن أذهب إلى أبعد من المحلّ الذي يبيع شرائط الحديد لأشتري منه لفّة. كنت أعرف أن الأقفاص ليست في مكانها حيث تركتها. لقد أخذوها، قال لي أخي جميل. وهم أخذوها مع العصافير التي لا يعرف أخي جميل إن كانت ميتة حين سرقوا الأقفاص أو إن كان نصفها مات ونصفها لم يمت. لكنني، مع أنني أعرف أنها لم تبق هناك حيث وضعتها، رحت أنظر إلى الأرض لأخمّن أين كانت هنا أو هنا أو هنا. ثم بقيت أنظر إلى الأرض مفتّشاً حتى بعد أن ابتعدتُ عن المطرح الذي تركتها فيه. أنظر إلى الأرض ثم أرفع رأسي إلى الأعلى كأنني أذكّر نفسي بشيء ضيّعته. كان شبّاكها ما زال مقفلاً. لكنه مع ذلك كان يمكن أن ينفتح لأنه ليس مدقوقاً بالمسامير ربما، أو إنهم ربما أزالوا المسامير. كنت أمشي على مهلي وأتطلع إلى الأرض، هنا وهناك وهنا وهناك. ولم أزعل كثيراً لأن الشباك ظلّ مقفلاً، لأنني كنت أعرف أنه سيظل كذلك مقفلاً. وفي الأسفل، وقبل أن أصير قريباً من الطريق، رأيتهم واقفين تحت عمود الكهرباء. وقد رأوني هم أيضاً لأنهم كلهم كانوا ينظرون إليّ. وربما رأوني وأنا بعد هناك، حيث كانت الأقفاص، أنظر إلى الأرض وأرفع عينيّ كل دقيقة نحو الشباك المقفل. ولم يهمني أن يعرفوا أنّي أنظر إلى الشباك. حتى أنني، حين صرت قريباً من الطريق، تحت البلكون الذي كانت تقف عند حافته سلمى وتنظر إليّ وإلى الأقفاص لتحرّك يدها للعصافير وتبوسها بشفتيها، نظرت

إلى الأعلى، إلى حافة البلكون، مع أنهم كانوا كلهم ما زالوا يتطلعون بي. حين دخلت إلى الطريق كانوا ما زالوا يتطلعون بي كلهم ولا يتكلّمون مع بعضهم البعض. وأنا وقفت مثلما كنت أقف لأنتظر الباص، مع أنني لا أحمل أقفاصاً بيديّ. وهم ظلوا واقفين يتطلعون بي ولا يتكلمون. ثم رفعت أنا عيني إلى جهة البلكون، لكنني بسرعة أنزلتهما لأتفرج على الجهة التي تأتي منها السيارات.

من هناك، من حيث يقفون، قال جوزف شيئاً، قاله لي، لكنني لم أسمعه.

نظرت إليه أنا، لكن من دون أن أحرّك شيئاً في وجهي.

وهو عرف أني لم أسمع. لذلك مشى خطوة إلى الأمام، وكوّر يديه حول فمه:

ـ تزوّجتْ، قال.

وأنا بقيت أنظر إليه من دون أن أحرّك شيئاً في وجهي.

ـ تزوّجتْ، تزوّجتْ، قال وهو ينزل يده من حول فمه ليشير إلى البلكون.

ولما رأى أنني بقيت واقفاً كما أنا، لا أحرّك شيئاً في وجهي قال، مبقياً يداً واحدة حول فمه:

ـ تزوّجتْ، وذهبتْ.

ثم قال إنها ذهبت مرة ثانية فيما هو يحرّك يده ليفهمني أنها لم تعد هنا في بيتها. ثم حرّك يده مرة أخرى من دون أن يقول شيئاً، وأنا عرفت أنه فعل ذلك من أجل أن يغيظني. ولكي أبدو أني لم أصدقه، أدرت وجهي ورفعت عينيّ إلى الأعلى، إلى حيث

كانت تقف على البلكون. وحين عدت وأدرت وجهي إليهم رأيتهم ما زالوا يتطلّعون بي. وقد بدا عليّ أني لم أصدِّق جوزف لأني لم أنظر إليه وحده. لكن، وفيما هم ينظرون كلهم إليّ، رأيت ميلاد يهز رأسه إلى الأسفل مرّتين، ليفهمني أن سلمى تزوّجت وذهبت، مثلما قال جوزف. ولم يكن ميلاد، وهو يهز رأسه مرتين، يريد أن يغيظني، وأنا لذلك عدت والتفتّ مرة ثانية إلى البلكون في الأعلى كأنما من أجل أن أبدو له إني أنظر إلى البلكون الذي لن تخرج هي إليه.

ثم بعد ذلك مدّ جوزف إصبعه ورسم به خطّاً في الهواء، طويلاً رفعه إلى أعلى من علوّ رأسه. ولأني لم أفهم أعاد إصبعه رسم الخط الطويل. ثم أنهاه بأن مسح بيده خطّاً آخر فوق رأسه.

ـ الطويل.. الرجل الطويل، قال لي ميلاد بصوته وأشار بإصبعه بعد ذلك إلى البلكون.

كنت سأذهب إلى حيث يقفون لو كان ميلاد وحده هناك. ليس أن أصل إليهم وأصير كأنني واقف معهم، لكن أن أذهب إلى جهتهم وأنتظر ميلاد أن يقترب مني، وحده، ويروح يكلمني بصوت أسمعه أنا ولا يسمعونه هم الذين سيكونون وراءه.

ـ الطويل، الطويل على البلكون، قال جوزف وهو يحيط فمه بيديه.

قبل أن ينقفل الشباك كانت سلمى تدلّ بإصبعها إلى شيء، هناك. لكنني لم أفهم. وهي لم تعد تدلّ بإصبعها إلى شيء لأنني صرت أنظر إليها ولا أفهم.

ـ أخذها وذهب، قال جوزف وهو يرفع يده إلى أعلى من رأسه ويحركها كأنه يودّع أحداً.

ـ بالطيارة، قال بعدما أنزل يده: طارت بالطيارة.

وكان ميخا يتطلّع فيّ بعينيه المبحلقتين. لا يفعل شيئاً إلا أن يتطلع فيّ. وكان يتطلع أكثر كلما قال لي جوزف شيئاً، أو كلما قال لي ميلاد شيئاً. حتى أنه لم يكن يرى جوزف وهو يحرّك يده، ولا ينظر إليهم من حوله ليرى كيف يتطلعون فيّ. يسمعهم فقط. يسمعهم وينظر إليّ. وأنا كنت أبعد عينيّ عنه أو أجعل نفسي لا أراه حين أكون أنظر إليهم كلهم. لكنني أظلّ أعرف أنه ينتظر أي شيء أفعله ليقرّب عينيه إلي.

كل دقيقة كنت أحب أن ألتفت إلى البلكون فوقي، لكني كنت أقول إنه سيراني أتطلع إلى البلكون. وأنا صرت أفكّر أنني سأتطلّع إلى البلكون حين أتركهم وأمشي لأشتري لفّة شرائط الحديد.

ـ إلى أين؟

كان هو، ميخا، الذي قالها، وهو ظلّ فاتحاً عينيه على وسعهما من بعدها. وأنا لم أردّ بشيء. كنت أريد أن أمشي، لكي ألتفت إلى البلكون ورائي حين أمشي، ولكي لا يعود رأسي يطنّ ويوجعني.

وأنا كنت سأجيبه. كنت سأقول له إنني ذاهب لأشتري شرائط الحديد، وربما كنت سأقول له إنني سأشتريها لأعمل أقفاصاً للعصافير. كان رأسي يوجعني. يطنّ طنيناً من ميخا الذي عيناه مثل لحّامة الحديد تظل تحرق الحديد بالنار حتى تذوّبه، حتى تذوّبه.

كنت سأجيبه بأنني ذاهب لأشتري لفة الشرائط، مع أني أكرهه ومع أني لا أحب أن أقول له إني ذاهب لأشتري لفة الشرائط.

لكنني أقولها له لأنني، بعد أن أقولها، سأستطيع أن أزيح وجهي عنهم، وأن أتركهم وأمشي.

* * *

بيومين، أو حتى بيوم ونصف يوم، أقدر أن أعمل ثلاثة أقفاص. لا يكون خشبها مالساً مثل الأقفاص التي تبيعها المحلات لكنها، من البعيد، من مسافة عشر خطوات، ستكون مثلها. أعملها بيومين، أو حتى بيوم ونصف يوم أكون فيها لا أشتغل إلا بقصّ شرائط الحديد وقطع الخشب وثقبه بالمسمار، ليعلق به الحديد. في اليوم الثاني، أو في نصف اليوم الثاني، أركّب الحديد والخشب وأضع في الأعلى تعليقات أمسك بها الأقفاص حين أذهب بها لأبيع العصافير. وأبي لن يقول لي شيئاً وهو يراني أعمل الأقفاص. لن يعبس بي أو يصرخ عليّ، ولن يأخذ مني الإزميل الذي أقطّع به الخشب لأنه تركني أخرج وأشتري لفّة الحديد. سيظلّ ينفخ في القسطل الذي نعّمَه بالحفّ ثم يروح ينظر إلى داخله بعين واحدة.

لم يلتفت إليّ حين مددت يدي لأريه المصاري التي بقيت معي. وأنا قلت له إنهم لم يأخذوا مني كثيراً فيما أنا أريه لفّة الشرائط الكبيرة. وهو نظر إلى لفّة الشرائط ولم يقل لي شيئاً. كان يريد أن تكون قساطل الحديد التي يحفّها بورق السبيداج ناعمة وتلمع، من خارجها ومن داخلها أيضاً. وكان كلما مرّر فيها القشق يرفعها إلى عينه ثم ينفخها ثم يرفعها إلى عينه كأنه عيّن طيراً

سيتصيّده. وأنا عرفت أنه ينعِّم القساطل هكذا لأنه سيعمل منها بواريد. يمكن أن تكون مثل الأقفاص التي أعملها أنا لكنها ستكون بواريد تقوّص وتصيب. يمكن أن يكون خشبها ثخيناً ولا رسوم عليه مثل تلك التي تبيعها المحلات، لكنها ستكون قوية مثلما سيكون صوتها قويّاً.

كانت العصافير قد صارت كثيرة، وهي ستصير أكثر بعد أن يفقّس البيض الصغير الذي تقعد عليه. بيومين سأعمل الأقفاص. ثلاثة أقفاص لا أشتغل إلا بها. يومان اثنان سأخرج بعدهما حاملاً عصافيري مثلما كنت أفعل. وسأنظر، في نزولي على الطريق وفي صعودي عليها، حين أعود، إلى طرف البلكون وإلى الشباك لأرى إن كانوا فتحوه. أنا صدّقتهم وهم يقولون لي إن سلمى تزوّجتْ وسافرتْ، لكني أفكِّر أنهم ربما كذبوا في شيء. ربما تزوّجت لكنها لم تسافر بالطائرة. ربما ذهبت بالسيارة إلى بيت زوجها وهي ستأتي لزيارتهم.

* * *

إن لم تكن المرأة التي عمرها خمسون في بيتها سأُرجع العصافير إلى البيت معي. لم أبع منها إلا اثنين اشتراهما رجل وزوجته كانا ماشيين على الطريق. سألني هو: كيف أحملهما؟ أين أضعهما؟ وأنا لم أبعه قفصاً لأنه اشترى فقط عصفورين. لكنني وقفت أنتظره أنا وزوجته التي تركها واقفة معي وراح يفتّش عن صندوق كرتون صغير. «أكيد ذكر وأنثى»، سألتْني وهي تحدق في القفص الذي رأت فيه العصفورين. وأنا رفعته لها ليصير قريباً من وجهها. «هذا وهذه»، قلت لها بعد أن أدرت القفص مرة ثم مرة

لأن عصفوريها كانا ينطّان ويغيّران وقوفهما. «وكيف تعرف الذكر من الأنثى»، سألتني، فضحكت أنا لأنني فهمت أنها تريدني أن أحكي أشياء أستحي أن أحكيها أمام امرأة. ولما عادت وسألتني مرة ثانية، لم أضحك. أجبتها أنني أعرف الذكر من الريش الكثير الذي يغطي رأسه. لم أبع إلا اثنين من العصافير التي جلبتها معي. وضعهما الرجل في الصندوقة الصغيرة وبدأ يغطيها بأطرافها حين قلت له بأن يترك للعصفورين فتحة ليتنفّسا. وقد سألني عن اسمي فيما هو يذهب مع زوجته حاملاً الصندوقة الصغيرة بيديه الاثنتين. لم أبع إلا العصفورين. كنت أهزّ الأقفاص وأنا في الطريق، وتحت البنايات التي فيها ناس كانوا يشترون مني، فتصير العصافير تصفّر وتضرب بأجنحتها. لكن أحداً لم يقف ليشتري، ولا خرج أحد من بلكونه. إن لم تكن المرأة في بيتها هذه المرة أيضاً سأرجع بالعصافير معي وسيقول لي أبي حين يراها: «ضعها هناك»، يقصد أن أضعها في القفص الكبير مع العصافير الباقية فيه. لكنني أفهم أنه سيجعلني أطيّرها إن بقيت هكذا أشتغل بها ولا أحد يشتريها.

كبست مرتين على الجرس، ثم كبست مرة ثالثة مقرّباً أذني إلى الباب لأسمع إن كان يرنّ في الداخل. سمعتُ رنّته لكن لم تأتِ المرأة لتفتح. وأنا مع ذلك بقيت واقفاً لا أعرف ماذا أفعل. كنت أستطيع أن أجلس على حافة الدرابزين لكنها، إن فتحت ورأتني، ستفكر أنني قاعد هنا منذ وقت طويل. وأنا واقف سأبدو لها كأنني وصلت الآن، من أقل من دقيقة طالما أنها لم تسمع رنات الجرس الثلاث. بل أنني سأعود أكبس الجرس كلما مرت خمس دقائق أو عشر دقائق وهي، حين تفتح، ستفكّر أني الآن

وصلت. ثم فكّرت أنني سأعطيها عصافير لا آخذ منها ثمنها. سأعطيها أربعة، لكن ليس من عصافير الغرام لأنها ستشتريها. ثم خطر لي أن أعطيها خمسة، أو حتى ستة. أقول لها هذه هدية، هدية مني.

لكنني جلست بعد ذلك. لا على حافة الدرابزين بل على الدرج الطالع من بيتها إلى البيت الذي فوقها. كنت تعباناً والعصافير عطشانة وأنا، إن لم تأتِ المرأة، لا أعرف من أين أجيء لها بالماء. لا حنفية هنا ولا قسطل مكسور أعبئ منه الفناجين التي أضعها في جوانب الأقفاص. لن تموت، لكنها ستدوخ من العطش. قمت وكبست كبسة قوية على الجرس هذه المرة. ستزعل إن كانت هناك، في الداخل، وستنظر إليّ متعجبة حين تراني. ثم عدت إلى أول الدرج لأقعد، ولأتسلى بعدّ العصافير وأناسب كل اثنين منها أن يكونا معاً. كانت رجلاي تعبانتين وأنا مددتهما أمامي لكي ترتاحا. سيقول لي أبي، إن كلّمني، طيّرها، أو يقول لي أخنقها، حين يراني حاملاً إياها وذاهباً بها إلى غرفتها الواطئة المسيجة. أو سيقول لي إنني دفعت أجرة الباص هكذا. أو يقول إني كبرت على اللعب بالعصافير.

ـ قم.. قم، سمعت المرأة تقول لي، ولما فتحت عينيّ رأيت وجهها قريباً من وجهي.

وقد استحيت، لأنها رأتني وأنا نائم.

ـ أنت هنا من زمان؟

تطلعتُ حواليّ بعد أن أرجعت رأسي إلى الوراء، ثم صفنت قليلاً كأنني أفكِّر أين أنا.

أتت من الخارج، من الطريق. لم أرها إلا هذه المرة تحمل جزداناً وتلبس سكربينة عالية.

قالت لي وهي تفتح الباب بالمفتاح، أنني لم أبع شيئاً. كانت العصافير إلى جانبها، ساكتة في الأقفاص.

ـ بعتُ اثنين.

ـ أدخل، قالت فيما هي تمسّح سكربينتها لتنظفها.

ـ أترك العصافير هنا؟

نظرتْ إليها قبل أن تجيب. ثم رفعت حاجبيها كأنها تقول إنها لا تعرف لكنها، حين صارت في الداخل، نظرتْ إليها من طرف الباب.

ـ أدخلها، لا تتركها هنا.

لم تقل لي أين أضعها، لكنني حملتها معي إلى البلكون الذي ملأت أكثر من نصفه بالزريعة. وهناك قعدتُ أنتظرها لكي تأتي. كنت أنا عطشاناً وليس العصافير فقط. لو كنت أستطيع أن أذهب إلى الحنفية وأملأ الفناجين بالماء لكانت قد رأتها مفرفحة حين تعود، وليس غاشية هكذا. لكن عليّ أن أنتظرها.

ـ هذا النهار كانت الشمس قوية، قالت لابسة ثياباً غير التي كانت تلبسها، وحاملة صينية وضعت عليها كأسين مملوءين ماء، واحداً لي وواحداً لها.

فكّرت أن أقول لها، وهي تضع الصينية على الطاولة الصغيرة أن العصافير أيضاً تريد أن تشرب، لكني بقيت ساكتاً.

ـ من زمان لم تأتِ، قالت.

وأنا أجبتها: من زمان.

ـ ثلاثة أشهر؟ أربعة أشهر؟

ـ يمكن ثلاثة.

لن أقول لها أن أبي حبسني ستة أيام في غرفة الموتور، ثم حبسني في البيت بعد ذلك، في البيت وفي الحوش.

ـ قلت يمكن أنك تزوّجت.

وأنا رفعت رأسي لتعرف أني لم أتزوّج.

ـ إشرب، قالت لي مادة إصبعها إلى الكأس على الصينية.

شربت، لكن أقل من نصف الماء لأنني، إن لم أقل لها أن العصافير عطشانة، سأسكب الماء الباقي في الفناجين.

ـ عندي بوظة في البراد، تحب البوظة؟

بقيت ساكتاً، وتشاغلتُ بكأس الماء. رفعته إلى فمي وشربت منه شَفّة واحدة.

ـ سأقوم أجيء بالبوظة.

كانت العصافير كأنها نائمة، وأنا، بعد أن رحت أسكب لها الماء، صرت ألكزها، واحداً بعد واحد، بإصبعي، لتنتبه أنني وضعت لها ماء في الفناجين.

ـ بوظة طيبة، قالت.

لم تنتبه إلى العصافير. لم تنظر إليها منذ أن أتت ورأتني نائماً على الدرج. فقط مرة واحدة، وذلك حين قالت لي، بعد أن فكّرت قليلاً، أدخلها، لا تتركها هنا.

ـ وخطيبتك، التي تحبها، كيف هي؟

ـ ليست خطيبتي، أنا لم أخطبها.

ـ لكنك تحبها، وهي تحبك؟

كانت تتطلع في وجهي فيما هي تأكل من البوظة نتفات صغيرة تضعها في رأس الملعقة.

ـ تزوّجتْ، تزوّجت وسافرت.

لم تتعجّب. حتى أنها لم توقف الملعقة التي كانت ترفعها إلى فمها. كأنها كانت تعرف أن سلمى تزوجت وسافرت.

ـ أهلها زوّجوها؟

ـ زوجة أبيها. أبوها مسافر.

ـ زوجة أبيها قوية؟

ـ وهم عرفوا أنها تحبك.

ـ وأنا أحبها.

كنت أحب أن أكلمها عني وعن سلمى. لأنها لا تعرف أحداً في الزهرانية.

ـ كل البوظة قبل أن تذوب.

ابتسمت وكادت تضحك حين بدأتُ آكل البوظة مثلها، أضع قليلاً منها في رأس الملعقة.

ـ وهي، حبيبتك، لماذا قبلت؟

ـ عرفوا، كلهم عرفوا.

ـ عرفوا أنها تحبك.

ـ وعرفوا أنه كان شيء بيني وبينها.

صارت تتطلع في صحن البوظة كأنها رأت فيه برغشة.

ـ وماذا كان بينك وبينها؟

لم أقل لها. لن أقول.

ـ كنت تبوسها؟

ـ . . .

ثم سألتني مرة ثانية إن كنت أبوسها. وهذه المرة كان عليّ أن أجيب لأنها كانت تنظر إليّ في وجهي.

ـ من تحت الشباك. . وحدنا أنا وهي. هي في الشباك وأنا تحته.

ـ كانت تريك شيئاً؟

لم أجب. لكنها كانت تنظر إليّ لتعرف. وربما ستسألني مرة ثالثة بعد ذلك:

ـ كانت تريك شيئاً؟

ـ نظرتُ إليها أنا هذه المرة، لكن مستحياً ووجهي أحمر.

ـ كانت تريني.

وقد استحيت كثيراً، ولم أعرف أين يجب أن أنظر:

ـ على الطريق كانت العصافير عطشانة، نامت وهي عطشانة.

لم تنظر إلى العصافير. كانت تريد أن تعرف ماذا كانت تريني سلمى.

ـ قل. . قل. . لا تستحِ.

وأنا لا أحب أن أقول. كنت أحبّ أن أكلمها عني وعن سلمى، لكن ليس هكذا. وهي ظلّت مديرة وجهها إليّ، منتظرة أن أقول لها أن سلمى كانت تكشف عن صدرها. ووجهي أنا بقي أحمر، لأني استحيت ولأني لا أحب أن أقول لها.

ـ صرنا في الليل. . لن أجد باصاً يأخذني.

إن قمت الآن، كأنني زعلان، سيكون عليّ أن أحمل الثلاثة أقفاص معي. كنت سأعطيها أربعة عصافير، هدية، لو تكلمنا كما كانت تكلمني من قبل. لكن الآن، إن قمت، كيف سأقول لها أني أهديها أربعة عصافير.

ـ تأخرت، يجب أن أقوم.

لم تقل شيئاً. كأنها زعلت مني هي أيضاً. ولأني تأخرت في أن أقوم راحت هي تعيد الأشياء إلى الصينية.

قمت. وقفت قليلاً لا أعرف ماذا أفعل، ثم خطوت إلى حيث كنت قد وضعتُ الأقفاص.

كنت أنتظر أن تقول لي شيئاً. أن تنظر إلى الأقفاص وتقول لي شيئاً، أي شيء.

كما أنها ظلّت ساكتة وهي تراني أحني ظهري وأمدّ يدي لأمسك الأقفاص من تعليقاتها. لن أقول لها أبداً سأهديها عصافير الغرام. سأطيّرها في الطريق ولن أعطيها إياها. سأتركها مع قفصها مرمية على الطريق ولن أعطيها إياها.

* * *

تأخرت عند المرأة وتأخرت على الطريق لأني وقفت أنتظر باصاً أو سيارة تأخذني. كان الليل قد صار أسود مثل الفحم حين وصلت إلى الزهرانية. «هنا. . هنا»، قلت للسائق الذي كنت أقعد بجانبه لأني كنت نائماً وأفقت ونحن هناك، عند بوابة المسبح. ولم أقل له أن يسوق سيارته قليلاً بعد، لأنه كان قد أوقفها دفعة

واحدة. كانت العصافير نائمة من التعب والعتمة في صندوق السيارة. لم يقبل السائق أن أضعها في السيارة لأنها توسخها. لا تخف لن تموت، قال لي، لأن الهواء يصل إلى الصندوق. ثم قال لي بعد أن أدار سيارته ومشى بها أن العصافير، على كل حال، تتنفس كثيراً لأن الثقب الذي منه تأخذ الهواء صغير، على قدر ما دلّ على حافة ظفره.

كانت نائمة من العتمة والتعب، وهي ظلّت نائمة بعد أن أخرجتُ أقفاصها واحداً بعد واحد. وهناك، حيث نزلت، أخّرت نفسي دقيقة لكي لا يقول السائق، إن حملت الأقفاص وتبعته، أني لم أعرف أين أنزل. ثم أني يجب أن أقف دقيقة لتصير العتمة خفيفة في عينيّ. ومع أنني، في هذا الوقت، أستطيع أن أمشي في وسط الطريق، أو على طرفها على الأقل لأن السيارات لن تأتي وتدهسني، إلا أني بقيت تحت طريق الزفت، على الرمل، وحول رجليّ الحجارة الصغيرة التي قد توقعني. ولم أقطع الطريق لأمشي في الجهة الأخرى، التي منها أصعد إلى بيتنا، مع أنني، حين سأبدأ أخاف، سأخاف هنا أكثر مما سأخاف هناك. كنت قد مشيت أقل من نصف الطريق حين أضاء وجهي الضوء الصغير لكن القوي. ثم أضاء كتفيّ ويديّ والأقفاص التي كنت أحملها:

ـ تيسير؟

ـ مَنْ؟

الضوء الذي يقع عليّ لم يكن يكشف شيئاً حوله. كان يطلع من بطارية قوية حتى أنني كنت أزيح وجهي وألتفت مغمضاً عينيّ من قوّته.

ـ مَنْ؟، قلت وأنا خائف لأن البطارية كادت تصل إليّ.

عرفته، أو عرفتهما، ميخا ومعه طوني، الصغير الذي يقلّدهم كلّما حكوا شيئاً. بدأ الضوء يقع عليهما أيضاً وهو جعل وجهيهما مثل وجوه الشياطين.

ـ خفت؟ قال ميخا وهو يعيد الضوء إلى وجهي.

لم أجب، لكنني أزحت وجهي كله وأنا عابس، وصرت كأنني أنظر إلى كتفي.

ـ الساعة عشرة، قال ميخا، وعيناه اللتان مثل عيون الشياطين تنظران إليّ.

ـ عشرة وعشرة، قال طوني؟

ـ رجعت تبيع العصافير.

نظرتُ إلى العصافير. كانت قد رفعت رؤوسها بعد أن أيقظها الضوء القوي.

ـ لم تجب! رجعت تبيع العصافير؟

ولم أجبه ولم أردّ عليه. لكني صرت أزيح رأسي مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال، ثم مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال وبدأت كأني سأتنفس مثلما يتنفس من سيفعل شيئاً.

ثم بدأت أتنفّس مثل الحصان وأقرّب رأسي إليهما حين سدّا طريقي ليحجزاني بينهما. بدوت لهما كأنني سأجنّ وأنا أزحت بقفص العصافير البطارية المسلّطة عليّ ويد ميخا التي تحملها. ثم قدّمت رجلي بينهما لأدعس دعسة قوية.

ـ أتركه.. أتركه، قال طوني لكن من دون أن يحيد هو من طريقي.

ـ قال لك اتركني. . قال لك اتركني. . اتركني، صرت أصرخ وأنا أدفشهما بجسمي لأمرّ من بينهما. وهما صارا يتراخيان في وقوفهما كأنهما يريدان أن أمرّ لكنّهما مع ذلك يسدّان طريقي.

وقد بقيت أدفشهما بجسمي وأقول: «قال لك اتركني. . قال لك اتركني، قال لك. .» حتى حاد طوني ليقف وراء ميخا.

مشيت حاملاً الأقفاص وأنا أقول: قال لك أن تتركني. قال لك أن تتركني، ليس فقط لأنها علقت بلساني لكن أيضاً لأخيفهما مني، لكي يفكرا أني صرت مجنوناً وأني سأفعل مثلما يفعل المجانين.

* * *

كان أبي وأخي جميل واقفين في أول الحوش ينتظرانني.

ـ أين كنت؟ سألني أبي وهو يُنزل القنديل الذي يحمله ليرى العصافير التي لم أبعها.

كان وجهي ما يزال أحمر، أحمر وعرقاناً.

ـ أنت الذي كنت هناك، حدّ المسبح؟

أخفضت رأسي لأقول إنني أنا.

ـ ومن كانوا هم؟

ـ . . ميخا، ميخا وطوني.

ـ وميلاد؟

ـ ميلاد لا، فقط ميخا وطوني.

ـ ميخا كان يلبس ثياب العساكر؟

ـ الجاكيت.

ـ وطوني؟
ـ طوني لا.
لم يسألني شيئاً عن العصافير التي لم أبعها. فقط قال لي أن أحطّها هناك وأذهب لأنام. وأنا مشيت إلى غرفة السياج، ثلاث أو أربع خطوات أدرت وجهي إلى أبي وجميل من بعدها لأراهما ما زالا واقفين كأنهما ينتظرانني أن أحطّ العصافير وأذهب إلى النوم.
ـ أنا خوّفتهما، خافا مني.
لم يردّا بشيء، لا أبي ولا جميل أخي.
وهما ظلا في مكانهما في أوّل الحوش بعد أن أفلتّ العصافير في غرفة السياج ومشيت ذاهباً إلى البيت.
ـ كان معهما سلاح؟ قال أبي.
هززت رأسي لأقول لا، لكني انتبهت إلى أنهما لا يريانني من حيث يقفان.
ـ لا، قلت بصوتي.

* * *

في الصباح، حين خرجت من البيت، رأيت جميل أخي صاحياً في الحوش، يشتغل لوحده. حين اقتربت منه لأحكيه قال لي إن أخوتي ما زالوا نائمين وإن أبي ذهب ليشتري باروداً وخردقاً ليعمل بها خراطيش للبواريد. ولما قلت له إنّ الذي اشتريت منه شرائط الحديد يبيع كل شيء، أجابني بأن أبي يعرف من أين يشتري. ثم أنه، هو أبي، لن يشتري البارود والخردق من دكاكين الزهرانية، لأنهم يعرفونه كما قال.

ـ يعني أنه سيتأخر؟

ـ يمكن . .

تخيّلت منظر أبي غريباً وهو ينتظر الباص، واقفاً هناك على الطريق، حيث أقف أنا. وتخيّلته غريباً أيضاً وهو يصعد إلى الباص وينظر إلى القاعدين فيه. ثم أنه سيقعد مثلهم، أو سيقعد بينهم على المقعد الطويل في آخر الباص إن لم يجد محلاً قبله.

وقد عدت لأتخيّله واقفاً حيث أقف، ناظراً إلى الجهة التي سيأتي منها الباص مرة، ثم إلى الجهة التي سيسير فيها الباص حين يجيء. لو أنهم كانوا هناك، واقفين تحت عمود الكهرباء، سيكونون خائفين وسيكلّمون بعضهم بعضاً بأصوات لا يسمعها سواهم. وربما سينسحبون واحداً وراء واحد، ليظل هو وحده واقفاً هناك.

ـ تحبّ أن ترى البارودة؟

ولم ينتظر أن أقول له بلى أحب. من تحت طاولة المفكّات والبنسات والشواكيش التي يشتغل عليها أبي، سحب أخي جميل صندوقة الخشب الكبيرة. «هذه هي»، قال لي بعد أن رفع غطاءها، ثم راح ينظر إلى ما فيها كأنه يراها لأول مرة. كانت القساطل المنعّمة مفكوكة عن سنداتها الخشب، وكانت كلها موضوعة بعضها فوق بعض مع مفاتيح النيشانات وبراغيها. لكن من بينها، في طرف الصندوق، كانت بارودة واحدة قد تركّبت.

رفعها أخي من الصندوقة ليتطلّع فيها. ثم فتحها بمسكة الحديد التي إلى جانبها، لينظر إلى داخل القسطل، ثم عاد فأغلقها مطلعاً منها صوتاً لا يشبه صوت التكة الصحيحة.

ـ إمسكها، قال فيما هو يقربها إليّ.

كانت ثقيلة. ربما من ثقل سَنْدتها الخشب التي لم تُحفّ لتصير نحيفة في آخرها، مثلما هي بواريد الصيادين. وربما هي ثقيلة من قسطلها الثخين، والعريض أيضاً.

كان أخي ينتظر أن أفعل مثله. أن أفتحها، ثم أضع عيني على فتحة قسطلها.

ـ افتحها، قال لي.

فتحتها، بمسكة الحديد المدقوقة ببرغي كبير، وقرّبت عيني منها لأرى قسطلها كيف هو من داخلها.

ـ سكّرها واكبس على الديك.

كان الديك مشدوداً وأنا، لكي ينكبس، ضغطت عليه بكل قوة إصبعي.

ـ لا تسع إلا خرطوشة واحدة، قال أخي، لكن خرطوشة كبيرة، وهو، ليدلّني كم هي كبيرة، أدخل إصبعه في فتحة القسطل، حيث تخرج الخرطوشة، وراح يدوّره ثم يدخله ويخرجه، مرّات سريعة، كما لو أنه ينظف البارودة.

ـ هذه له، لأبي، البواريد المفكوكة لنا.

ـ ولن نبيع منها؟

ـ ليست للبيع، هي لنا.

ـ لي أنا أيضاً؟

ـ لا أعرف، لنا كلنا.

* * *

لو كان ذهب إلى المحل الذي يبيع كل شيء لعاد أبي بعد ساعة أو بعد نصف ساعة. حين جاء بعد الظهر كان عرقاناً من حمله البارود والخردق وأشياء أخرى وضعها مع البواريد في الصندوقة الكبيرة. لم يكلّم منا إلا أخي جميل، أما أنا وأخوتي فنظر إلينا متفرّقين في الحوش. وقد عرفت أنه كلّمه عن البواريد، لأن أخي التفت إلى صندوقها ثم قال شيئاً لأبي. ونحن كلنا بقينا حيث نحن في الحوش بعد أن ذهب أبي إلى البيت ليغسل وجهه ورأسه من العرق.

تأخّر في البيت. حين خرج إلى الحوش كنا قد صرنا في العصر. كان قد نام لأن عينيه كانتا منتفختين وشعره ممشطاً ومبلولاً. وحين رفع رأسه لينظر إلينا كنت أنا واقفاً بقرب غرفة السياج. خفت، مثلما أخاف كلما نظر إليّ، ورحت أتطلّع في الأرض كأنني أبحث حولي عن شيء وقع مني. ولم أرفع عينيّ لأرى إن كان ما يزال ينظر إليّ لأنه كمشني أقف بقرب غرفة السياج. صرت أمشي فيما أنا أتطلع في الأرض لكي أبتعد، من دون أن يدري بي فلا أظل واقفاً حيث رآني. وقد رأيته ماشياً إلى طاولة الحديد، لكن بطرف عيني. انحنى بجسمه كله إلى تحت الطاولة حيث الصندوقة التي يضع فيها البواريد. وبدل أن يفتح غطاءها وهي هناك، تحت الطاولة، مثلما فعل أخي جميل، جرّها كلها بيده القوية لتصير قريبة من رجليه. وبعد أن رفع غطاءها مدّ يديه إلى داخلها وأخرج منها كيساً صغيراً لكن ثقيلاً، ثم كيساً آخر ثقيلاً أيضاً، ولم يلتفت بعد ذلك إلى أخي جميل ليرى أين هو، فقد صار جميل واقفاً قربه.

وأنا عرفت أنهما سيخلطان البارود والخردق ليعبئاها بعد ذلك بخراطيش الحديد الفارغة. وهما بدآ بأن أفرغا مما في الكيسين، كومة بجانب كومة، ثم أخذ أبي من كل واحدة نتفة قرّبها إلى أنفه ليشمها وذلك قبل أن يخلط النتفتين معاً. ولم أعد أشاهد ماذا يفعلان بعد ذلك، فقد غطّيا بجسميهما مكان الكومتين وأنا، الذي صرت بعيداً عن غرفة السياج ولم أعرف ماذا أفعل، فكّرت أن أبي ربما يلتفت فيراني واقفاً لا أفعل شيئاً، بعيداً عن غرفة السياج لكن لا أشتغل بشيء. حتى أنني لن أكون أفعل شيئاً إن وقفت بجانب أحد أخوتي. سيرانا اثنين واقفين معاً لا نفعل شيئاً، أنا وأخي.

لكنهما كانا قد عبّآ خرطوشتين، هو وأخي جميل الذي أخرج البارودة من الصندوق ورفعها لأبي. لم يشتغل بها أبي كثيراً. دقيقة واحدة فقط استدار بعدها مبتعداً عن طاولة الحديد وأخذ يقلّب نظره في الحوش كأنه يفتش عن مكان يذهب إليه. كان يريد أن يجرّب البارودة. فكّرت أنه سيجنّن العصافير إن قوّص الخرطوشة قريباً منها. وهو كان ينظر إلى هناك، إلى تلك الجهة من الحائط العالي لأن لا شيء وراء الحائط. فقط الأرض النازلة إلى الوادي والعشب الذي يغطيها. هزّ رأسه لأخي جميل لكي يتبعه، ثم مشى إلى هناك. سيجنّن العصافير وستصير تزعق كلها وهو سيكرهها ويكره صوتها القويّ ورفرفتها مجنونة في غرفة السياج. لكنه، حين وصل إلى هناك، بدا كأنه عرف أنها ستصير تزعق وتفرفر. مشى بجانب الحائط ست خطوات أو سبعاً، وهناك، حيث وقف، أخذ ينظر حواليه قبل أن يرفع البارودة ويصوّبها إلى فوق الحائط

العالي ويتكّ ديكها الذي طلع صوته وحده، مثل نقرة خفيفة على الحديد.

كنا كلنا ننظر إليه، أنا وأخوتي، وهو يفتح البارودة ويسحب منها الخرطوشة ويقلّبها في يده قبل أن يعطيها لأخي جميل. هات الثانية، قال له بحركة يده السريعة. وبعد أن وضعها في مكانها تلفّت حوله مرة أخرى، ثم رفع البارودة لكي لا تصيب الحائط العالي. ثم كبس على الديك بإصبعه فطلعت التكة ذاتها مثل نقرة خفيفة على الحديد.

وأنا فكّرت أن أبي سيغضب وسيقول لنا، أنا وأخوتي، أن لا نقف هكذا نتفرج عليه مثل المساطيل. وأخوتي أيضاً عرفوا أنه سيغضب فتفرّقوا في الحوش وهم لا يعرفون بماذا يشتغلون. وأنا، لكي لا يراني، مشيت لصق الحائط العالي من جهة غرفة الموتور لأصل إلى البيت. إن قال لي بصوته العالي ماذا سأفعل في البيت، سأجيبه بأنني ذاهب إلى الحمام مع أنني أكون أعرف أنه سيقول لي، بصوته العالي أيضاً، لماذا لا أفعلها في حمام الحوش.

لكنني وصلت إلى البيت، ولم يرني. وقد دخلت إلى الحمام وبِلتُ فيه لكي أجيبه، إن دخل إلى البيت ووجدني فيه، أنني جئت لأبول في الحمام. وقد بدأت أتذكر نهدي سلمى وأنا هناك، فوق قعدة الحمام. لا أتذكرهما فقط بل أضعهما أمام عيني، قريبين كأنني أراهما حقيقيين. وليس من تلك المسافة بين الشباك وحيث كنت أقف تحته، بل قريبين أمامي كأنني، إن مددت يدي أستطيع أن ألمسهما. بل وسألمسهما حين أصير على فرشتي نصف قاعد عليها نصف ممدد ناظراً إلى عضوي مثلما كانت تراه هي.

ستكشف لي وأكشف لها، وسأمسك صدرها بيدي وهي ستمسكني من هناك بيدها. وستصير تكلّمني من دون أن يطلع صوتها، هكذا كأنها لا تكلّم إلا نفسها. لكنها ستنظر إليّ، في وجهي فيما أنا آخذها إلى فرشتي لأستلقي عليها أنا، نصف قاعد نصف ممدد، وتظل هي فوقي مقربة نهديها إليّ. وسأفعل ما سأفعله على مهلي. أنظر إلى نفسي وأنظر إليها وهي تقترب مني أكثر فأكثر وتصير عينيّ قويتين تستطيعان أن تريا حلمتيها بلونهما البني المنتفخ. أفعل ذلك على مهلي ولا أترك جسمي يهتزّ فيهتزّ السرير من تحتي ويطلع صوتاً. على مهلي لكن يجب ألا أتأخر وأنا هنا في البيت وحدي. أخاف أن يأتي أبي أو أحد أخوتي فيراني. أبي يعرف أن من يحبّ أن يكون في البيت وحده سيفعلها. لكنني أنتبه، أدبر أذني في اتجاه الباب، ليس إلى حدّ ما يغيب وجه سلمى وصدرها من أمام عيني. سيكون عليّ أن أسترجعهما حين يحصل ذلك، أن أسترجعهما قويين كما كانا، وحين يعودان لن يظلا حقيقيين لوقت طويل، وأنا لذلك أروح أستعجل وأستعجل سلمى معي. أصير أهتز أنا على السرير كما تهتز هي أيضاً. وحين أعرف أنني سأصل، أقوم عن فرشتي وأنا أقفل بيدي على ما سينزل مني. في المغسلة أنظف نفسي بالماء. سأكون في الحمام إن جاء أحد. بل أنني سأقول، حين أسمع صوتاً في البيت، أنا في الحمام.

حين فتحت باب البيت لأخرج طلع صوت البارودة قوياً مثل مدفع. ثم رجع الصوت من الهضبات التي تتكرر متباعدة عن حائط الحوش العالي. وقد أجفل الصوت حتى أبي الذي راح ينظر إلى البارودة كأنما ليرى لماذا أطلعت الصوت قوياً هكذا. الصوت

الذي لا بدّ سمعوه من بيوتهم تحت الطريق، ومن محلاتهم المصطفة أمام البنايات العالية، وكذلك من الهضبة. لكن لن يعرف أحد أنه طلع من بيتنا طالما أننا، ونحن وراء الحائط العالي، لا نظهر لأحد ولا يرانا أحد.

* * *

في النهار يكون ميخا واقفاً بينهم، هناك تحت عمود الكهرباء، لا يسأل عن شيء. يتركهم هم يكلّمونني حين أنزل حاملاً العصافير التي حشرتها في الأقفاص. ذاك لأني أريد أن أبيعها لأتخلّص منها كما قال أبي لأخي جميل. وبدلاً من أن أضع ثمانية عصافير في كل قفص، كما كنت أفعل، صرت أضع عشرين أو اثنين وعشرين أو أربعة وعشرين. ولم أعد أنظر إلى كل عصفور قبل أن أدخله من بوابة القفص، لأملّس على رأسه أو أسوّي ريشه. «صرت تبيع بالجملة»، قال جوزف حين وصلتُ إلى أول طريق السيارات. ثم قال لي «من هنا.. من هنا» حين رآني أمشي في اتجاه المحلات وليس إلى حيث كنت أقف لأنتظر الباص. وكان ميخا ينظر إليّ بعينيه المحدّقتين ولا يلبس الجاكيت العسكرية. وقد ظل جوزف يقول لي «من هنا.. من هنا» وأنا لا أردّ عليه ولا ألتفت إليه.

وأنا أعرف أنهم سيسكتون عني حين أظلّ ماشياً كأنني لم أسمعهم. في مرات يروح طوني يمشي مع مشيتي عشر خطوات أو عشرين، لكن من جهتهم ولا يقطع الطريق إليّ. «لا يحبّ أن يكلّمنا»، يقول لهم بصوت عال فيما هو يستدير إليهم. أعرف أنني سأعلق إن قلت كلمة واحدة، لهذا أظل ساكتاً كأنني لا أسمعهم.

وقد بقيت ساكتاً حين قال لي طوني، وقد صرنا أنا وهو بعيدين عنهم، أن سلمى ستعود. كنت أحبّ أن يكمل، أن يقول شيئاً آخر، ومع ذلك لم ألتفت إليه. وهو سيجد شيئاً يخبره لهم حين يعود إليهم. حتى إن لم أكلّمه أنا أو ألتفت إليه. لكني مع ذلك بقيت ساكتاً، أمشي بجانب الأرض الخالية بين محل الألعاب وأول المحلات هناك. وقد يظل هو يمشي مثلما أمشي، أنا في جهتي وهو في جهته، ولا يكلّمني، كأنه ينتظر أن أسأله أنا، وقد صرنا بعيدين عنهم ولا يسمعوننا، عن سلمى إن كانت ستعود.

ولن يرجع إلا حين أصل إلى أول المحلات. من هناك سأصير لا أنتبه إليه لأنني، أمام كل محل، سأقف ناظراً إلى الرجل الذي على بابه أو بين بضاعته وأرفع له الأقفاص ليراها. هكذا أفعل في المحل الأول، وفي المحل الثاني، وفي المحلات كلها بعد ذلك حتى أصل إلى المفرق الكبير الصاعد إلى أعلى الهضبة.

حين أعود أجدهم ما زالوا واقفين هناك، حيث هم.

ـ سوق العصافير ميّت هذا اليوم، يقول أحدهم، جوزف أو طوني أو ميلاد.

وأنا أظل ماشياً، حاملاً العصافير كلها، محشورة في الأقفاص، وأكمل مشيي إلى أول الطريق المحفورة الذاهبة إلى بيتنا.

ـ . . . إسأل وليد، هو يعرف.

لم يكن وليد واقفاً بينهم. في ذهابي أيضاً، حين نظرت إليهم قبل أن أصل إلى طريق السيارات، لم يكن بينهم. كان عليّ أن

أدير عينيّ إلى محل الألعاب لأعرف إن كان هناك مع أخيه، لكن من دون أن أدير رأسي فيرونني.

وهم، بأصواتهم التي جعلوها عالية لأسمعها، راحوا يبدون كأنهم يكلّمون بعضهم البعض.

ـ ولماذا وليد.

ـ ولماذا تبعث هي رسالة لوليد وليس لتيسير.

ـ ويمكن أنها بعثت لتيسير وهو لا يخبرنا.

وأنا كنت أحس أنهم، وهم يتكلمون، ينظرون كلهم إلى ظهري ليروا إن كنت سألتفت نحوهم.

وقد ظلوا يكلّمون بعضهم بعضاً هكذا، حتى حين صرت بعيداً لا أفهم ماذا يقولون.

* * *

قال لي أخي جميل إن هناك كثيرين يحرسون البيوت والمحلات في الليل وليس ميخا وحده. أصحاب المحلات يُبقون اثنين أو ثلاثة من محلاتهم مفتوحة في الليل وهم يشعلون ناراً في كل منها لكي يُفهموا الناس أنهم ساهرون. الساكنون في البنايات صاروا يقفلون أبوابها الحديد بأقفال ثقيلة ويبقون ناساً منهم ساهرين على الشبابيك لينظروا إن كان سيأتي أحد. وهناك حول الهضبة يظلون يطوفون بالسيارات التي وضعوا فيها أسلحة بحسب ما قال له أبي.

ـ ونحن أيضاً، قال لي فيما هو يدير عينيه إلى الصندوقة الكبيرة التي وضعت فيها البواريد.

ـ سنسهر في الليل؟
ـ أبي ليلة وأنا ليلة.
ـ وأنا.. أنا أسهر.
لم يجبني، كان يفكِّر بشيء جعل عينيه زائغتين عني.
ـ أبي ليلة أنت ليلة وأنا ليلة.
ـ ماذا قلت؟
ـ أبي ليلة أنت ليلة، وأنا ليلة.
ـ لا أعرف.. إسأل أبي.
ـ وأنا، ستعطونني بارودة؟
ـ أبي يعرف.. إسأل أبي.
ـ وأخوتي الصغار؟
مطّ شفتيه لكي لا يجيبني، ولكي لا يقول لي مرة أخرى أن أسأل أبي.

* * *

ما عدا ميخا، لا أحد يمكن أن نتقاتل معه. ميخا لأنه لئيم ولأنه يكره الناس ويحبّ أن يقتلهم ولأنه يلبس جاكيت العساكر. طوني لا نتقاتل معه لأنه لا يكره الناس وإن كان يمشي مع ميخا في الليل. ميخا وحده يمكن أن نقاتله، وبلا بواريد، لأنه بضربة واحدة من أبي يسقط على الأرض ويموت. وإن كان طوني واقفاً معه سيقول له أبي، بعد أن يضرب ميخا: أنت إذهب إلى بيتكم ولا ترجع إلى هنا.
ـ إذا قتل أبي ميخا سيهجم علينا أهله، قلت لأخي جميل.

ـ مَنْ؟ أمه وأبوه؟ سيموتان إن صرخنا عليهما . . من الصوت سيموتان .

ـ وجوزف وميلاد وطوني؟

ـ لا أعرف، يمكن أن يخافوا .

ـ عندهم بواريد مثلنا؟

ـ كلهم عندهم بواريد .

ـ جوزف وميلاد وطوني عندهم بواريد؟

ـ كلهم . . كلهم عندهم بواريد . كل الذين في الزهرانية عندهم بواريد .

وبيت أبو عاطف؟

ـ كلهم . . كلهم .

ـ لكن أبو عاطف ليس هنا وابنه ليس هنا .

ـ . . .

ـ . . . وأنا . . أنا ستعطونني بارودة؟

ـ لا أعرف، إسأل أبي .

وأنا لن أسأله، لأنه لن يردّ عليّ . سينظر إليّ بعينيه العابستين لأفهم أني يجب أن أذهب ولا أظل واقفاً أمامه . أو سينبّهني ، بعد أن يسمعني أسأل عن البواريد، أن لا أكلم أحداً عنها : «فهمت . . فهمت»، سيقول لي هازّاً إصبعه . وناظراً إليّ في عينيّ .

ـ أنا لن أسأله . أنت اسأله . قل له : هل سنعطي بارودة لتيسير؟

هي بخرطوشة واحدة، لكنها خرطوشة قوية يطلع صوتها مثل مدفع . إن كانت لي وأعرف أنها لي سأصير، حين أمرّ من أمامهم،

أقف وأنظر إليهم إن أسمعوني شيئاً. نظرة طويلة أقول لهم بها: اسكتوا، وأظل أنظر إليهم حتى يسكتوا. لأنهم سيخافون مني. وسيظلون خائفين مني حتى بعد أن أدير ظهري، هكذا بلا أقفاص ولا عصافير معي، وأمشي ذاهباً في اتجاه المحلات.

وسأصير أنظر إلى بيت سلمى فوقي من دون أن يتكلموا ليُضحكوا بعضهم البعض. إن فعلوا سأعيد عليهم تلك النظرة التي توقفهم، التي توقفهم وتسكتهم وأعود أنا أنظر إلى بيت سلمى. أكون أفهمهم بذلك أنني أحرس هذا البيت.

* * *

أصوات المدافع صارت قريبة، ومعها صوت الرصاص الذي كنا نسمعه أيضاً لأن لا شيء يحجزه عن بيتنا العالي فوق تلة. كنا نفيق في الليل من قوّة الأصوات وكان أخوتي يكلّمون بعضهم البعض وهم نائمون في فرشهم. أبي أيضاً كان يفيق. يفيق ويقوم. يذهب إلى المطبخ ليشرب ماء ثم يخرج إلى الحوش ليرى من أين تطلع المدافع. لا يبقى طويلاً لأنه لن يفعل شيئاً هناك، لكنه لا ينام حتى يعود إلى البيت. يدخل إلى غرفته ثم يخرج منها إلى المطبخ، ثم يذهب من هناك إلى الحوش لكن ليقول لأخي جميل أن يذهب إلى البيت ليأخذ منه دوره في الحراسة. في الصباح يروحان يشتغلان بالبواريد وإن كان يقول أبي إنها لن تنفع أمام الرصاص والمدافع التي نسمع أصواتها في الليل.

ـ ميخا وطوني صارا يلبسان ثياباً عسكرية، قلت لأخي جميل حين رجعت قبل أن أصل إلى آخر المحلات.

ـ ميخا وطوني؟

ـ ميخا وطوني.

ـ في النهار؟

ـ الآن في النهار.

كانا ما زالا هناك حين نزل أخي جميل ليرى كيف هما. كانا واقفين على حافة الطريق، كأنهما ينتظران سيّارة تقف لهما ليركبا فيها.

ـ كلّماك؟ قالا لك شيئاً؟ سأله أبي.

ـ ظلا ينظران إليّ وأنا أدخل إلى محل الألعاب، لكن لم يكلماني.

ـ من كان في محل الألعاب؟

ـ الاثنان كانا هناك.

حين تركه أبي كأنما ليفكّر ماذا عليه أن يفعل، سألته أنا:

ـ الثخين وأخوه وليد عندهم بواريد؟

ـ كلهم.. كلهم، قال، ثم عاد وقال لي بعد أن تذكر كيف رآهما إنه لا يعرف.

ـ وليد لم يعد معهم، ولا مرة رأيته معهم.

لا أراه معهم حين أكون ذاهباً إلى المحلات ولا حين أكون راجعاً منها. وأنا عرفت أنه لا يكلمهم ولا يكلمونه لأنه يظل في محل الألعاب. وهو لا يلتفت إليهم حين يكون هناك، يشتغل مثل أخيه بترتيب الألعاب ونفضها بمنفضة الريش.

ـ وهم يكونون يتمسخرون عليه كلما قالوا اسمه.

يهزّون رؤوسهم إلى ناحية محل الألعاب كلما قالوا عنه شيئاً، هكذا، كأنهم يقولون، هذا الذي هناك. وهم كانوا يضحكون عليّ حين قالوا لي أن سلمى بعثت إليه رسالة، وحين كانوا يقولون لي، كلما رفعت عيني لأنظر إلى بيتها: إسأل وليد.

لأن وليد لم يعد يقف معهم. كأنه واحد منهم، ولم يعد يذهب معهم إلى البحر. يظل في محل الألعاب مع أخيه، وأخي جميل قال عنه إنّه ظلّ واقفاً ينظف الألعاب فيما كان أخي يكلم أخاه الثخين.

ـ هم يقولون إن سلمى بعثت رسالة إلى وليد.

ـ مَنْ هم؟

ـ هم ميخا وجوزف و. .

ـ وماذا يهمنا نحن؟

ـ قالوا إنها سترجع إلى هنا.

أردت أن أكلمه عنها، أن أخبره بذلك ليجيبني بشيء عرفه أو سمعه، وأيضاً لكي أعرف إن كنت أستطيع أن أتكلم عنها أمامه بعدما حبسني أبي وبعدما حجزني في البيت والحوش بعد أن حبسني.

ليس أنه فقط لم يجبني، بل أنه تركني واقفاً حيث أنا ومشى إلى آخر الحوش ليشاغل نفسه بالنظر إلى الدجاجات التي أقفلنا عليها بلوح خشب كبير. ربما يستحي، مثلما أستحي أنا، حين يتخيّلني واقفاً هناك حيث كنت أقف، كاشفاً عنه وقد صار قاسياً وكبيراً من دون حتى أن ألمسه بيدي. وقد لحقت به أنا، ذاهباً إلى

قنّ الدجاجات، لكن لأكلمه عن شيء ينسيه كلامي عن سلمى. وقد سبقني هو إلى ذلك. قال لي حين وقفت بقربه أمام لوح الخشب الذي كان فتحه، إن أحداً يجب أن ينظف القنّ. وقد ظلّ واقفاً ممسكاً لوح الخشب بيده كأنه ينتظرني أن أبدأ تنظيفه.

لا يستطيع أن يجبرني على شيء. أبي يستطيع أن يجبرني لكن ليس هو. لاأقول له نظّفه أنت، نظّف القنّ أنت، لكنني لن أنظّفه أنا.

تركته هناك، ممسكاً لوح الخشب المفتوح وراداً برجله الدجاجات ليمنعها من الخروج إلى الحوش.

* * *

لم يقل لأبي أنني تركته هناك واقفاً بقرب القنّ الوسخ ومشيت. لكنه، حين اقتربت منه بعد الظهر، ابتعد عني لكي لا يسمعني أكلِّمه. وأنا لم أبق إلى جانبه لأصالحه. ابتعدت عنه مثلما ابتعد هو عني ورحت أمشي في الحوش ماراً بقرب عصافيري من دون أن أقف لأنظر إليها. ذلك لكي يعلم أني ذهبت عنه لا لأشتغل، بل لأذهب عنه فقط. لأفهمه أنني أزعل مثلما يزعل هو. بل أنني أزعل أكثر مما يزعل، لذلك قطعت الحوش كله متجهاً إلى البوابة، ليعرف وهو يراني أنني متجه إلى البوابة. كما أنه رآني وأنا أفتح البوابة وأخرج. وقد وقفت هناك وراءها وحدي لأعرف إلى أين أذهب. ومع أنني فكّرت أنه ربما سيقول لأبي أني خرجت، الآن بعد الظهر، إلا أنني مشيت نازلاً الطريق التي قد أراهم في آخرها، واقفين تحت عمود الكهرباء أوماشين بين عمود الكهرباء وبيوتهم. وقلت في نفسي أني سأنظر إليهم إن نظروا

إليّ، وسأردّ عليهم إن كلّموني، بل وسأتحداهم بأن أكزّ على أسناني أمامهم وأشدّ قبضتي كأنني أستعد لأن ألكمهم بها. .

لم يكونوا هناك. لا أحد منهم. لكنني مع ذلك وقفت أنظر إلى جهتهم، حيث يكونون تحت عمود الكهرباء. ثم بعد ذلك مشيت قاطعاً طريق السيارات لأبدو كأنني أفتش عنهم أين هم. وقد وقفت تحت عمود الكهرباء، وحدي، كأنني أنتظر مجيئهم. بل أنني رحت أتمشى هناك، أروح وأجيء وأروح وأجيء. فوق محل الألعاب كانت رؤوس الأولاد تظهر خارجة من باب بيتهم المفتوح. رؤوس فقط تظهر من فوق الدرابزين إذ لم يكن الأولاد يقتربون من حافّته ليروا ماذا في الأسفل. لو التفتوا إليّ كنت سألوح لهم بيدي وأحرك شفتيّ كما لو أنني أكلمهم. لكنهم ظلوا هناك، يلعبون بشيء لا أراه. يرفعون رؤوسهم عنه ثم يعودون ينزلونها إليه.

ـ كأنها رجعت؟

نقزتُ. كأنه نطّ إلى الطريق من الأسفل وحطّ ورائي، فمه لصق أذني. وأنا لم أكد ألتفت لأراه حتى قال صوت ثان في أذني الأخرى: «رجعتْ؟». كان هذا طوني الذي يقلّدهم. وقد رأيته قبل أن أرى جوزف الذي كلّمني قبله. كانا قريبين مني، كل من جهته، كأنما من أجل أن يمسكاني إن استدرت نحو أحدهما. «كأنها رجعت. . طلّقت زوجها ورجعت. .» قال جوزف وهو يدلّع كلامه متمسخراً عليَّ، ثم ازداد قرباً مني ليضع رأسه على كتفي، ممثلاً إنها هي سلمى تضع رأسها على كتفي. وقد نترت كتفي إلى الأعلى فيما أنا أدير جسمي إليه ليصير وجهه أمامي. كان

يمسك ذقنه بيده ليريني أنني أوجعته، وهو راح يحرّك ذقنه طلوعاً ونزولاً ليجرِّب إن كان كل شيء ما زال مثلما كان قبل أن أطرقه. ثم ضحك بعد ذلك، وضحك طوني. قال لي، مدلّعاً كلامه أيضاً، إنني أوجعته، وصار يبدو كأنه يفكِّر ماذا عليه أن يفعل بي لأنني أوجعته. لم أكن خائفاً. رفعت رأسي إليه ورحت أنظر إليه من عينيّ العاليتين، ليفهم أنني لم أعد كما كنت وأنني صرت أخوّف ولا أخاف. «أفّ. . أفّ»، قال هو، جوزف، قبل أن ينظر إلى طوني ليقول له إنني قويّ وإنه لم يكن يعرف أني قوي. «قوي لكن ليس كثيراً»، أجابه طوني. لكنني كنت شاداً على قبضتي لأضرب بها إن فعل جوزف شيئاً. جوزف، وليس طوني الذي يخاف لأن جسمه ضعيف ووجهه مثل وجوه الأولاد. كنت مستعدّاً أن أضرب لأني لم أكن خائفاً. حين أكون غاضباً لا أخاف، رحت أقول في نفسي لكي لا يهرب مني غضبي.

ـ أنزلها، قلت حين أعلى جوزف يده ليدفش وجهي.

قلت له أنزلها وأنا أمسكها من وسطها وأشدّ عليها لأزيحها من أمام وجهي. ثم قدّمت يديّ الاثنتين إليه لأدفشه وليقع، إن كانت دفشتي قوية، إلى الجورة التي تحت الطريق. لكن طوني الذي يخاف أمسكني من الخلف وراح يشدّ يديّ على جسمي. ولكي أصير أنا أقوى أطلعت صوتاً عالياً ثم نفضت جسمي لأفكّه من يديْ طوني الذي أخافته صرختي العالية. وقد استدرت إليه هو بعد ذلك، لأدفشه وليقع هو في الجورة تحت الطريق. كانت دفشتي قوية، لكنه كان قد أرجع جسمه خطوة إلى الوراء. أصبته في صدره لكنه لم يقع. وقبل أن أستدير عنه كانت يدا جوزف قد

أمسكتاني وبدأتا تشدّان عليّ لتعصراني. وأنا، لأقوّي نفسي هذه المرة أيضاً، أطلعت صرخة قوية قبل أن أنفض جسمي لأخلّصه. وإذ اشتدت يدا جوزف عليّ رحت أخبط رأسي إلى الوراء ليصيبه رأسي في وجهه، وليدمّيه. كان ما زال ممسكاً بي خائفاً من أن يفلتني. حين رأيت أخا وليد الثخين قد وصل إلينا ليفكنا، كنت هائجاً وليس غضباناً فقط، وكانت يدا جوزف قد ارتختا عني وإن ظلّتا ممسكتين بي. لم يقل الثخين له شيئاً، لكنه نظر إليه تلك النظرة التي تعني: رح من هنا. «تعال. . تعال معي»، قال لي واضعاً يده على كتفي ليقطع الطريق بي من بين السيارات.

كنت ما أزال ألهث حين أقعدني الثخين على كرسي وضعها بين البسكلاتات وباب المحل. قال لأخيه وليد أن يأتي لي بالماء لأشرب، فأعطاني أخوه القنينة التي كانت قريبة منا على الطاولة. «هذا دم»، قال لأخيه الثخين الذي قرّب وجهه من رقبتي ليرى. كنت ما أزال ألهث، لكني مع ذلك شعرت بأن رقبتي توجعني. «توجعني»، قلت، فأجابني الثخين بأنها خفيفة وسأل أخاه إن كان عندهم قطن ليمسحها. «سأخانقهم كلما تطلعوا فيّ» قلت مديراً رأسي وجسمي إلى ناحية الباب كأنني سأقوم وأهجم على جوزف وطوني إن كانا ما يزالان هناك، حيث تقاتلنا. «سأخانقهم كلهم»، قلت ليجيبني الثخين بشيء، كأن يقول لي مثلاً إنهم زعران لكن لا يجب أن نقاتلهم. وليد أخوه لم يجب بشيء هو أيضاً. قال للثخين إنه صاعد إلى بيتهم ليرى إن كان عندهم قطن، وحين خرج من البوابة رأيته يقفز الدرجات الثلاث ويمشي بعد ذلك مهرولاً في اتجاه بيتهم. «خفيف لكنه ما يزال ينزف»، قال لي

الثخين ليسألني بعد ذلك كيف انجرحت وبماذا انجرحت. قلت له إني سأقوم، لكنه حين رأى أخاه راجعاً طبطب على كتفي لأبقى.

ـ ليس عندنا قطن، قال أخوه مقدّماً منشفة صفراء صغيرة إلى يد أخيه.

ـ زعران، قلت أنا ليسمعني وليد.

لم يجب بشيء. بل أنه لم يقف قرب أخيه وهو ينظّف الدم بالمنشفة.

ـ أنت تخانقت معهم مثلي، ألم تتخانق معهم؟

فقط هزّ رأسه لأفهم أنهم لا يعجبونه.

كان نَفَسي قد هدأ لكن جرحي كان يوجعني كلما مسحه الثخين بالمنشفة.

ـ قالوا لي إنها بعثت لك رسالة.

ـ مَنْ؟

ـ هم.

ـ من هي التي بعثت لي رسالة؟

ـ سلمى.

ـ من قال لك؟

ـ كلهم.

ـ ولماذا بعثت لي رسالة؟

ـ لتخبر أنها سترجع.

لم يقل لي شيئاً من عنده. فقط سألني: من وماذا ولماذا، وحين ذهب إلى آخر المحل الطويل لينفض اللعب التي وضعوها

على رفوف هناك، كان يقصد أن ينهي الكلام عن سلمى. أخوه كان يريد ذلك أيضاً. قال لي، فيما هو يأخذ يدي ليضعها على المنشفة، أن أبقي يدي هنا وأن لا أكبسها لئلا يكبر الجرح.

* * *

كان أبي وأخي جميل وأخوتي كلهم قد أداروا وجوههم إلى البوابة لينظروا إليّ. حين رأوني ممسكاً بالمنشفة الصفراء مغطّياً بها رقبتي تقدّم مني أبي، وحين وصل إليّ أخذ المنشفة بيده لينظر إلى الجرح الذي تحتها. ثم راح ينظر إلى الدم الذي على المنشفة مقلّباً إياها كأنه يفحصها. «من أعطاك هذه المنشفة»، قال لي. ولمّا أجبته إنها من الثخين صاحب محل الألعاب، سألني إن كان قد تدخّل بيننا أو أنه كان يتفرج عليهم وهم يقاتلونني. أما الذين قاتلوني فتأخر في السؤال عنهم حتى ظننت أنه لا يريد أن يعرف من هم. وحين سكتَ، مبقياً المنشفة في يده، فهمت أنني أستطيع أن أذهب لأغسل رقبتي وأنشّفها. لكنني، بعد أن مشيت باتجاه البيت، سمعت سؤاله الذي كنت أنتظره:

ـ ميخا؟

ـ ميخا لم يكن هناك.

ثم تركني أمشي خطوتين أو ثلاث خطوات قبل أن يوقفني مرة أخرى.

ـ من كان هناك غير ميخا، من ضربك؟

ـ أنا ضربته وهو ضربني.

ـ من؟

ـ جوزف، وكان معه طوني، الصغير الذي يقلّد.

ـ وأنت لماذا نزلت إلى هناك؟

كنت أستطيع أن أجيبه بأي شيء. أن أقول له مثلاً أنني ذهبت لأكلم رجلاً سألني مرة إن كنت أبيع عصافيري كلها، أو أقول أنني ذهبت لأرى أي الصنانير يجب أن أشتري لأنني سأصير أصطاد السمك من البحر. كنت أستطيع أن أخترع أيّ شيء، لكنني، مع ذلك بقيت ساكتاً، بقيت ساكتاً ولم أجبه.

وهو عرف أني لن أجيبه فلم يُعد سؤاله مرة ثانية.

ـ رُح، قال لي وهو يقدِّم يده إليّ لأقترب منه وآخذ المنشفة الصفراء.

لم يصرخ عليّ ولم يرفع يده فوق وجهي. لم يقل لي: «تكلم أنا سألتك» بعد أن رآني بقيت ساكتاً كأنني لم أسمعه. وأنا بقيت منتظراً أن يسخط عليّ، أن يلكمني على رأسي حين مددت يدي لأخذ المنشفة. أو أن يلتقط يدي التي مددتها ويروح يهزّني هزاً ويقول لي: حين أسألك تردّ، فهمت؟

تركني آخذ المنشفة وبقي واقفاً ينظر إليّ حتى بعد أن استدرت لأذهب إلى البيت. لم يصرخ عليّ ولم يلكمني. ليس لأنه خاف، إن لكمني، أن تصيب اللكمة جرحي، بل لأنه سيبقى هنا في الحوش، يشتغل، ولن ينزل إليهم ليجيء بجوزف وطوني ويحبسهما، هنا في غرفة الموتور.

* * *

قال لي أخي جميل حين رآني وقد لففت حول رقبتي القماشة البيضاء أنني يجب أن أبقى هنا ولا أنزل إلى هناك. ولما أجبته

بأني لا أخاف منهم وأنني سأضربهم إن اقتربوا مني، عاد وقال لي أن لا أعود وأنزل إلى هناك، هكذا كأنما لأفهم ولا أسأل.

ـ أنا لا أخاف منهم. لا أخاف منهم حتى لو كان معهم ميلاد وميخا.

ـ أنا مثلك لا أخاف منهم.

ـ أبي يخاف؟

ـ لا يخاف.. أبداً.

ـ لكنه لم ينزل إلى جوزف وطوني مثلما فعل يوم حَبَسَ ميلاد.

ـ يومها كانوا وحدهم.

ـ مَنْ؟

ـ كلهم، كانوا وحدهم.

عرف أنني لم أفهم. وقد أراحه بقائي ساكتاً محاولاً أن أفهم ما قاله لوحدي، لأنه لا يحبّ أن يحكي كثيراً. لكنه، بعد أن عرف أنني لم أستطع أن أفهم لوحدي، قال لي، مقرّباً وجهه من أذني، إن هناك آخرين معهم.

ـ نحن لا نعرفهم؟ سألته وأنا أميل بوجهي إليه.

ـ لا نعرفهم..

ـ هم أعطوا ميخا جاكيت العساكر؟

ـ هم.. وأعطوه بواريد ورشاشات وربما قنابل.

عدت أخاف. كنت قد فكّرت، مع أنني انجرحت في رقبتي، أني لم أعد أخاف منهم، إلا أنهم، مع أولئك الناس الذين لا

أعرفهم، صاروا يخوّفون الزهرانية كلها وليس أنا وحدي. لم تُخفني فقط الرشاشات التي لا ينتهي الرصاص منها، بل اللؤم الذي بدأوا يخبّئونه مثلما خبأوا الرشاشات والقنابل. اللؤم الذي سيجعل نظرة ميخا أقوى، إذ ستصير توسّع عينيه لتتطلّعا في رأسي كأنهما تفختانه.

ـ سيغلبوننا بدقيقة، قلت لأخي جميل كأنما لأخوّفه عن قصد، بل أنني تخيّلت أني أقول ذلك لأبي لأنه عمل تلك البواريد التي، حتى إن قوّصت، لا تُطلع إلا خرطوشة واحدة.

ـ أنت لا تنزل إلى هناك على كل حال، أجابني.

كان يخيفني أولئك الذين لا يعرفهم أخي ولا يعرفهم أبي ولا يعرفهم أحد. أولئك الذين لا أعرف إن كانوا يأتون إلى الزهرانية في الليل، حين يكون الناس كلهم نائمين، أو إن كان ميخا وطوني وجوزف وميلاد يذهبون إليهم ولا يعودون من عندهم إلا قبل ساعة من قيام الناس من النوم. أخاف منهم لأني لا أعرفهم ولا يعرفهم أحد. وكذلك أخاف مما قد يحصل في الزهرانية لأني لا أعرف كيف سيحصل. أو لا أعرف كيف سيبدأ. هل سيخلعون بوابتنا الحديد ويبدأون بضربنا ثم بعد ذلك يقوّصون علينا رصاص الرشاشات، هل سيأخذون أبي معهم ويتركوننا وحدنا، هل سنعرف أنهم بدأوا بالهجوم وهم بعد على الطريق، هل سيكون معهم ميخا، مرتدياً ثياباً عسكرية كلها ويشير لهم بإصبعه وهو يقول لهم: أقتلوا هذا، فيما تكون عيناه تفتشان عمن سيقتلونه أيضاً؟

ـ أنت تعرف كيف سيحصل؟

ـ ما هو؟

ـ الهجوم، حين يهجمون علينا.

ـ لا أعرف. . أنت على كل حال إبق هنا.

هذه أيضاً تخيفني، أن أبقى هنا. الآن يقولها أخي وغداً، حين يصيرون مستعدين لأن يهجموا، سيقولها لي أبي. بل أنه سيمنعني من أن أخرج من البوابة. بالقوة سيمنعني. تعال إلى هنا، سيقول لي حين يراني صرت قريباً منها. وأنا لا أستطيع إلا أن أطيعه، ليس لأنه سيلحق بي ويرجعني إن ذهبت، بل لأنني أستحي أن أهرب من البيت وأتركهم هم ليموتوا.

لكنني، مع ذلك، لا أستطيع أن أكون هنا، أو حتى لا أستطيع أن أبقى هنا الآن، خائفاً من أن يأتوا.

ـ أبي يعرف كيف تبدأ؟

ـ ما هي؟

ـ الحرب.

ـ . . ربما يعرف. . هو يعرف لأنه بدأ يعمل البواريد حتى قبل أن يصير الناس يحرسون في الليل.

ـ يعرف متى ستبدأ؟

ـ لا أظنه يعرف. . لا أحد يعرف.

لا أستطيع أن أكون هنا. حين يأتون لا يجب أن أكون هنا. لن أسأل أبي. لن أقول له إني سأخرج. سأضع العصافير في الأقفاص مثلما كنت أفعل، وأحملها مثلما كنت أفعل، وأمشي بها إلى البوابة. سأتركه هو يسألني إلى أين أنا ذاهب. «ذاهب لأبيع

العصافير»، أجيبه. وهو لا يعرف أني خارج لأهرب لأنه يظن أني لا أفهم ماذا سيجري في الزهرانية.

* * *

ـ إلى أين؟ قال لي من حيث يقف مديراً وجهه إلى لوحة المفاتيح فوق طاولة الحديد.

تلعثمت. لم تخرج من فمي إلا حروف مقطَّعة، لكني، من بعدها، قرّبت الأقفاص بيدي لأقول بذلك إني ذاهب لأبيع العصافير.

ـ أرجعها، قال لي وهو يشير برأسه إلى غرفة السياج.

بقيت واقفاً حيث أنا، حاملاً الأقفاص بيديّ.

كان يعرف أنني لم أرجع، وأني ما أزال واقفاً حيث أنا، لكنه، حين التفت إليّ ، بدا كأنه تفاجأ لأني ما زلت حيث أنا.

ـ قلت لك أرجعها، ألم أقل لك أرجعها؟

كان قد رفع يديه عن طاولة الحديد وأدار جسمه كلّه إليّ، منتظراً إياي أن أعيد العصافير إلى غرفة السياج، وإلا سيفعل شيئاً لي.

إلا أني بقيت واقفاً حيث أنا، ناظراً إليه في وجهه.

ـ لن ترجعها؟

ـ أنا سأخرج، سأخرج لأبيع العصافير.

كنت أعرف أنه لن يضربني ولن يحبسني، لأنه ظلّ هنا في البيت ولم ينزل إليهم بعد أن رآني انجرحت وسال الدم من رقبتي.

سيستحي حتى أن يقول لي يا كلب.

حين استدار عني إلى طاولة الحديد التي رفع يديه إليها ليشتغل، عرفت، من دون أن يقول هو ولا كلمة، أنني أستطيع أن أبقى وأستطيع أن أخرج.

ـ أنا ذاهب، قلت.

لم أرَ ماذا كان يجري خلفي فيما أنا أتجه صوب البوابة. حين أتى أخي جميل إليّ وأنا أفتحها لأخرج، فكّرت أن أبي هو الذي أرسله، بإشارة من يده أو غمزة من عينه، ليقول لي أن لا أنزل عن الطريق المحفورة لئلا يقاتلوني هناك تحت عمود الكهرباء. «ولا ترجع في الليل» قال لي وهو يغلق البوابة ورائي.

مشيت في أرض التلة التي ليس فيها طريق ولا بيوت إلا تلك الغرفة العتيقة المهدمة. لم أكن فرحان ولا زعلان لخروجي هكذا غصباً عن أبي. حتى لو عدت في الليل، في آخر الليل، لن يقول لي شيئاً. لكنني، مع ذلك، لم أفكّر إلا بأني سأعود إلى الزهرانية فزعان خائفاً، لأن ليس لي مكان غيرها أنام فيه.

وقد مشيت في أرض التلة مبتعداً كثيراً حتى أنني، حين سأصل إلى طريق السيارات، سأكون قد اقتربت من محطة الكهرباء. هناك، حيث سأصل، لن أرى أحداً منهم. الزهرانية كلها ستكون ورائي، حتى الرصاص، إن فرقع فيها، لن يصلني إلا صداه، صدى صوته وليس صوته، وربما يأتيني عائداً من التلال التي وراء الزهرانية، تلك التي لا يسكن فيها أحد.

* * *

هنا، حيث وصلت غير بعيد من محطة الكهرباء، أستطيع أن

أقف منتظراً مجيء الباص على مهلي. لا أكترث إن جاء الآن أو إن تأخر ساعة أو ساعتين، المهم أنني لست هناك في بيتنا. حين أعود سأبدأ أخاف من جديد. لكنني الآن لست هناك. على الطريق أمامي رحت أتسلى بالسيارات، أعدّها، تلك التي تعبر من جهة ما أقف وتلك التي تعبر من الجهة الأخرى. أو أنظر إلى الناس الذين في داخلها لأخمّن من منهم سيبقي عينيه على العصافير بعد أن يراها.

الباص الذي توقّف بابه ضيق فلم أستطع أن أدخل إليه وأنا حامل بيديّ الأقفاص الثلاثة. قال لي السائق أن أدخلها قبلي، وهو راح يتفرج عليّ أفعل ذلك من دون أن يستعجلني. بل أنه ظلّ موقفاً الباص لكي أوصل الأقفاص إلى حيث سأجلس في المقعد الطويل الأخير. وأنا هناك نظر إليّ في المرآة فوقه ورفع يده كأنما ليقول لي: اتفقنا، هل أستطيع أن أمشي الآن؟

إن كان سيحدث شيء في بيتنا فليحدث الآن، وأنا على الطريق، في الباص الذي كلما مرت دقيقة يبعدني أكثر ويخلّصني من فزعي. ليس أني لا أخاف عليهم، هم أبي وأخوتي، لكنني لا أتحمل أن أكون هناك في وقت ما يهجمون على البيت، خالعين بوابة الحديد بأرجلهم أولاً ثم بالرصاص الذي يقوّصونه من رشاشاتهم. أبي وأخي جميل كانا يعرفان أنني خرجت لأهرب وهم لذلك لم يقولا لي شيئاً عن العصافير. يعرفان أني حملتها هكذا، لأبدو كأنني أفعل ما كنت أفعله. وربما كان سائق الباص يفكّر بذلك أيضاً. كلما نظرت إلى المرآة فوقه أراه ناظراً إليّ، أو أراه مزيحاً نظره عني بعد أن كان ينظر إليّ. ربما لأني جالس في

وسط المقعد، في آخر الممر بين مقاعد الباص، أو ربما ليسأل نفسه من أين أجيء بالعصافير، أو إلى أين أنا ذاهب بها. . ربما. . لكنني، بعد ذلك، حين أبقى نظره عليّ حتى بعد أن رآني أنظر إليه أنا أيضاً، عرفت أنه يفكِّر في ما أفكّر أنا فيه: إني ذاهب مع العصافير، لا لأبيعها، لكني لأبدو أنني خرجت بها لأبيعها.

لم يكن الباص قد قطع نصف الطريق حين، فجأة، بدأت أخاف من عودتي إلى الزهرانية. صرت أقول لنفسي إني لم أصل بعد إلى حيث أنا ذاهب وأن لديّ اليوم كله، لكني بقيت خائفاً كما لو أن الباص راجع إلى الوراء وليس ذاهباً إلى الأمام. وقد ثقل عليّ خوفي حتى صرت أتلفت حولي وأشد على جلد المقعد بيديّ. ثم خطر لي أني لا أتحمل أن أبقى جالساً لكني، مع ذلك، لا أستطيع أن أقوم لأن لا أحد يقف فيما الباص يسير. سيظن السائق أنني قمت لأني أُريد النزول، فينظر إليّ ليكلمني هذه المرة ويسألني إن كنت حقاً سأنزل هنا، حيث لا شيء، لا بيوت ولا دكاكين، على جانبَي الطريق.

بدل أن يبعدني أكثر فأكثر عن الزهرانية، صار الباص، السائر على مهله، يأكل الوقت أكلاً ليعيدني إليها. لكنني، لكي أهدّئ نفسي، صرت أقول إنه لو أسرع لفكّرت أن الوقت يجري سريعاً هكذا، مثل سرعته. لكنني مع ذلك صرت أخبط بيدي على جلد المقعد كلما زاد تباطؤه أو كلما وقف ليسأل رجلاً واقفاً على الطريق إن كان ينوي الركوب. أخبط بيدي على المقعد وهو يسأل الرجل الذي يسأله بدوره، ويخطر لي أن أقف، أو حتى أن أمشي في الممر الضيّق أمامي. تريد أن تنزل هنا؟ سيسألني في لحظة ما

أكون قد وقفت، وإن قلت له: لا، لا أريد أن أنزل، ستزداد عيناه تطلّعاً فيّ. . .

ـ قم. . قم. . وصلنا.

كان واقفاً أمامي، أقصر مما كان يبدو لي وأنا أرى وجهه في المرآة. ثم قال لي مرة أخرى إننا وصلنا ليفهمني أنني كنت غافياً وأنه جاء إليّ ليوقظني من غفوتي. لكنه، حتى بعد أن أفقت وانتهيت من التطلع حولي لأعرف أين أنا، ظل واقفاً أمامي ليس بيني وبينه إلا الأقفاص التي على الأرض. كان عليه أن يرجع إلى الوراء، أن يدير ظهره ويمشي، لأستطيع أن أقوم. لكنني مع ذلك، قمت، وإن متحسّباً إلى أنني قد أصدمه بكتفي. ولما انحنيت لأمسك الأقفاص من تعاليقها، تراجع هو إلى الخلف، خطوة، استدار بعدها ليمشي في الممر وليخرج من بوابة الباص بعد ذلك. وحين خرجت من بعده حاملاً الأقفاص، لم أره بين الناس القليلين الذين كانوا كلهم واقفين كأنهم ينتظرون أناساً قادمين.

* * *

كأنني نزلت في غير المكان الذي اعتدت أن أنزل فيه. الطرقات التي تدور فيها السيارات حولي لا أعرفها، والرجال القليلون الذين هناك، في الساحة التي نزلت إليها، كانوا رافعين رقابهم إلى الأعلى ليتمكّنوا من رؤية من ينتظرون مجيئهم. إن اقتربت من أحد لأسأله أين أنا، ربما لن يجيبني، ليظل مستغرقاً في النظر أمامه. ثم أني لن أستدلّ على شيء إن لم أعرف أين أنا. إن أجابني من سأسأله وسمّى لي الساحة التي نحن فيها، هل سأعرف كيف أصل إلى الطرقات التي اعتدت أن أسير فيها؟

لكني، مع ذلك، لا أستطيع أن أظل هنا ولا أن أبدأ المشي آخذاً واحداً من هذه الطرقات التي لن يدلّني شيء فيها على شيء. يجب أن أكلّم أحداً، أن أسأل أحداً لأعرف إن كنت سأبقى هنا أو إن كان عليّ أن أمشي في واحد من هذه الطرقات. أسأل ذاك الرجل، الرجل الواقف لوحده مبتعداً عنهم:

ـ محطة الباص هذه لا أعرفها، هل تعرف أين هي المحطة الثانية؟

كان قد أدار وجهه إليّ حين رآني أقترب منه، لكن بعد ذلك اكتفى بأن يبقي عينيه ناظرتين إلى وجهي.

ـ لا أعرف هذه المحطة؛ هناك محطة غيرها كنت..

من بقاء عينيه ناظرتين كأنما إلى حشرة حطّت على جبهتي، تخيلت الكلام طالعاً من فمي هواءً فقط. كأنه أطرش لا يسمع، أو كأنه يستمهل نفسه ليسمع مني شيئاً يضحكه.

وحين مشيت لأبتعد عنه أدار وجهه عني من فوره وراح يتطلّع من فوق رقبته إلى الناس الذي يتقدّمون من طريق السيارات ليصعدوا إلى الرصيف. لا أحد منهم سيجيبني، قلت في نفسي وأنا أقف، منزلاً الأقفاص من يديّ إلى الأرض، لأرتاح، ولأعرف بعد ذلك ماذا عليّ أن أفعل.

أنا، على كل حال، جئت لأمرّر الوقت لا لأبيع العصافير. تلك المرأة التي أعرفها ربما لن تكون هناك في بيتها، ولكي أقنع نفسي بأنها لن تكون هناك رحت أتخيّل الزرّيعتين اللتين وضعتهما على جانبي الباب يابستين ميّتتين وأنا أدقّ الباب مرة بعد مرة وهي ليست هناك لتفتح لي. أبقى هنا إذن، أقطّع الوقت هنا، أمشي في

هذه الطريق حتى آخرها، ثم أعود لأبدأ مشيي في طريق أخرى، ثم أعود حين أصير في آخرها. أكون أتفرج على الطرقات من دون أن أضيع إذ سأعود دائماً إلى هنا، حيث أقف الآن. وفي كل مرة أعود سأسأل عن الباص الذي سيرجعني إلى الزهرانية، عن آخر باص.

وربما أكون قد بعت عصافير لأحد من الناس هنا. أبيعها مع قفصها، حتى لو بعت عصفورين أو أربعة عصافير سأبيعها مع القفص وأرد العصافير الباقية إلى القفصين الباقيين معي. أحتاج أن أبيع، ولو اثنين أو أربعة لكي أستطيع أن أقول غداً لأبي، إن سألني، أو لأخي جميل، إني ذاهب لأبيع العصافير. إن لم أبع منها شيئاً سأطيّرها، أطيّر أربعة أو ستة، أو أطيّرها وأبقي القفص في مكانه، متروكاً على الأرض، لأني حين سأدخل إلى بيتنا حاملاً قفصين فقط، لن يعودوا يقولون لي إني خرجت هكذا من أجل لا شيء.

سأبدأ من هذه الطريق، قلت، من هذه الطريق الضيقة التي لا زحمة فيها.

* * *

ربما كان هذا الباص نفسه الذي جئت به وإن كان سائق آخر ذاك الذي يجلس الآن تحت المرآة. الطرق التي تأتي منها السيارات إلى الساحة وتخرج منها مَشَيْتُها كلها ست مرات أو سبع مرات ولم يقف أحد ليسألني شيئاً عن عصافيري. أولئك الماشون على أرجلهم كانوا ينظرون إليها ثم يسرعون إلى رفع نظرهم عنها، وبعض منهم كان يلتفت إليها من حين ما يصير ورائي قاطعاً خطوة واحدة عني. وقد بقيتْ كلها معي وأنا في الباص، مع أقفاصها

الثلاثة. لم أستطع أن أفلت أياً منها وأنا هناك في الساحة، منتظراً وقت أن يسير الباص. دائماً كان هناك أناس قريبين مني وهم كانوا سيرونني حتى وإن قرفصت لأصير قريباً من الأرض. كما أنهم سينتبهون إلى العصفور الذي سأخرجه من بوابة القفص، سواء بقي منتظراً قرب القفص لا يعرف ماذا يفعل، أو طار خابطاً جناحيه اللذين سيطلعان صوتاً قوياً حتى لو كانا صغيرين. كانت ما زالت كلها معي حين صعدت إلى الباص، لا جائعة ولا عطشانة لأني ملأت لها أكواب الماء مرتين من حنفية تظل مفتوحة في آخر رصيف الساحة. قلت، وأنا أصعد الدرجتين لأصير في داخله، إنني سأطيّرها من النافذة المفتوحة. أطيّر أربعة منها أو ستة، عصفوراً بعد عصفور، لكن بعد أن يعتم الليل أكثر فلا يعود السائق يراني في مرآته. الركاب الجالسون على المقاعد هنا وهناك لن يروني أيضاً، حتى وإن أفلتّ العصافير قبل العتم، لأني دائماً أجد مكاناً على المقعد الأخير، ذاك الذي أرى رؤوس الناس وأنا جالس فيه ولا يرونني هم إلا إن استداروا بأجسامهم إليّ.

وهم، على أي حال، أخذوا ينزلون من الباص واحداً بعد واحد. كان أكثرهم قد نزل حتى قبل أن يقطع الباص نصف الطريق، وحين قوي الليل لم يبقَ منهم إلا رجل وامرأته جالسين معاً لكن لا يتكلمان أبداً، بل وربما كان الرجل يغفو ثم يفيق فيرتفع رأسه مباغتاً بعد أن يكون قد التوى هابطاً إلى كتفه. وفي الأمام، في المقعد الأول الذي قرب الباب، بقي رجل يقول للسائق كلمات كلما قطع الباص مسافة لا أسمع ما هي.

وكانت العصافير ما زالت كلها معي حين وقفت على رجليّ

هناك حيث شركة الكهرباء، لأكون جاهزاً لأقول للسائق: هنا، أنزل هنا. وقد بقيت واقفاً، مؤجّلاً نزولي لأني كنت تعباناً ولا أقدر أن أمشي المسافة التي مشيتها في الصباح. لكن لن أنتظر حتى يقترب الباص كثيراً فيرونه، إن كانوا يحرسون الطريق، ويرونني أنزل منه بعد ذلك. «هنا، قف هنا»، قلت للسائق الذي لم يسمعني. «قف.. قف»، قلت له مرة أخرى وأنا أقترب خطوتين منه تاركاً الأقفاص حيث هي. وقد عرف حين رآني أنه تأخر عن أن يسمعني فأوقف الباص في مطرحه.

كانت الطريق معتمة، والأرض التي فوقها معتمة أيضاً مثل فحمة. والعصافير ما زالت كلها معي، نائمة لم يوقظها وقوف الباص السريع ولا خبط أقفاصها بحافات المقاعد قبل نزولي. قلت إني يجب ألا أفلتها هنا على الطريق، أو حتى في أول الأرض إذ ستظل قريبة من عبور السيارات والباصات. كان العتم قوياً حتى أنني، في خطواتي الأولى، تركت رجليّ تتفحصان ما تدوسانه لأن عينيَّ لا تُريانني شيئاً. وقد ظلّ العتم قوياً بعد ذلك وإن كنت بدأت أرى الحجارة الكبيرة وجبوب الزرع فأحيد عنها. هنا سأفلت العصافير، قلت. حين قرفصت بعد أن وضعت الأقفاص الثلاثة على الأرض، خفت، وخطر لي، لكي أوقف خوفي، أن أعود إلى المشي. لكنني، مع ذلك، جعلت يديّ تسرعان، واحدة لتفتح باب القفص وتبقيه مفتوحاً، وواحدة لأمدّها إلى العصافير كي تكمش ما يقع تحتها. كانت ما تزال نائمة كلها. حتى حين أخذتْ يدي واحداً منها وأخرجته من البوابة ظل نائماً. ومن قوة العتم رحت أقرّبه من عينيّ لأعرف ماذا هو. ثم

وضعته نائماً على الأرض، نائماً كما هو، وكما تنام العصافير قبل أن يبدأ الناس بحبسها في الأقفاص. ثم أخرجت العصفور الثاني ووضعته، بل وأنمته، قرب الأول. وفيما يدي تكمش العصفور الثالث دوّى ذلك الصوت الذي حسبته، لقوته، كأنه أضاء الليل للحظة حولي. ولم أعرف من أين أتى ذلك الصوت لكنني، حين أدرت وجهي إلى هناك، حيث يحرسون الطريق، رأيت أضواء البطاريات البعيدة تدور في الاتجاهات، كأن حامليها يبحثون عن شيء، مسرعين في ذلك من أجل أن يلتقطوه قبل أن يختفي. وقد أوقفت يدي عن إخراج العصفور. بل أنني تركته هناك، حيث كان، وبقيت أنا مقرفصاً لكي لا يقع عليّ ضوء البطاريات فيرونني خيالاً واقفاً هنا في وسط الأرض. بل أنني أخفضت رأسي وكتفيّ واضعاً يديّ على الأقفاص أمامي. وقد ظلّت أضواء البطاريات تتحرك هائجة يبتعد حاملوها عن بعضهم البعض ثم يعودون فيقتربون موزّعين أضواءهم حولهم. وقد خفت أن يذهبوا إلى أبعد من المكان الذي يتحرّكون فيه فيصيرون قريبين مني. كان بيتنا، هناك في الأعلى، ما زال بعيداً لكنني، مع ذلك، يجب أن أبدأ التحرك نحوه، مقرفصاً هكذا جارّاً الأقفاص جراً أو منقّلاً إياها واحداً بعد واحد.

لم أكن قد قطعت بعد إلا مسافة قليلة حين لعلع الرصاص ليطلع من بعده ذلك الصوت القويّ، خاضّاً جسمي هذه المرة. كان بعيداً وقريباً في الوقت نفسه، لذلك لم أعرف من أي جهة كان يطلع ولا أين يصيب. كان بيتنا ما يزال بعيداً وقد فكّرت أنني لن أستطيع الوصول إليه إن بقيت هكذا، منبطحاً على الأرض

وزاحفاً على يديّ ورجليّ. ثم أن الصوت القوي وأصوات الرصاص ربما تطلع من حول بيتنا، أو ربما تقع على بوابته لتنخلع وليدخلوا منها بعد ذلك إلى الحوش. وإذ رحت أتخيّل ما سيجري في الحوش بعد دخولهم، حاملين بواريدهم وسكاكينهم الكبيرة، بدأت أنمغص وتوجعني بطني. لن أذهب إلى البيت، قلت. بل أنني رحت أتطلّع حولي لأعرف إن كنت أستطيع أن أمدّد جسمي هنا، حيث أنا. مرة أخرى طلع الصوت القوي في الوقت ذاته مع لعلعة الرصاص. كأن هؤلاء وأولئك اقتربوا بعضهم من بعض، بل وربما اختلطوا. المغص الذي كان في بطني أحسسته وقد نزل إلى الأسفل. لم أعد أستطيع ضبطه، كما أنني لا أستطيع، الآن، أن أوقفه وأن أخرجه مني. ربما يحدث شيء يضطرني إلى أن أركض، أو أن أرتمي كلّي على الأرض. كان عليّ، وأنا منبطح هكذا، مسنداً جسمي بكوعيّ، أن أقرفص وأبدأ بخلع الأوفرأول. وقد بدأت يداي بعد أن قوي المغص وصار في الأسفل، تتحركان بسرعة كأنما لوحدهما. أنزلت يداي الأوفرأول عن بطني وجمّعتاه قرب ركبتيّ، ثم أسرعت أنا لأسبق المغص قبل أن يسبقني.

وقد أراحني ذلك من خوفي أيضاً. ليس لأني لم أعد أفكر بما قد يحدث، أو بما يكون قد حدث، بل أن ما أفكّر فيه صار أهون عليّ. لكنني، مع ذلك، سأبقى هنا حيث أنا. ليس هنا هنا، حيث أفرغت ما في بطني، بل أبعد قليلاً، مسافة عشر خطوات أقطعها جارّاً نفسي وجاراً معي الأقفاص، لكي لا أبقي العصافير قرب الرائحة.

* * *

وقد غفوت. وجدت نفسي ممدداً على الأرض وليس بلابلي التي في الأقفاص وحدها كانت تزقزق. الذباب أيضاً كان قد بدأ يطنّ محوّماً حول تلك الكومة التي أخرجتها مني. لم أكن قد ابتعدت عنها كثيراً كما ظننت. ربما خمس خطوات أو ست خطوات لا أكثر. قبل أن أغفو لعلع صوت رصاص كثير وسمعت الصوت القويّ مرات. ولا أعرف إن كان قد حدث شيء في أثناء ما كنت غافياً. ثم، وقد بتّ مستنداً على كوعيّ قبل أن أقوم، خطر لي أنهم، قد يكملون ما كانوا يفعلونه في الليل. ثم خطر لي أنني، إن ذهبت إلى بيتنا، سيرونني ماشياً بين الحجارة والجبوب وهم سيقولون حين تقع عيونهم عليّ: هذا هو، إنه هو. لكنني مع ذلك حملت أقفاصي وبدأت أمشي تلك المسافة الطويلة مبتعداً إلى حدّ شركة الكهرباء، ومن هناك أصعد التلة كلها لأصل إلى بيتنا من الخلف، حيث الحائط الذي صوّب أبي البارودة نحوه.

وكان عليّ أن أسرع فوق ذلك لئلا تقوى الشمس كثيراً وتحرق وجهي. كما سيكون أحسن لي أن أترك واحداً من الأقفاص وأكسره بعد أن أطيّر عصافيره. سأقول لأبي، أو لأخي جميل أنني بعته، بعته هكذا مع العصافير التي فيه. حين وصلت إلى حدّ شركة الكهرباء كنت حاملاً قفصين فقط. الثالث فتحت بابه ورحت أخضّه لكي تهرب العصافير ثم وضعته تحت رجلي وخبطته خبطة انمعس من ثقلها. وقد كان المشي هيّناً بعد ذلك، لكن كان عليّ أن أسرع لأن الشمس ستصير قوية ولأن الأصوات التي سمعتها في الليل يمكن أن تبدأ الآن. ليس أن أسرع فقط لكن أن أركض. أن أركض وأبقي يديّ ثابتتين لا تتحركان لكي لا أهز

العصافير وأدوّخها. أركض، وأقفز أيضاً، فوق الحجارة الكبيرة وجبوب البلان. بل وأحيد عن الحجارة الكبيرة والصخور، وأنا أركض، لتزيد هكذا المسافة إلى أعلى التلة حيث، حين أصل إلى هناك، لن يظل المشي ولا الركض يتعبانني لأن الأرض ستكون نازلة نزولاً إلى بيتنا.

حين رفعت رأسي لأطلّ على التلال التي صارت تحتي طلع الصوت القوي مرة، ثم مرة من بعدها. فكّرت، وأنا أنزل خطوات لأخبئ نفسي، أنهم رأوني وأنهم يصوّبون عليّ. لكنني، وقد صرت قريباً من البيت، لن أقعد منتظراً إياهم أن يأتوا. سأركض، سأركض الآن، مسرعاً من أول خطوة أخطوها أو من أول قفزة. وأظل مسرعاً مثل الطير حتى لا يعودوا يعرفون كيف يصوّبون عليّ فيصير ما يقوّصونه يسقط ورائي لأنني، في ركضي، سأكون قد ابتعدت عنه.

* * *

ـ أين كنت؟

لم أجبه. لأنه لم يسألني لكي أجيبه. بل ليفعل ما فكّر في أن يفعله.

ـ أين كنت.. أين نمت؟

كنت ألهث من ركضي ومن خوفي أن يتأخروا في فتح البوابة لي. ولم أُجِبْهُ، لأنه لم يسألني لكي أجيبه. أعرف ذلك من وجهه، ومن يده التي يهيّئها ممدودة ليسكتني بها، ليقرّبها من فمي إن بدأت أتكلم. لكنه رغم ذلك قال لي:

ـ تكلّم.. لا تريد أن تتكلّم؟

أخي جميل، الواقف على مسافة خطوات مني ومن أبي، كان يعرف أيضاً أن أبي لا يسألني لكي أجيبه. وهو، مثلي، كان ينتظر أن يراه يفعل ما فكّر في أن يفعله.

ـ يعني لن تتكلم.

وحين رآني أفتح فمي لأتكلم، أسكتني:

ـ أترك القفصين، ضعهما على الأرض.

هذا يعني أنه سيبدأ.

ـ ضعهما على الأرض، قلت لك ضعهما على الأرض.

كنت سأضعهما على الأرض مثلما قال، لكن بعد أن أتردّد قليلاً.

ـ خذهما. . خذهما منه، قال لأخي جميل.

مثلي، تردّد أخي جميل. كان سيأتي ويأخذهما مني، لكنه كان سيؤخّر ذلك لكي يبدو أنه يفعل ذلك غصباً عنه.

وقد تركت الأقفاص قبل أن يخطو هو الخطوة الأولى، لأني لا أحب أن يأتي ويأخذ القفصين من يديّ.

ـ إمش قدامي، قال لي أبي وهو يوجّه إصبعه إلى هناك، إلى حيث غرفة الموتور.

يريد أن يحبسني. أن يحبسني مرة ثانية.

بقيت واقفاً في مكاني لا أتحرك.

ـ إمش قدامي قلت لك.

لهاثي الذي كان قد هدأ، عاد قوياً وسريعاً من جديد. وقد

جعلته قوياً عن قصد، لأخيفه، وكان ذلك هيّناً عليّ كأن نَفَسي كان سيفعل ذلك لوحده.

لم يخف. ولم يقل لي مرة أخرى أن أمشي قدامه. كان يمهلني دقيقة لأستدير إلى حيث قال لي. دقيقة واحدة، بل أقل من دقيقة أعلى يده في آخرها، لا ليضربني، لكن لتصير قوية، أقوى مما هي، وليلتقطني بها من ذراعي.

وقد نترتُ يدي فيما صوت لهاثي يعلو لوحده وأنا أكزّ على أسناني وأشد قبضتيّ.

ثم تراجعت خطوتين أو ثلاثاً إلى الوراء جاعلاً يديّ الاثنتين أمامي، لأحمي بهما جسمي إن بدأ يضربني، لكن أيضاً لأبدو أنني سأضرب بهما.

ـ يا كلب.

طلع صوته هادراً وزاعقاً في الوقت نفسه، كأنه أفلت منه. لكنه قالها مرة ثانية بعد ذلك: يا كلب، فيما هو يندفع نحوي بجسمه الضخم. لكنني ركضت. هربت. كنت مذعوراً، مرتعباً من أن يصل إليّ قبل أن أفتح البوابة. ولمّا خرجت منها سمعت صوته الصارخ الهادر يقول: رح.. رح، ثم يقول أيضاً: رح، رح. صوته لوحده، من دون أن يتدخل هو فيه. أتركه.. أقفل البوابة، صار يقول، لأخي جميل ربما، الذي ركض، لا بدَّ، ليلحق بي ويعيدني.

# لم يعد أحدٌ هنا

كأنني لم أعش بينهم، واحداً منهم، هنا في الزهرانية التي لم أغادرها أبداً منذ أن جئنا إليها أنا وأخي. لم أعرف مما جرى فيها إلا ما كان يظهر لي أمام عينيّ. وأنا لم أكن ألتفت لأعرف إلى أين يذهب أولئك الذين كانوا هنا أمامي وماذا يفعلون هناك، حيث لا أراهم. بتّ الآن أعرف أن عينَي الشخص لا تكفيانه وأن الناس يحتاجون إلى أن يسمعوا بآذانهم حتى يكملوا قصّة رأوا شيئاً منها. ويجب أن يكون الذين يتبادلون السمع والكلام كثيرين لكي يضع كل منهم حكايته في المحل الفارغ لها، هكذا مثل لعبة الكرتونات المقطّعة التي صرنا نبيع منها في محلّنا. ما كان يخبرني به أخي لم يزد عن كلمات يقولها لي كما تقال الحزازير، تحيّرني بدل أن تدلّني وتعرّفني. في أيام ما كان يحكي لي عن سيارة المرسيدس البيضاء كان يكذب عليّ وكنت أنا أصدّقه. «أنظر.. أنظر» كان يقول لي مشيراً بإصبعه إلى حيث لا أرى شيئاً. كأني لم أعش بينهم، واحداً منهم، في الزهرانية التي، رغم أني عشت فيها عشرين سنة، لم أعرفها أكثر مما كنت سأعرفها لو عشت فيها سنة واحدة. المسبح الذي كان يأتي إليه الناس من أمكنتهم البعيدة،

والذي أقفل منذ أن بدأ الناس يفرّون من الزهرانية بدل أن يأتوا إليها، لم أنزل إليه إلا مرة واحدة. لا أكثر من أنني كنت أذهب إلى المحلات، بسيارتي أولاً ثم ماشياً على رجليّ بعد ذلك، لأشتري ما نحتاجه لأكلنا أنا وأخي. بيوت المسيحيين التي تحت تلك الجهة من الطريق لم أدخل إلى واحد منها. لطالما قلت في نفسي، بعد أن صرت أراها خالية مكسّرة وبلا نوافذ ولا أبواب، أنني كان يجب عليّ أن أزور بيتاً منها، أو بيتين، لأرى كيف كانت من قبل، حين كان أهلها ما زالوا ساكنين فيها. قال لي أخي بعد أيام من هربهم منها أنه يحبّ أن ينقل من بيتنا أغراضاً إلى الغرفتين الصغيرتين اللتين كانت تستعملهما أم نزيه لتخزين الحطب ووضع الشواكيش والرفوش التي تحتاجها لنكش أرض الجنينة. قال إنه يصير هكذا، كلما نزل إليهما، أقرب إلى البحر. وقال إنه سيأخذهما مكاناً للراحة، يقعد على إحدى الكرسيين اللتين حملهما إلى هناك، مرخياً ذراعه على الطاولة التي، على أي حال، لم نكن نحتاج إليها في بيتنا. كان قد صار لوحده، مثلي لوحده، غير أنه لم يكن معتاداً على ذلك مثلي. في يوم نزوله الأوّل إلى هناك قعد ساعتين كنت أتخيّله حائراً ماذا يفعل فيهما. لم يكن في الغرفتين الصغيرتين شيء يتسلّى به. فقط الكرسيان والطاولة حيث كان عليه أن يخرجهما إلى المصطبة لكي يقعد ناظراً إلى البحر تحته، وتلك الفرشة التي في الداخل، موضوعة على الأرض بلا غطاء يغطّيها ولا حصيرة تحتها. في اليوم التالي قعد هناك ساعتين أيضاً أرجع في آخرهما الكرسيين والطاولة إلى الداخل. كنت أنتظر أن يبدأ بتقليل وقت نزوله إلى هناك، مرة بعد مرة، لكنهم، أولئك

الذين كانوا قد هاجموا البيوت وأخلوها من ساكنيها، عادوا من جديد ليأخذوا أبواب الغرفتين وشبابيكهما، وأيضاً الكرسيين والطاولة، تاركين الفرشة في مكانها لتهترئ وتتعفّن لأننا، أنا وأخي، لم نشأ أن نرجعها إلى البيت.

وقد ظلّ أخي يقول إنه ميخا. «ميخا هو الذي سيخرّب الزهرانية»، كان يقول حتى من قبل أن بدأ ميخا يمشي، مرتدياً جاكيت العسكرية، محدقاً في كل ما تقع عليه عيناه. سيأتي يوم يبدأ فيه بتفتيشنا، كان يقول أخي وهو ينظر إليه تلك النظرة الكارهة، لكن الحذرة التي يظل مستعداً لغضّها لحظة أن يخطر لميخا أن يلتفت إلينا في محلّنا. كلما رأيته وقد صار هكذا لئيماً ينظر إلى الناس كأنه يهدّدهم، كنت أتعجب كيف غيّرته سنة واحدة زادت على عمره، أو أقل من سنة. جوزف وميلاد كانا يسوقانه سوقاً حتى أنهما لم يكونا ينتظران موافقته إن قررا الذهاب إلى البحر أو السهر في بيت من بيوتهم. كانا يمشيان وكان هو يتبعهما. كأنه نطّ فوقهم في تلك السنة. كأنه كبر عنهم وهم ظلوا حيث هم في أعمارهم. كان أخي يقول إنه كان هكذا منذ أن عرفه، ساكتاً يفعل ما يفعلونه لكنه دائماً كان ينتظر الوقت الذي يُظهر فيه لؤمه. «لكن ما الذي يقوّيه هكذا؟» كنا نتساءل أنا وأخي. «على ماذا يتكل»، نقول إذ نراه يسير ليس معه إلا جسمه وحده. جسمه الذي إن دست عليه أنا برجلي أمعسه، كما كان يقول لي تيسير في الأيام التي تلت هربه من بيت أبيه، وقبل أن يقوم بفعلته التي أرعبت الزهرانية وقلبتها قلباً.

وكان أخي يسألني: ميخا يقصد من بما يفعله؟ يقصد أبو

تيسير؟ يقصد بيت أبو تيسير؟ بيت أبو عاطف الذي ليس فيه رجال؟ أو يقصدنا نحن، أنا وأخي؟ أنظر إلى أين سيصل، يقول لي لكي أقف مثله عند بوابة المحل ونرى إلى أين يصل في مشيه. سيرجع، نقول حين نراه وقد وصل إلى آخر بيت من بيوتهم. وحين يذهب إلى أبعد من ذلك في مرات، نروح نقول إن الذين في المحلات سيقتلونه. ذاك لأنهم كثيرون ولأن شغلهم الذي يتعبهم يقسّيهم فلا يعودون يتحسّبون لشيء مما قد يفعلونه.

ثم أنهم باتوا متكتلين معاً من وقت ما حرق الساكنون في الهضبة محل واحد منهم وأكملوا ذلك باستفزازهم مزمّرين في السيارات التي جعلوا يسيرون بها في خط طويل. «الآن سيرجع»، أقول لأخي أو يقول هو لي حين نراه واصلاً إلى أوّل المحلات. هناك سيقتلونه، نقول فيما نحن نتخيّل كيف سيلتفّون عليه حتى يكبسوه، ويصير هو يصرخ في وسطهم، يصرخ ويزعق وهم يلكمونه بأيديهم ويلبجونه بجزماتهم الكوتشوك الطويلة حتى الركب. أو يرفعون عليه السكاكين المعقوفة، تلك التي يستعملونها لقطع الموز من أقراطه، أو السكاكين الأخرى التي يخبئونها في جواريرهم، هناك في آخر الجوارير لكي لا يراها الزبائن وهم يدفعون ثمن ما اشتروه.

«ها هو رجع»، يقول أخي فيما هو يستدير عن البوابة ليرجع إلى المحل، كأنه بذلك يعلن عن انتهاء جولة ميخا. «رجع لا رابحاً ولا مهزوماً»، يقول لي أخي الذي كانت ستضحكه عنتريات ميخا، كما كان يسميها، لو لم يكن فيها شيء لا نعرف ما هو. في أحيان كنا نقول إن سلاحاً كثيراً يأتيه من جهة البحر، وفي أحيان

أخرى نقول بل من الطريق هذه، وهو، إذ يكون يحرسها، يكون ينتظر السيارات التي تحمل السلاح وهو يقطع لها الطريق لكي تمرّ عليه وحدها.

❊ ❊ ❊

لا أعرف إن كان سيجري في الزهرانية ما جرى فيها لو لم تكن الحرب قد وصلت إلى ذلك القرب منها. لم أعد أذكر إن كان ما حصل بين أصحاب المحلات وأهل الهضبة قد سبق سماعنا أصوات المدافع. ولم يعد أخي يذكر أنه قال لي، بعد أن رجع من مشاهدة الحريق، إن أصحاب المحلات سيغلبهم أولئك الذين في الهضبة. «لأنهم في الأعلى»، قال، ثم أخذ يصف لي، باسطاً قفا يده، كيف أن الذين في الأعلى يحاصرون الذين تحتهم ويحبسونهم حيث هم. كان ذكياً، أذكى مني، أنا الذي كنت أظن أن ما جرى آنذاك كان سينتهي من فور وقوعه، هكذا مثل حادثة بين سيارتين. أو أنه كان يسمع عن الحرب الجارية بعيداً عن الزهرانية أكثر مما أسمع أنا، فيصير عقله يشتغل بما يسمعه.

أما أنا الذي لا أحادث أحداً فقد تركت عقلي يشتغل لوحده. كنت أفكّر في الشيء، لكن بعد حصوله. الحرب مثل الحريق، كنت أقول لمروان الذي جسمه مثل أجسام المصارعين، لكن بعد أن يكون صوت المدافع قد صار أقرب إلينا مما كان قبل يوم أو قبل يومين. لكنني، مع ذلك، لم أكن أكمل ما فكرت فيه لأقول مثلاً أنها ستصل إلى هنا ما دامت تصير أقرب كل مرة. ولكي يصحّ مَثَلُ الحريق الذي فكّرت لوحدي فيه، كان يجب أن يحصل شيء: أن يتغيّر ميخا مثلما تغيّر، وأن تصير السيارات التي تعبر

الطريق، في الرواح والرجوع، أقلّ، أو أن يبدأ الذين استأجروا بيوتاً في البنايات بإنزال أغراضهم لتحميلها بالسيارات.

الحرب مثل الحريق، لا تظل في مكانها حيث هي. وفيما هي تتقدم تكون حماوتها ووهجها يسبقانها. قال لي مروان، بعد أن قعد نصف ساعة ناظراً إلى البحر من باب محلنا المفتوح، إنه سيترك الزهرانية. لم يكن يعرف إلى أين يذهب لكنه، كما قال لي، سيذهب إلى حيث يذهبون، قاصداً أولئك الذين في البنايات مثله. ليس أنه سيكون معهم، في موكبهم، حين يغادرون لكنهم يقولون لمن لم يغادروا معهم إلى أين هم ذاهبون ليعرف هؤلاء إلى أين يتبعونهم.

وأنا كنت أنتظر منه ذلك. لا أن يغادر، أقصد، بل أن يلحق بهم ماشياً وراءهم، مثله مثل جميع أولئك الذين يملأون السيارات حتى سطوحها بأغراضهم. حين رأيته لأول مرة على الطريق أمام محلنا، لم أصدّق أن أحداً مثله يمكن أن يكون هنا في الزهرانية، كما لم أكن لأصدّق أنه سيبقى هنا، مقيماً في الزهرانية، مثله مثل الناس الذين يأتون إليها. «هو سيزورني»، رحت أقول لأخي بعد أن هزّ رأسه موافقاً على دعوتي له. كما أنني كنت أجعلهم ينتظرون مجيئه إلى عندي، هم الذين كانوا رفاق أخي. «هذا هو»، أقول لهم فيما أنا أنقّل عينيّ مرة إليهم، لأرى كيف يتطلّعون فيه، ومرة إليه، لأراه واحداً من أبطال الأفلام. كان يأتي إلى محلّنا ليقعد، في المكان ذاته، رافعاً جسمه ورأسه إلى الأعلى ومحدّقاً في البحر الذي أمامه. ودائماً أكون أنا من يتكلّم ليجيبني هو، إما بالتفاتة نحوي يزمّ شفتيه في أثنائها ويهزّ رأسه موافقاً

إياي، وإما بأن يقول كلمتين أو ثلاثاً أجد أنها لا تناسب كمال جسمه. لا أكثر من أن أدار رأسه إليها، هي زوجة أبو عاطف، حين قلت له «هذه هي». وأنا لم أكمل ما كنت قد تهيأت لأقوله عنها، وهو، على أي حال، لم يبدُ منتظراً إياي أن أكمل. «صار يجب أن أقوم»، يقول لي بعد أن يكون قد نظر إلى ساعته، ثم يقوم، مستعيداً بمشيته هيبة جسمه التي كان يضيّعها قعوده عندي وسكوته.

* * *

وقد تأخر مروان عن اللحاق بالذين سبقوه. كان قد أنزل أغراضه من البيت الذي هو فيه وكوّمها معاً لكي لا تختلط بأغراض الآخرين الذين سيغادر معهم. وكانت السيارات تتجمع أمامهم، بعضها لهم وبعضها الآخر استأجروه ليضمّوه مع سائقيه إلى موكبهم. كانوا منهمكين بوضع الأغراض في صناديق السيارات وعلى سطوحها حين أتى من قال لهم إن الطرقات أقفلت. عندنا، أمام محلنا، توقف مرور السيارات وخلت الطريق منها حتى صار أخي يمشي في وسطها طولاً وعرضاً وهو قال لي، من حيث يقف في وسطها، واضعاً يديه في جيبيْ بنطلونه، إننا نستطيع أن نضع فرشات هنا وننام. ذاك أن إقفال الطريق كان قد أسكت أصوات المدافع التي كانت تقترب، حتى أننا كنا نقول، فيما نحن نشاهد سيارة تسير مسرعة، في هذا الاتجاه أو في ذاك، إن قنبلة المدفع ستصيبها بمجرد أن تنعطف، هناك في آخر الطريق، ولا نعود نراها.

فقط حين أقفلت الطريق، وليس قبل ذلك، قلت لأخي:

ـ ونحن، ألا يجب أن نغادر؟

«كنا نستطيع أن نفعل ذلك البارحة»، قال فيما هو ينظر إلى الطريق كأنه يرى شيئاً لا يصدّقه. ثم قال لي بعد أن أزاح نظره عنها:

ـ لم تعد تجرّب السيارة.. لا نعرف إن كانت ما تزال تدور.

كنت أدير محركها مرة كل ثلاثة أيام أو أربعة، فقط لكي يظل موتورها وبطاريتها يشتغلان. كنت أقول لأخي، خذها، سقها أنت، وهو صار يستحي حتى من منظرها متوقّفة بجانب محلنا، هنا قرب مدخل الدرج المؤدي إلى بيتنا. «ملح البحر أكلها»، كان يقول لي داعياً إياي، من وراء زجاج محلّنا، إلى أن أرى حديدها المهترئ، المبقّع بلون الصدأ الأسود. وحين نقلناها من هناك إلى وراء بيتنا، حيث المساحة الضيقة التي تحت بلكوننا، كنا نقصد أن نزيحها من الطريق ونخبّئها من هواء البحر الذي سيظل يبشّعها إن بقيت متروكة في مكانها.

ـ أتركها الآن، نجرّبها حين تفتح الطريق، قال، ثم التفت إليّ وقد خطر شيء في رأسه:

ـ ما زلنا فاتحين المحل!

وكان يضحك من ذلك.

ـ هنا أحسن. ماذا نفعل في البيت؟ هنا نعرف على الأقل ماذا يحصل.

كان مثلي، يحبّ أن نظل هنا إذ كان منظر الطريق ما زال يعجبه. مرة بعد مرة كان ينزل إليها ليمشي في وسطها، وليقطعها

من جهة البحر إلى جهتنا من دون أن يلتفت ليتأكد من أن السيارات لن تدهسه:

ـ أنظر، هذا مروان، صديقك مروان.

مثل أخي، كان يسير في وسط الطريق. كان جسمه يبدو كبيراً، حتى من تلك المسافة، بل كأنه أكبر مما هو.

قال لنا إن الطريق أقفلت وأن الناس الذين كانوا سيغادرون أرجعوا أغراضهم إلى البيوت.

ـ أنت أيضاً أرجعت أغراضك؟ سأله أخي.

وقد أجاب بإيماءة خفيفة، ثم راح يدير رأسه في الاتجاهات.

ولم يكن يحتاج أن أسأله إن كان يحبّ أن يستريح في المحل. كان يكفي أن أمسكه من ذراعه لندخل إليه سوياً، أنا وهو، قاطعين الدرجات على مهلنا.

كان لا يتوقف عن التلفّت كأنه بذلك يهرّب نظراته الخائفة لكي لا نراها أنا وأخي.

ـ بعد ساعات تفتح الطريق.. لن تظل مقفلة هكذا، قلت له.

لكن ذلك لم يطمئنه ولم يجفّف ذلك اللمعان الرطب في عينيه. بدا لي كما لو أنه خائف من انفصاله عمن سبقوه، أولئك الذين غادروا الزهرانية وبقي هو فيها، مع أنه كان يقيم بينهم لوحده.

ـ كثيرون هم؟

رفع عينيه إليّ هذه المرة، ثمّ قال بصوت ضعيف مبحوح:

ـ مَنْ؟

ـ الذين أعادوا أغراضهم إلى البيوت.

ـ من بنايتنا ثلاث شقق.

لم أسأله إن كانت الشقق كلها مسكونة قبل رحيل أولئك الذين سبقوهم، فقد فكّرت أن ذلك سيزيد خوفه.

ـ لكن السيارات، قال، فيما عيناه تبدوان كأنهما التقطتا فكرة، السيارات التي استأجروها على الطريق لنذهب بها، ماذا ستفعل؟

كنت أحب أن أظلّ أُكلّمه كأنني أعرف ماذا سيجري، لكنه فاجأني بسؤاله عن السيارات.

ـ يمكن أنها علقت مثلنا، قال.

ـ إنها تنتظر، تنتظر أن تفتح الطريق.

* * *

لكنها لم تفتح. ظلّت مقفلة لأيام كثيرة لا أذكر عددها. «ولا سيارة واحدة»، كان يقول أخي في كل صباح وهو يعود من البلكون بثيابه الداخلية التي لم يزد عليها شيئاً لنومه. وفيما هو يسير في اتجاه المطبخ، يلتفت إليّ ليعيد السؤال ذاته، ذاك الذي ظلّ يقوله كل يوم: «هل نفتح المحل؟»، وأنا أبتسم لأقرّ له بأن سؤاله يدعو إلى الابتسام. لكنني، مع ذلك، كنت أنزل كل يوم لأفتحه. أتأخر في ذلك حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، لكنني أنزل. . أسلّي نفسي بنفض الغبار عن اللعب، تلك التي أبقيها في مكانها لا أحرّكها ما دام أن أحداً لن يأتي ليراها. كما أسلّي نفسي بالنظر إلى الطريق، الخالية التي لا يظهر عليها أحد.

ـ المحلات هناك، ما زالت تفتح؟

أسأل أخي حين ينزل من بعدي، واضعاً ثيابه على جسمه بلا ترتيب.

ـ سأذهب لأرى، يقول، ويبدأ المشي إليها من فوره.

ـ نقصت محلين، يقول لي حين يعود، أو نقصت ثلاثة محلات.

كانوا يقفلونها حين يجدون أن الوقت الذي يقضونه فيها منتظرين الزبائن، لا يربحهم شيئاً. منذ انقطاع الطريق صاروا هم زبائن محلاتهم يشترون من بعضهم البعض. ولا يطول بهم الوقت قاعدين في محلاتهم فهم يعرفون أن ما سيجري بينهم في النهار قد جرى وها هم يعودون من بعده إلى بيوتهم. بعضهم يبقي باب محلّه مفتوحاً، لكن فقط من أجل أن تتسع المساحة التي تمتد من بيته، وراء المحلّ، إلى حافة الطريق.

ـ كان أحسن لنا لو غادرنا مع من غادروا، قال لي أخي.

ـ ونأخذ كل هذه الألعاب معنا؟ أجبته مع أنني أعرف أن ما أبقانا هنا، وما سيبقينا بعد ذلك، ليس الألعاب، بل لأننا لا نعرف إلى أين نذهب. كان يخطر لي أحياناً أننا بقينا هنا، حيث نحن، لأننا لا نستطيع لوحدنا أن نقرِّر الانتقال. كأننا كنا ننتظر أحداً يأتي ويقول لنا، من فور وصوله: هيا، ضبّوا الأغراض، هيا أسرعوا.

ـ هذه الألعاب لن يشتريها أحد، قديمة، وهي عتقت من طول ما عرضناها على الرفوف.

وأنا أعرف أننا بقينا كما نحن بسببي، بسبب ثقلي وقبولي

بالمكان الذي وُضعت فيه. كان على أخي أن يقوم بذلك، أن يقول هو: هيا، هيا، فلنضبّ الأغراض، وأن يكون يصفق بيده في أثناء ذلك مستعجلاً إياي. كان عليه أن يقوم بذلك قبل أن تنقطع الطريق، وقبل أن بدأت أصوات المدافع تطلع مقتربة، يوماً بعد يوم، منا. «هيا. . هيا»، كان عليه أن يقولها فيما هو يشمّر عن يديه، وذلك من وقت ما صرنا نكتفي من شغل اللعب بنفض غبارها.

لم يفعل ذلك. كان متسلياً بالوقوف معهم تحت عمود الكهرباء وذهابه مع البنات اللواتي يرافقهن إلى المسبح. ترك لي أن أدير المحل، هو الذي يعرف كيف يبيع ويشتري أكثر مني.

ـ هذا مروان صاحبك، يقول لي حين يراه آتياً، ماشياً في وسط الطريق. وهو يقولها بصوت خفيف كأنه يكلّم نفسه، أو كأنه يقول لنفسه أن لم يعد أحد هنا في الزهرانية سوى هو، «صاحبي».

برناديت التي أَحَبَّها كانت هناك، في بيتها، في داخل بيتها، تتنقّل، أو تتحرّك، بين غرفه. وأنا كنت أتخيّلها هناك تنحني لتلتقط شيئاً فيهتزّ شعرها المالس الثقيل، أو تلتفت فيضيء وجهها نور البيت الخفيف المتسرّب من شقوق النوافذ أو من باب الجنينة الذي أبقوه وحده مفتوحاً. كأن شيئاً من شعوره نحوها انتقل إليّ، أقصد أنني كنت أعرف كيف تظهر له في خياله وكيف يحسّ بها. شيء من ذلك انتقل إليّ حيث، إذ أجيء لأفكِّر بها وهي هناك، في بيتها، أصير أراها كما يراها هو.

لم يكن يكلّمني عنها، أنا الذي عرفت وحدي أن شيئاً يحدث بينهما، وذلك من تأخّره عنهم، هم الماشون معه، ومن عودته،

إلى الأمام حيث هم، ثم من تباطئه لتصير قريبة إليه. لم يكلّمني عنها. في أحيان كنت أقول له: إن كنت تحتاج السيارة لتتنزه مع أحد، خذها. فيجيبني بأن السيارة لا تتسع لهم جميعاً، قاصداً أنهم لا يخرجون إلاّ معاً. أو يبتسم تلك الابتسامة التي تعني أن السيارة لم تعد تعجبه، وأنا أعرف ذلك من وجهه الذي لمّعته كثرة الغسل ومن شعره الذي قوّت سواده الزيوت التي كان يدلكه بها.

ـ هذا صاحبك جاء، يقول فيخطر لي، فيما أنا أتقدم إلى الطريق لأراه آتياً، كيف أننا لم نعد نرى أحداً سواه، «هو صاحبي». ليس في بيت برناديت وحده، بل في بيوتهم كلها، تلك المصطفة تحت الطريق، أقفلت الأبواب التي كانوا يخرجون ويدخلون منها وانقلبوا إلى الأبواب الأخرى التي إلى جهة البحر. هناك يستطيعون أن يزوروا بعضهم بعضاً، عابرين طرق الحدائق الضيقة، الموصولة واحدتها بالأخرى، من دون أن يراهم أحد.

حتى أنني لا أعرف ماذا جرى بينه وبينهم. لم يتراجع عن المشي معهم خطوة بعد خطوة أو يوماً بعد يوم، بل أنه انقطع عن الخروج معهم هكذا فجأة. كأن شيئاً حدث في سهرتهم الأخيرة، تلك التي رجع فيها مبكراً إلى البيت وتأخر في صباح اليوم التالي عن الخروج من غرفته. حصل ذلك حتى من قبل أن يتغيّروا. قبل أن يبدأ ميخا تفتيشه في كل ما تقع عليه عيناه وقبل أن يصير يلبس جاكيت العسكرية ويمشي بها، ذاهباً عائداً، على طول الطريق بين أول بيت من بيوتهم وآخر بيت منها.

* * *

حين سقطت تلك القذيفة، محدثة دوياً مثل رعدة انفجرت

في سماء هابطة فوقنا ثم أعقبتها أصوات تشبه سقوط كرات زجاج على شاشة من حديد، حين سقطت تلك القذيفة عرفنا، من دون أن يقول لنا أحد، أن المدافع قرّبت فوهاتها إلينا. هذه قذيفة الافتتاح، قال أخي فيما هو يعود راكضاً عن الطريق ويقول لي: إسرع.. إسرع، لكن لنختبئ في الغرفتين الخاليتين وراءنا. لم تكن إلا قذيفة واحدة. ونحن مختبئان قرب الحائط الذي من خارجه يرتفع جلّ التراب العالي، قال أخي، لأنه استحى من بقائنا ساكتين، أن صاحبي مروان علق حقيقة، ثم سألني بعد دقيقتين ماذا أظنه يفعل الآن. وأنا لم أجبه أو أسأله أين يظنها قد سقطت، جاعلاً إياه يفكِّر بالبيوت التي تحت الطريق. قذيفة واحدة فقط، لكننا، حين خرجنا من الغرفتين، لم نبتعد عن بابهما خوف أن تأتي قذيفة أخرى من بعدها. ولمّا خرجنا بعد ذلك لنطلّ على الطريق، أعاد أخي ما كان قاله، وهو يركض، من أنهم افتتحوا بها ضرب الزهرانية. كانت في وسط الطريق، في وسطها تماماً، كأن من أسقطها أفلتها من يده، هكذا، بعدما عيّن نقطة الوسط وهو يحوّم ممسكاً إياها وناظراً إلى الطريق من الأعلى. قال لي أخي إنه ذاهب ليراها، وأنا قلت له أن ينتظر، على الأقل حتى تحطّ كتلة الغبار التي كانت لا تزال مرتفعة فوقها. قلت له سآتي معك. لكنه سبقني. فقد عرف أنني سأقفل المحل على الرغم من أن لا أحد هنا ليأتي ويسرقه، بحسب ما كان يمكن أن يقول. وأنا، بعد أن تقدم ولم يعد ينظر إليّ وراءه، بقيت في مكاني، للحظة، فكّرت أنه لن يفيد في شيء أن أرى أين سقطت القذيفة. ومن حيث ما زلت أقف رأيت رجلين يتقدمان من المحلات أو من البيوت التي

وراءها، ثم رأيت رجالاً آخرين يتبعونهما. وفجأة، من جانب الطريق، من البيوت التي تحتها، رأيت أحداً يرفع جسمه كأنما ليتبيّن، من هناك، مكان سقوط القذيفة. وإذ رأى أن هناك رجالاً سبقوه، ارتفع جسمه ليبلغ الطريق، ثم مشى تلك الخطوات القليلة التي ستوصله إلى حيث وصلوا من قبله. كان جوزف، لوحده هذه المرة، وقد رأيت ذلك غريباً فقد خطر لي أنني لم أره مرة هكذا لوحده. وهو، حين وصل إلى حلقة المتجمّعين حول الحفرة، آثر أن يبقى خلفهم. لم يكلّم أخي، ولما بدأ عودته إلى تحت الطريق، فعل ذلك بخطوات متراجعة كأنه يحاذر من أن يباغته، إن استدار، أحد الواقفين هناك.

حين عاد أخي كان حاملاً شقفة الحديد المسنّنة بيد وباليد الأخرى قطعاً أخرى صغيرة ومسنّنة أيضاً. قال لي، مصوراً ماذا يمكن أن تفعل الشقفة الكبيرة بمن قد تصيبه، إنها تقصّ الرجل قصّاً، حازّاً جانبها المسنّن هكذا بقرب فخذه.

ـ الرجال الذين رأيتهم هناك، ماذا قالوا.

ـ مثلما قلت أنا: الحرب وصلت إلى الزهرانية.

لم تكن قذيفة أطلقت بالخطأ. لو كانت قد سقطت هنا من دون قصدهم لما كانت أصابت وسط الطريق هكذا. كانت ربما ستقع في الأرض الخالية الواسعة، أو وراء أحد البيوت، أو ربما تحت الطريق على إحدى الصخور الموصلة إلى البحر.

ـ رأيت جوزف؟

ـ رأيته.

ـ ولم تكلمه؟

لم يجبني، فقط تلك الاهتزازة الخفيفة من رأسه التي لا تعني شيئاً.

ـ الآن يكونون يرتعبون في بيوتهم، قلت.

لم يجبني أيضاً. بقي ساكتاً لدقيقتين أو ثلاث قبل أن يسألني عنا نحن، أنا وهو، ماذا سنفعل.

ـ تحبّ أن نقفل المحل ونصعد إلى البيت؟

لا يعرف. كان ضجراً أكثر مما كان خائفاً. مثلي، بل ربما أكثر مني، كان يحتاج إلى أحد يكلّمه، وأنا الذي عرفت ما به قلت له من دون أن أعرف إن كنت أواسيه بذلك أو أزيد ضجره:

ـ حتى قبل القذيفة كانوا يخافون أن يخرجوا من بيوتهم.

ـ هذا مروان أتى، قال فيما هو يقف وقفة المنتظر المتهيّء للاستقبال.

لم يطق مروان أن يبقى لوحده. لا أعرف إن كان يدرك أن في خروجه خطراً، وأنّه يجازف بمشيه في وسط الطريق، لكنه، وقد صار هنا، أراد أن يفهم ماذا يعني أن تسقط القذيفة قريبة هكذا. قال لنا مشيراً بيده إلى الوراء، إنها هناك، على الطريق وإنه رآها حافرة الزفت حفراً. وحين مدّ ذراعه نحوها داعياً إيانا إلى أن نذهب لنراها، قال له أخي أنه منذ دقائق كان هناك.

على الدرجات الأربع، فيما هو يصعد أمامي، ظلّ جسمه مستقيماً مثلما يكون في مشيه على الطريق. القذيفة التي رأى حفرتها هناك أخافته وزادت قلقه، لا بدَّ، لكن ذلك لا يظهر على

جسمه الذي يتحكّم عضله به وليس رأسه. لأوّل مرة منذ أن عرفته وجدت نفسي قابلاً لأن أتمسخر عليه. ربما كان ذلك بسبب القذيفة وحفرتها، وقطعها التي كانت لا تزال في يديّ أخي. للحظة خطرلي أن أشبّه ذلك الجسم الذي أمامي بمصارعي الكوتشوك الذين وضعناهم على رف واحد، منتفخين بعضلهم ومتهيّئين ليستعملوه في شيء.

قال لنا، حتى قبل أن يجلس على الكرسي التي أزحتها له لتكون مطلة على البحر، إنه سيغادر، ماشياً على قدميه، ولن ينتظر أن تفتح الطريق.

ـ تعرف إلى أين؟ سأله أخي.

ـ أولاً أغادر وبعد ذلك أعرف إلى أين.

ولكي يربكه أخي ويزيد حيرته.

ـ من أي جهة ستغادر، من هنا أو من هنا؟، قال له فيما هو يشير بذراعه إلى جهتي الطريق.

فاجأه أخي. لم يكن قد فكّر إلا في جهة واحدة، ليست هي التي جاء منها إلى الزهرانية.

وإذ أمال وجهه إلى الجهة التي كان قد قرّرها، زاد أخي، مرة أخرى، من إرباكه وحيرته.

ـ ربما الحرب هدأت هناك، من حيث جئت، وبدأت هنا.

لم يحتمل الرأس الصغير تلك الملاحقة فأخذ يضطرب في قعوده، وأنا، لكي أهدّئه، قلت له أن من الأفضل أن ينتظر حتى نعرف ماذا سيحصل.

ـ كم سأنتظر؟ سأل من أجل أن يتلقى.جواباً، لكن أيضاً ليعلن عن تبرّمه من أن أحداً لا يعرف إلى متى سيطول الانتظار.

حين راح بعد ذلك يقول «أنا علقت. . أنا علقت» بدا على حافة أن يفقد أعصابه إذ لم يسعفه رأسه الصغير في أن يفكِّر أنه لم يعلق لوحده، بل أننا نحن أيضاً، أنا وأخي، كنا عالقين مثله.

بل أنه بدا كما لو أنه غفل عنا حين أحاط جبينه بيده واستغرق في نسيانه لنا. ولأنني كنت منتظراً أن يدفعه خوفه إلى أن يفقد أعصابه أكثر مما يحصل له، أن يبكي مثلاً، رحت أفكِّر بماذا عليّ أن أفعل لكي أجعله يقوم.

# بالحجر قتلته.. بالحجر

بالحجر قتلته، كأن أحداً حطّ الحجر بقربي وقال لي: هيا أقتله، بهذا الحجر اقتله. كان ثقيلاً، وهو أفلت من يدي مرة ثم مرة وأنا لا أقدر أن أمدّ له يدي الثانية لأنني كنت أشدّ بها على خناق من سأقتله. كان الحجر ثقيلاً ومكوّزاً من أعلاه مثل كرة وأنا لا أقدر أن أبرمه ليتدحرج إليّ لأن من سأقتله كان ينتفض تحتي. يداه تنتفضان وهو كان ينفض رجليه وبطنه أيضاً لكي يوقعني عنه ويقلبني. وكان يصرخ بي، في وجهي وهو يحاول أن يرفع رأسه، وأنا أشدّ على خناقه لأرجع رأسه إلى الأرض. أنت ستموت، يقول صارخاً بي. «تيسير.. تيسير.. أنت ستموت»، ثم يخفض رأسه معيداً إياه إلى الأرض ليريحه. لكنه يعود يرفعه بعد ذلك لكي يصرخ من جديد لكن ليس عليّ: «تعالوا اقتلوه»، ثم يقول لي بعد ذلك إنهم سيقتلونني، سيأتون ويقتلونني.

بالحجر قتلته، بالحجر الثقيل الذي هويت به على رأسه. ومع أنه سكت من الضربة الأولى، إلا أن ذلك الصوت الذي يطلع عاد من عقلي ليقول لي: اضربه، دقّه، وأنا ما كنت لأعيد عليه الضربات لولا خوفي من أنه سيقوم، مدمّى لكن سيقوم ويقتلني.

وقد بقيت خائفاً مع ذلك. خائفاً منه لا من أي أحد قد يأتي ويراني. وحين هربت كنت هارباً منه، هو الميّت المقتول، فرحت أركض مبقياً الحجر الثقيل معي، حاملاً إياه بيديّ الاثنتين.

قتلته. عرفت أني قتلته من شخرة الموت التي أطلقها قوية من أنفه وفمه معاً، لكن مع ذلك التفتّ إليه مرّتين وأنا أركض هارباً منه حاملاً الحجر الكبير بيديّ. ثم فكّرت أن أحداً يجب أن يأتي ويراه ميتاً. ليس الآن وأنا هنا لا أعرف إلى أين أذهب. لكن يجب أن يراه أحد، لكي يأخذوه ولا يظلّ ميتاً هنا حيث قتلته. وقد خطر لي أن أذهب إلى بيتنا. لا لأبقى فيه. لكن لأقول لأبي إني قتلت ميخا، قتلته بهذا الحجر الذي معي. ثم أركض بعد ذلك، تاركاً أبي وأخوتي وراء الباب الذي لا أعرف إن كانوا سيغلقونه من لحظة ما أدير ظهري وأخرج. شخر شخرة الموت وكانت عيناه مفتوحتين على وسعهما، كأنه ما يزال ينظر إليّ وأنا أحمل الحجر لأدقّ به رأسه.

قتلته لأنه صار يقول لي تعال إلى هنا فيما يشير إليّ بالقضيب الذي في يده ثم يحرّك القضيب ليدلّني به إلى حيث يجب أن أقف. أمامه، هنا أمامه، يشير بالقضيب، هكذا كأنه يحكي مع كلب. «أنت تعال إلى هنا»، قلت له وأنا باق واقفاً في مكاني. واقف في مكاني ووسخ وثيابي وسخة لأني لم أغسلها منذ أن هربت من بيتنا .وهو كان يعرف ذلك لأنه قال لي «إلى هنا. . إلى هنا يا وسخ». «أنت وسخ. . وسخ وكلب»، قلت أنا قبل أن يرفع القضيب الذي في يده عليّ وعلى وجهي. لكنني سبقته. هجمت عليه ونطحته بكل قوتي وأوقعته على الأرض. أنت ستموت، قال

لي وهو ممدد على ظهره. وحين بدأ يرفع نفسه ليقف ويهجم هو عليّ نطّيت عليه أنا وأعدته ممدّداً وثبّته بأن قعدت عليه وهو ينظر إليّ بعينيه اللتين دمعتا من قهره ويقول لي «تيسير.. تيسير. أنت ستموت.. أنت ميّت يا تيسير».

كنت أقدر أن أتركه حيث هو وأظل هارباً لا أحد يعلم بي. لكنني عدت بعد أن كنت قد وصلت، حاملاً الحجر، إلى أول المسبح. ليس إلى بيتنا، لكن إلى بيت وليد وأخيه الثخين. لأنهما يكرهان ميخا، ولأني يجب أن أقول لأحد إني قتلته. فتح الثخين لي الباب وكان سيبتسم لي، إلا أنني عجّلت وقلت له إني قتلت ميخا ورفعت يديّ الاثنتين لأريه الدم الذي انطبع عليهما. وقد صدّقني، من الدم الذي رآه على يديّ وعلى الأوفرأول، ومن صوتي أيضاً الذي لم أكن أعرف كيف يطلع مني. قتلته بالحجر، قلت له، خمس مرات ضربته على رأسه وكسّرته. لم يعرف الثخين ماذا يفعل وماذا يقول لي. لم يسألني عن شيء. لا عن ميخا أين هو ولا عن الحجر الذي رميته هناك قرب المسبح. وحين ظهر أخوه وليد من ورائه قلت له إني قتلت ميخا ورفعت يديّ له أيضاً لكي يرى الدم. وهو راح ينظر إليّ كأنه لم يفهم، بل أنه أدار وجهه عني إلى أخيه الثخين ليفهم منه هو ماذا أقول.

ـ أنا ذاهب، قلت لهما وهما يقفان أمامي. وفيما أنا أضع يدي على حافة الدرج فكّرت أن أقول لهما إنه مات الآن ولن يعود يخوّف أحداً، هكذا لأفهمهما أنني قتلته لأخلّص الزهرانية منه.

# غرفة فارغة على البحر

بعد أن خرج تيسير راكضاً على الدرج قال لي أخي إنه قتل ميخا حقيقة وإنه بلا عقل لا يعرف ماذا فعل. ثم سألني فيما هو يقفل الباب أين أظنّه قتله. لكنني أجبته بأننا يجب أن نبقى هنا في البيت، ذاك لأني عرفت أنه ربما يفكّر بالنزول إلى الطريق ليرى بعينيه أن ميخا قد مات. «تنزل بعد أن ينزل الناس»، قلت له، فَقَبِلَ. ثم رددته أيضاً حين مشى نحو شرفة البيت لينظر من زاويتها علّه يتبيّن شيئاً. كان أحد سيراه بجسمه السمين واقفاً هناك.

ـ لكن كيف سنعرف ونحن في البيت مقفلين على أنفسنا؟

كان أخوف مني في العادة، وأعقل مني، لكنه بدا هذه المرة أهوج مثل ولد يُمنع عن شيء يريده ويرغب فيه.

وقد حصل ما توقّعته. لكن بدلاً من أن يأتينا بالصياح أتانا قرعاً على الباب، عنيفاً متسارعاً من أوله.

وكان أخي، على رغم سمنته وثقله، أسرع مني في الوصول إليه وفتحه. كانت هي، زوجة أبو عاطف، مبتسمة لكن مخطوفة اللون. قالت إن ميخا مات، وإنه مرميّ هناك، حيث أدارت وجهها نحو ما قدّرتُ أنه وسط المسافة بيننا وبين مدخل المسبح.

قال لها أخي، فيما هو يشير إليّ ليعني أنني موجود هنا أيضاً، أن تدخل لترتاح. كان وقوفها على الباب وتكلمها أمام أخي سيخفض للحظات اهتمام أخي بموت ميخا.

ـ أنا خائفة، قالت.

وهي استجابت لدعوة أخي بالدخول، لكنها أوسعت فتحة الباب لتظل هكذا متّصلة ببيتها.

ـ رأيتِهِ؟ سألتها أنا فيما كان أخي يحضر لها ماء من المطبخ.

ـ ميخا؟

ـ ميخا.

ـ رأيته، لكن ليس كله. ضوء البطارية كان ضعيفاً، ولم أكن لأعرف أنه هو لولا أن سمعت جوزف، جوزف بالأكثر، يقول وهو يركض إنه ميخا، قتلوا ميخا.

حين عاد أخي بالماء لم تتمهّل في شربه. لم تضع الكوب على الطاولة أمامها أولاً، وذلك لظنها أن عليها أن تعيده فارغاً لأخي الذي ظل واقفاً بقربها كأنه ينتظر. «بارد»، قالت مستحسنة، لكن ما كادت ترفع الكوب إلى فمها لتكمل شرب ما بقي فيه حتى ارتفع صوت آتياً من باب الشرفة الذي تركناه مفتوحاً.

ـ هذه أمّه، أم ميخا، قالت وهي تقوم مستعجلة متلفّتة حولها كأنها ضيّعت الاتجاه الذي ستخطو فيه خطوتها الأولى.

وقد أسرعت إلى بيتها كأنها هاربة، تاركة بابنا مفتوحاً على وسعه.

ـ الآن، هل ننزل الآن؟ سألني أخي.

ومثلما أفعل عادة، إذ أنه هو الكبير وهو الذي ينبغي أن يجيب وليس أنا، قلت:

ـ ما رأيك لو تأخرنا قليلاً. . من الممكن أننا، لو فكرنا، لرأينا أن من الأفضل أن نبقى هنا.

لا نحن ولا أحد غيرنا يجب أن ينضم إليهم ليقف بينهم. هم فقط، لوحدهم. حتى أنهم يجب ألا ينتبهوا لزوجة أبو عاطف إن كانت تنظر مواربة من شرفتها أو شباكها. هم أيضاً عرفوا كيف ينبغي عليهم أن يتصرّفوا. ليس إلا ذلك الصوت الواحد أطلعته أم ميخا قوياً. من بعده أسكتوها. ربما بتقريب أيديهم من فمها ليقفلوه، وربما بإرجاعها إلى بيتها ليظلّ بكاؤها وصراخها محجوزين وراء الشبابيك والأبواب المقفلة.

كما أنهم لم يصعدوا من بيوتهم إلى الطريق ليتحلّقوا حول ميخا ويشاهدوه حيث قُتل. لا أكثر من ثلاثة رجال أو أربعة ظلوا هناك ولم يرتفع من أصواتهم إلا كلمات كان غضبهم يعليها عن حكيهم الهامس. ثم سمعنا جلبة حملهم لميخا وهم يشيرون لبعضهم البعض كيف يحملونه. وإذ مشوا به، مرتبكين متعثّرين، عرفوا أن عليهم ألا يظلوا ماشين الطريق كلها إلى بيته، فنزلوا به إلى أول بيوتهم حيث، من الدرب الصغيرة المفتوحة بينهم، تلك التي لا نراها، أكملوا مشيهم إلى بيت ميخا. وحين علت أصواتهم معاً، كأنها لقوتها دفعت درف الشبابيك وفتحتها، عرفنا أنهم وصلوا به إلى بيته. لكن هناك أيضاً كان أحد يهدّئهم، لا بدَّ، فلم تمضِ دقائق حتى خفتت أصواتهم، وباتوا كأنهم يحاكون بعضهم بعضاً بالكلام العادي.

ـ هل يعرفون من قتله؟ سألني أخي.

وكان يعرف أن سؤاله سيفاجئني، بل أنه جعل ينظر إليّ كأنما ليراني ألتفت إليه وأقول له كلمة تطلع من سهوي وصفنتي: من؟ أهله!

ـ إن لم يعرفوا أنه تيسير سيبدأون الظن بالجميع هنا.

وقد فاجأني مرة أخرى. في الأسفل، هناك حيث هم مزدحمون في بيت واحد، لا بدّ أنهم يتداولون أسماء بينها لأناس يعرفونهم، أو ربما يشيرون إلى جهات بأيديهم ينقّلونها من أول الزهرانية حتى أعلى الهضبة.

ولن يصدّقوا أنه تيسير، أو أنهم لن يقبلوا بأن يكون تيسير. سيرون أن مقتل ميخا الذي يبكونه الآن هو أقرب ما يكون إلى غلطة، أو لعبة لم يعرف ميخا أن يوقفها عند حدها.

ـ لن يصدقوا، قال أخي.

بل أنهم كلهم، إن عرفوا أن تيسير قتله، سيحتارون في حزنهم على ميخا إذ سيظلّ مخلوطاً بشعورهم أن هناك ضحكة تحته، موجودة وإن كانوا يستحون أن يظهروها على وجوههم.

* * *

لأن تيسير لم يعد أبداً إلى الزهرانية ظل قتلُهُ لميخا سراً لنا أنا وأخي لم نُعلم به أحداً. إن بدأوا يفعلون شيئاً انتقاماً لمقتله نخبرهم، كان يردّد أخي. وقد انتظرنا أن يفعلوا شيئاً. أن يأتي مثلاً رجال من أولئك الذين كان يعرفهم ميخا ويصيروا يقطعون الطريق لكن بالسلاح الذي يحملونه وليس فقط بالجاكيت العسكرية

التي كان يلبسها. «إنهم يهيئون شيئاً»، كان يقول أخي إذ يرى إن بقاءهم في بيوتهم مريب. حتى أننا صرفنا النظر عن الذهاب إليهم لتعزيتهم. كان يقول لي أخي إنني يجب أن أعزّيهم، أنا على الأقل، لأنني أعرفهم. وكانت زوجة أبو عاطف محتارة في ذلك فتدقّ بابنا لتسألنا ماذا سنفعل، قاصدة ماذا سنفعل نحن وماذا ستفعل هي. «ادخلي.. تفضلي ادخلي»، كان يقول لها أخي في المرتين أو الثلاث الأولى، لكنها تظل واقفة هناك، حيث قرعت بدها على الباب. ذاك الذي ظلّ أخي ينتظره شهوراً وسنوات أماته ظهورها المتكرر. لم يعد يحيد عن الباب متلهّفاً لها كأنما لترى كيف أن دخولها سهلٌ وكم أنه يريده. «أهلاً.. أهلاً»، يقول ثم ينتظر أن تعيد سؤالها الذي يعرفه. «لا نعرف بعد»، يجيبها مبقياً جسمه السمين حيث هو. ولمّا تستدير هي قائلة إنها لا تعرف ماذا عليها أن تفعل، يظل هو واقفاً في مطرحه ناظراً إلى أسفل ساقيها المنتفختين المشدودتي الجلد وإلى مشيتها التي تجرّ لها رجليها جراً على الأرض، ثم يلتفت إليّ بعد أن يقفل الباب ليقول لي إنها أتت لتسأل، هكذا من دون حاجة إلى أن يضيف إلى ذلك شيئاً.

لم يكن ظهورها مرة بعد مرة على الباب هو الذي أمات رغبته، بل تعبه من رغبته تلك ومن فشله بأن يخطو لها خطوة إلى الأمام. ربما عاد فأنهضها لحظة رآها واقفة على الباب، بمفردها، ودخولها إلى بيتنا في تلك المرة، لكن ذلك أحبطه ظهورها في المرات التي تلت

* * *

أهل ميخا وأقرباؤه لم يفعلوا شيئاً. لم يأتِ أحد من خارج

الزهرانية ليثأر لهم ويقوّيهم. ما جرى فهموه كإنذار لهم، وهم تصرّفوا بمقتضى خوفهم فلم تصدر عنهم إشارة واحدة تدلّ على غضب أو احتجاج. الشباب الذين كنت أعرفهم لم يعودوا إلى الوقوف حيث اعتادوا، هنا تحت عمود الكهرباء. لقد اختفوا، هم والبنات اللواتي، بعد أن ابتعدت أنا عن رفقتهم، أو أُبعدتُ، رحت أفكِّر أن ما يجري بينهم هو اقترابهم بعضهم من بعض وتغيّر البنات معهم ليصرن قابلات بهم بل ومعجبات أيضاً مثلما لو كانوا غرباء عنهن. هناك، في الحياة التي أداروها في قفا بيوتهم، موصلين مداخل البيوت بعضها ببعض، سيكون واحد منهم، جوزف ربما، أو ربما ميلاد، أو حتى طوني الصغير، هو الذي يرسل نظراته، العاشقة لكن غير الخائفة، إلى برناديت، أو ربما كان ميخا نفسه قبل أن يقتله تيسير.

وقد زاد قطع الطريق انحباسهم في بيوتهم. صار أخي يقول إنهم يتنفّسون من جهة البحر، هكذا، حتى من قبل أن يعلم بأنهم استعاضوا عن الطريق بالبحر في خروجهم من الزهرانية. كانت المراكب تأتي لتأخذهم في الليل، قال أبو تيسير لأخي بعد أن كانوا قد رحلوا جميعهم ولم يبق منهم أحد. من حيث هو هناك في بيته كان يرى الأضواء تتحرّك نحوهم، محدثة انعكاساً خفيفاً في الماء. من كانوا ينتظرونهم ليثأروا لهم، آثروا أن يخرجوهم. ذاك أن المدافع، التي كانت تقترب من الزهرانية كانت تسرع لإيصال مقاتليها إليهم.

ولم يكن أحد منهم في الزهرانية حين نزل المسلحون من الأعلى، ليفتحوا الطريق المقفلة، لكن أيضاً ليقتحموا بيوتهم في

أثناء ذلك. الراحلون لم يأخذوا أشياء كثيرة معهم. مثلهم مثل سواهم ممن كانوا يظنون بأنهم سيعودون في أيام، قال أبو تيسير لأخي. في أقل من يومين كانت بيوتهم قد صارت فارغة مما كان فيها. حتى الباذنجانات التي كانت نمت في غيابهم، هناك في الجلول الصغيرة وراء البيوت، قطفها المسلحون وأتلفوا جبوبها بعد ذلك. كان البيت الصغير الذي أخذته أنا، لأرتاح فيه، كما قلت لأخي، فارغاً كأن لم يسكنه أحد من قبل. ليست إلا ساعات قليلة على أي حال كنت أجلس فيها على الكرسي قبالة البحر، أو أستلقي على الفرشة، ناظراً منها إلى البحر الممتد وراء الباب الذي أتركه مفتوحاً.

ليست إلا ساعات قليلة سبق ضجري قول المسلحين في آخرها أن عليّ أن أخليها. كنت قد تركت الفرشة هناك، أما الطاولة والكرسيان فقد أخذهما المسلحون الذين أغاروا مرّة ثانية على البيت، ليزيلوا عنه أبوابه وشبابيكه هذه المرّة.

وقد فتحت الطريق بعد مجيئهم وإن لسيارات قليلة كان يوقفها المسلحون ليحدّقوا في أوجه راكبيها. لكن، مع ذلك، صرنا نرى أناساً جدداً في كل يوم. بعض منهم نزلوا إلى البيوت التي وجدوها خالية تحت الطريق فردّهم المسلحون عنها قبل أن ينقلوا أغراضهم إليها. لكنهم وجدوا أمكنة أخرى لهم، هناك في الجهة المقابلة لأصحاب الدكاكين، مبتعدين مسافة قليلة عن آخر بيت من البيوت التي مُنعوا من الإقامة فيها. هم أيضاً خلطوا السكن بالعمل ففتحوا محلاّت لم تحتو في داخلها إلا على ما يشتريه أولئك الذين جاؤوا مثلهم، بعد فتح الطريق.

حين قال مروان لأخي إنه سيبقى هنا، خطر لي أنه سيضيع بينهم ويصير كأنه واحد منهم، كما أنه سيضيّع جسمه الذي أنفق سنوات كثيرة من عمره على تمرينه. هنا، في الزهرانية، لن يستطيع أن يعرضه، مثلما يفعل من هم مثله، إلاّ حين يسير به ماشياً على الطريق. حتى أخي الذي لا يُزار من أحد سواه، نصحه بألاّ يبقى. «ماذا سنفعل هنا»، قال له أخي واضعاً نفسه معه، وواضعاً إيايّ أيضاً، في الحال ذاتها.

ـ لكن إلى أين نذهب؟ قال مروان وهو يمدّ ذراعه نحو جهة من الطريق، ثم نحو الجهة الأخرى، ليفهمنا أن الخروج إلى أي من الاتجاهين خطر. الآخرون أيضاً، الذين كانوا تأخروا عن الخروج يوم أن أقفلت الطريق، قرروا أن يبقوا، مثله، حيث هم.

لكن جولة الحرب الثانية خذلتهم. كانت قد اقتصرت على المدافع التي راحت تقصف الزهرانية مهيئة لنزول المسلحين من الهضبات العالية وراءنا. مرة أخرى قال مروان إنه سيغادر، لكنه عاد فبقي حين ردّ المسلحون هجمات المسلحين الآخرين وأسكتوهم.

# خذ هذا الماء.. إشربه

منذ أن شقّوا الطريق الجديدة في الأعلى بدأت أفكِّر أن كل ما جرى هنا سيُنسى سريعاً ويصير كأنه لم يكن. كانت عريضةً تتسع لمرور ثلاث سيارات أو أربع في كل من الاتجاهين. بعد أن انتهوا من شقها وتغطيتها بالتراب والحجارة التي طحنتها الجرافات، كنت أصعد إليها لأتفرج، بل ولأمشي وحدي في المساء حين يكون العمال قد ذهبوا وتركوا الجرافات مطفأة ومركونة في مطارحها. لم يتركوا على جانبيها مساحات من الأرض خالية لتقام عليها البيوت والدكاكين. فمن الأعلى كان حدّ الهضبة، الذي كأنهم قطعوه بسكين، عالياً يحجز الطريق عن الأرض التي فوقها، ومن الأسفل، من جهتنا، وضعوا حاجزاً من معدن لكي لا يعرقل شيء مسير السيارات.

وقد ازداد عدد السيارات العابرة كثيراً عمّا كان عليه عندما كانت الطريق هنا، أمام باب محلنا. كما أنها صارت تسير مسرعة، هناك في الأعلى، إذ لن ينشغل السائقون بالنظر إلى ما حولهم. بل أنني أفكر أنهم، وهم مسرعون في سيارات، لا يشاهدون إلا تلك اللوحات التي تتفرع من بعدها طرقات صغيرة توصل إلى بلدات

وقرى. الزهرانية وُضعت لها لوحة زرقاء صغيرة مصوّبة مثل سهم، ليعرف السائقون أنها في الأسفل. ولم نعلم أنا وأخي لماذا أبعدوا اللوحة إلى هناك، إلى آخر الزهرانية، فصارت السيارات التي تقصدها تقطع المسافة مرتين، مرة لتذهب، هناك في الطريق الجديدة، إلى آخر الزهرانية، ومرة لتعود إلى وسطها أو إلى أولها، هنا على طريقنا القديمة.

وهي سيارات قليلة على أي حال لا يصل إلينا منها إلا تلك التي لمعمل البلاط الذي أقاموه في مكان البيت القديم الهابط سقفه. سيارات أخرى كانت تتجمع هناك، عند المفرق الموصل إلى الهضبة، لكن لينزل سائقوها إلى دكاكين من أتوا إلى الزهرانية بعد أن نزل إليها المسلحون. هناك كانوا يأكلون، وهم واقفون غير بعيدين عن سياراتهم، من مطاعم اللحم الصغيرة التي فتحت هناك أيضاً، ثم يعودون من حيث أتوا.

ولا تصل إلينا من السيارات إلا تلك التي لمعمل البلاط ولزائريه القليلين. ونحن، على أي حال، لم نعد ننتظر مرورها إذ بتنا، أنا وأخي، ننزل إلى محلنا ساعة نشاء، لا لنبيع، لكن فقط لندخل إليه ونقعد على الكراسي فيه. اللعب التي كانت قد عتقت على رفوفها تأخّرنا في بيعها. ولو لم تفتح الطريق الجديدة في الأعلى لأبقيناها ربما وإن فقط من أجل أن نجلس بينها وننفض عنها الغبار كلّما اتسخت. «بالجملة»، أخذ يقول لهم أخي، «إما كلها وإما لا نبيع شيئاً». ذاك لأن البسكلاتات كان قد بدأ يصدأ حديدها من هواء البحر. ثم أن لعباً كثيرة تخرّبت وهي في أماكنها على الرفوف فلم تعد تغمض عينيها أو تفتحها كلّما قلبناها. كما

تخربت على الرفوف أيضاً لعب كبيرة لم تعد تتكلم بعد أن لم تعد تشغّلها البطاريات.

«بالجملة» كان يقول لهم أخي وأنا واقف بجانب الطاولة أتفرّج عليه. وكان يقول لي «إنه سيعود»، قاصداً الرجل الذي نزل مسرعاً على الدرجات الأربع، غير ملتفت إلى الوراء، كأنما ليظهر لنا أنه بمجيئه إلينا قد أضاع وقته. وكان يعود، هو وسواه ممن كانوا يجيئون، لكن لكي يغادروا مرة أخرى، نازلين الدرجات بسرعة توحي هذه المرة أنهم لن يعودوا أبداً.

«بالجملة.. نبيعها بالجملة»، يقول وإن كان، بمقابل ذلك، يخفض ثمن البيع في كل مرة.

حتى أننا كان يمكننا أن نقبض الثمن نفسه فيما لو أبقينا البسكلاتات واللعب المخرّبة عندنا. «لكن ماذا سنفعل بها»، أجاب أخي فيما نحن ننزِّل الألعاب للرجل الذي كان يجمعها في الصناديق الكبيرة التي كلما ملأ منها واحداً، يرفع رأسه إلينا ليقول إنه سيأتي بصناديق أخرى لأن هذه التي أحضرها لن تكفي.

ولم يبق في المحل إلا الطاولة والكرسيان والديكور الذي على الجدران والرفوف الفارغة. كنا ننزل إليه لنفتح بابه فقط، لكن أيضاً من أجل أن نرى البحر تحت الطريق أمامنا. حيث أننا، من بيتنا، لا نراه مرتاحين فهو لا ينكشف إلا من تلك الزاوية الضيّقة في شرفتنا. يجب أن ننزل إلى المحلّ، أقول لأخي كأنني أسأله إن كان ينزل هو أو أنزل أنا. قبل أن يشقّوا الطريق الجديدة الواسعة في الأعلى كان يقول لي إننا يجب أن نفعل شيئاً آخر فيه: «لعب!»، يقول مبتسماً، بل وهامّاً بأن يحوّل ابتسامة إلى ضحك

لكوننا اخترنا بيع اللعب من بين جميع أنواع الشغل وأشكاله. «لكننا لا نعرف أن نشتغل بغيرها»، أجيبه، ثم أن لا شغل يُربح الآن، أضيف، مذكّراً إياه بمحلات الأكل الصغيرة هناك، تلك التي يأكل أصحابها نصف ما يطبخونه.

* * *

«أنت أيضاً يجب أن تتريّض»، يقول لي أخي كلما عاد من مشيه الذي يوصله إلى شركة الكهرباء البعيدة. يكون يلهث وثيابه مثقلة بالعرق الذي لا يلبث أن يجفّفه عن جبهته حتى يعود يتدفق من جديد. «هذا اليوم لم أتعب»، يقول لي. وفيما هو يستدير ليصعد إلى البيت يعود إلى نصحي بأن عليّ أنا أن أتريّض، مشيراً بإصبعه إلى جسمي.

كنت مثله في حاجة إلى أن أُنقص ساعة أو ساعتين من وقت النهار الطويل، غير أن المشي يتعبني حتى وإن لم أتعدّ به بوابة المسبح. «هذا من الكسل»، يقول لي أخي الذي يفكّر، بعد كلّ عودة له من رياضته، إنه كان نشيطاً هكذا طيلة اليوم كله. وأنا أجيبه بأني أتعب هكذا من ثقل جسمي. وإذ يروح يذكّرني بالقوة التي كانت لي وبأنني كنت أحمل الواحد من رفاقه بيد واحدة لأرميه في الماء، يكون لا يفلح إلا في تذكيري بأني كبرت وأن عمري يقترب من الخمسين. الذين أجسامهم كبيرة مثلي، أقول له، سريعاً ما تذهب قوّتهم وإن ظلّ جسمهم على كبره.

ولم يعد شيء يقطع الوقت الطويل الذي أقضيه نازلاً إلى محلّنا وصاعداً بعد ذلك إلى البيت. لا لعب لأنفض عنها الغبار ولا أحد هناك تحت عمود الكهرباء لأتسلى بالنظر إليه. كما أنني

كنت أعرف فوق ذلك أن لا شيء سيحدث في الزهرانية إلا أن ينقص الذين أعرفهم ويزداد أولئك الذين يتجمعون هناك، قادمين من أمكنة لا أستطيع أن أتخيّل كيف هي. وكلما قالت زوجة أبو عاطف أنه، هو زوجها، سوف يعود وإنه أرسل يقول لها ذلك، أفكّر أنه، إن عاد، فمن أجل أن يضجر في جلوسه على البلكون، ما دام أنه لن يجد شيئاً تحته ليوسع له عينيه المفنجرتين. «سيعود، هو قال إنه سوف سيعود». إنه يضحك عليها، يقول أخي حتى قبل أن تستدير عائدة إلى بيتها، ليسأل: ومن أجل ماذا يعود؟ هكذا، كأن أبو عاطف يعرف، من حيث هو هناك، كيف صارت امرأته.

«قم بنا، قم إلى الرياضة»، يقول لي، مرات قليلة فقط مشيت معه لكن لأعود «قبل أن يحمى جسمي»، كما كان يقول. كنت أتحسّب لرجوعي، أن أبقي شيئاً من قوّتي لمسافته. وهو لم يعد يلحّ عليّ بأن أكمل، ذاك لأني أبطأت مشيه وأخّرته عن رياضته. أتعب وأصير ألهث. في المرة الأخيرة احتجت إلى أن أقعد فقد رأيت أني لن أستطيع أن أصل إلى محلنا من دون أن أرتاح وأهدّئ نَفَسي.

كنت أنتظره على مصطبة محلنا حين رجع مبللاً كله بعرقه. قلت له إني رأيت باب المسبح مفتوحاً. «هو مفتوح»، أجابني فيما هو يبعد قميصه المبلّل عن بطنه. «هو مفتوح، من زمان مفتوح»، قال، فيما هو يرفع طرف قميصه ذاك ليزيل به العرق عن وجهه، ماسحاً العرق بالعرق.

وقد انفتح لوحده من صدأ حديده. أخي لم ينزل إليه منذ أن

أخلاه أصحابه، هاربين، مثلهم مثل أصحاب البيوت تحت الطريق. قال إنه يخرب لوحده، وهو يستطيع أن يتخيّل كيف هي البركة من المنظر الذي بات عليه مدخله.

ـ كأنك دخلت إلى هناك؟ قال ناظراً إليّ ومبتسماً من أحد طرفي فمه. كأنني، إن نزلت، أكون أفعل شيئاً يستدعي تلك الابتسامة المعابثة.

* * *

ليس جسمي الكبير وحده الذي يمرضني، ولا عمري الذي صار في الخمسين. في أحيان أفكر إنه بيتنا، المبنى الذي نحن فيه، هذا الذي تحرق الشمس باطونه كل يوم. باطونه الذي أبقيناه هكذا بلا طلاء يلوّنه. أو أقول إنه البحر وهواء البحر، ذاك الذي، إن كان يفعل هكذا بالحديد، فكيف يفعل بأجسامنا. ذلك اللون البني، أو الأصفر المسودّ، لا يضرب الحديد فقط. لقد رأيناه أيضاً في الماء النازل من الحنفيات. «أنظر. أنظر»، قال لي أخي فيما هو يعلي يده ليريني كبّاية الماء الوسخ. «هل شربنا منها وهي وسخة هكذا؟»، قال لي فيما هو يسير بها إلى المجلى ليدلقها هناك في بالوعته.

(تـمّـت)

إنّها عمارة روائية. سنتوقّف كثيراً عند البناء، عند هذا التوازن الكبير بين القصّ والتأمّل، بين التخييل والواقع وبين الصورة والخبر. سنجد نصّاً يخترق برشاقة تشبه الرقص وبسخرية ناعمة ولاذعة معاً جبلاً من الممنوعات.

**(عباس بيضون)**

كثيرٌ من التواطؤ في هذا الكتاب بين المؤلّف وشخصيّاته على سرد منازل العزلة... كتاب محزونين وحمقى ولامبالين وأنقياء. كتابٌ بارع. لَعَلّه تحفة.

**(بسام حجار)**

تحت سطح النصّ الهادىء لحسن داوود صخبٌ يثير الريبة بالاجتماع: فيقدّمه كأنّه مكيدة تفضي إلى خراب لا يُعمّر بعده، أو ربّما كورطة لا علاجٍ منها إلاّ بعنفين، واحد في داخل صاحبه وآخر مداه مدى الخارج كلّه.

**(حازم صاغيّة)**

مع حسن داوود، لا نعود نميّز بين «كتابة الرواية» و«رواية الكتابة». فهما نمطان يتطابقان تماماً «كالرسمين اللذين يصيران كأنهما رسمٌ واحد»، قطعة أدبية واحدة. إنه يروي بتأنٍّ معاناة الكتابة الكاشفة، تلك الكتابة التي لا يملك سرّها ونهايتها إلاّ البطل الذي التقاه صدفة على قارعة طريق.

**(جورج دورليان)**

**حسن داوود** روائي لبناني. صدرت له روايات عدّة منها «بناية ماتيلد»، «أيام زائدة»، «غناء البطريق»، «لعب حيّ البياض». كما صدرت له مجموعتان قصصيتان «تحت شرفة أنجي» و«نزهة الملاك». وقد ترجم عدد من رواياته إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية.

S.R. 30
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
ريال

ISBN 978-1-85516-361-4
9 781855 163614 >

DAR AL SAQI
دار الساقي